العصر العباسي الأول

دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي



الدكتور عبد العزيز الدوري

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

الدوري، عبد العزيز

العصر العباسي الأول: دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي/ عبد العزيز الدوري.

٣٠٤ ص. ـ (الأعمال الكاملة للدكتور عبد العزيز الدوري؛ ٣)

ببليوغرافية: ص ٢٨٣-٢٩٢.

يشتمل على فهرس.

ISBN 978-9953-82-261-7

١. التاريخ الإسلامي ـ العصر العباسي. ٢. العباسيون. أ. العنوان. ب. السلسلة.

956.01

العنوان بالإنكليزية

The Early Abbasid Era:

A Study in Politcal, Administrative and Fiscal History

by Abdul Aziz Duri

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣

الحمراء ـ بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ ـ لبنان

تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)

برقياً: «مرعربي» ـ بيروت ـ فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)

e-mail: info@caus.org.lb

Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى عن المركز: بيروت، تموز/يوليو ٢٠٠٦

الطبعة الثانية عن المركز: بيروت، تموز/يوليو ٢٠٠٩

وأول العلم بكل غائب الظنون. والظنون إنما تقع في القلوب بالدلائل. فكلما زاد الدليل قوي الظن حتى ينتهي إلى غاية تزول معها الشكوك عن القلوب، وذلك لكثرة الدلائل ولترادفها.

الجاحظ

المحتويـــــــات

مقدمـــــــة

بينما قطع البحث التاريخي أشواطاً بعيدة في الغرب، واتجهت عناية مؤرخيه إلى نواحيه المختلفة من مالية واجتماعية وثقافية، فضلاً عن النواحي السياسية، فإن مؤرخ تاريخ الإسلام لا يجد بين يديه إلا معلومات مرتبكة (غالباً) قليلة لا تفي بالمراد. فما كتب في تاريخه السياسي لا يرضي، وتاريخه الاقتصادي مهمل إلى الآن وأما تاريخ الحضارة فما زال في بدئه.

فعسى أن تسدّ هذه المحاضرات (وهي مما ألقي على طلاب السنة الثالثة في دار المعلمين العالية) بعض الفراغ في التاريخين المالي والسياسي للعصر العباسي الأول.

أما رسالة هذه المحاضرات فهي تعويد طلابنا على طريقة البحث العلمي في مجابهة معضلات التاريخ، ولا ننكر أن هذه المحاضرات لم تف هذا الموضوع حقه، إذ إنها نتاج بحث أعد في أثناء السنة الدراسية. وإذا ما سمحت لنا الأيام، فسنعيد كتابتها على وجه أدق وأوفى، والله الموفق للرشاد.

بغداد، ١٤ شباط/ فبراير ١٩٤٤

عبد العزيز الدوري

الفصل الأول

الدعـــوة العباسيـــة

تمهيد

نشأت الدولة العباسية على أثر دعاية واسعة النطاق دامت حوالى ثلث قرن، فضمت إلى صفوفها كل من عادى الأمويين، وتركت آثاراً مهمة في نفوس المسلمين (من غير العرب)، وبخاصة الفرس. ولكي نفهم هذه الدعوة علينا أن ندرس أوضاع الأماكن التي انتشرت فيها من الناحيتين المالية والاجتماعية. هذا إضافةً إلى دراسة نشوئها وأساليبها ومبادئها التي بشرت بها.

وقد انتشرت الدعوة العباسية الأولى بين الموالي (المسلمين من غير العرب) في العراق وخراسان، إذ أسرعوا وانضموا إليها رغبة في التخلص من أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية السيئة، كما انضم بعضهم لتحقيق آراء كانوا يدينون بها.

أولاً: الحالة الاجتماعية للموالي[1]

تغلب العرب على الفرس والروم بسرعة فارتفعت نفسياتهم، وتملكهم الشعور بالسيادة. وأخذوا يشعرون أن العربي خلق ليسود وخلق غيره ليخدم، ونظروا إلى العناصر الأخرى نظرة السيد إلى المسود. وتمثلت نظرتهم في قول أحدهم عن الموالي «يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا».

واعتقدوا أنهم هم الأشراف، وأن غيرهم لا حسب لهم حتى بعد إسلامهم إلا بعد أن يلتحقوا ببعض القبائل العربية على أن يكونوا موالي لتلك القبائل[2]. وربما كان من المفيد أن نتذكر أن كلمة «مولى» تعني «العبد» أيضاً.

ولم يحتقروا الموالي لجنسيتهم فقط، بل احتقروهم لمهنهم، فالعرب يحترفون السياسة والحرب، بينما يشتغل الموالي بالمهن اليدوية (على الأغلب) كالزراعة والصناعة.

---

(١) انظر في هذا: جرجي زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي**، ٥ ج (القاهرة: دار الهلال، ١٩١٨)، ج ٤، ص ٥٥ وما بعدها، وأحمد أمين، **ضحى الإسلام**، ٣ ج (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٤)، ج ١، ص ١٧ وما بعدها.

(٢) Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (London: Macmillan, 1937), p. 27.

ولم يستخدموا الموالي إلا في الأعمال الكتابية وفي الجباية وهم يحتقرونها، وأبعدوهم عن الوظائف النبيلة، فلما ولي سعيد بن جبير القضاء بالكوفة، ضجّ الناس وقالوا: «لا يصلح للقضاء إلا عربي»[٣].

وكانوا يستخدمونهم في الحروب مشاة، حتى إن المختار بن عبيد الثقفي صديق الموالي أوصى إبن الأشتر عندما أرسله لمحاربة عبيد الله بن زياد: «إن عامة جندك هؤلاء الحمراء (الموالي) وأن الحرب إن ضرستهم هربوا، فاحمل العرب على متون الخيل وأرجل الحمراء أمامهم»[٤].

وأبوا أن يقاسمهم الموالي ثمرات البلاد المفتوحة، فحرموهم من العطاء، ومنحوهم بعض الشيء من الغنائم أو الفيء. فيذكر الطبري أن أهل الكوفة سخطوا على المختار وأنه «لم يكن في ما أحدث المختار عليهم شيء هو أعظم من أن جعل للموالي من الفيء نصيباً»[٥]. وكيف يشاركونهم في الفيء (وارد البلاد المفتوحة) وهم يعتبرون البلاد المفتوحة وأهلها كأملاك يتصرفون بها؟ يتضح هذا في قول الكوفيين للمختار: «**عمدت إلى موالينا وهم فيء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعاً فاعتقنا رقابهم**. نأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر، فلم ترض بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا!»[٦]. وتظهر هذه النظرة في قول (شريك): «أهل السواد أرقاء»[٧]، وقول عمرو بن سعيد والي الكوفة: «السواد بستان قريش»[٨].

وكان الموالي محتقرين في المجتمع، فلا يخاطبهم العرب بالكنية وكانوا يقولون: «لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار أو كلب أو مولى»[٩]. ولما بنى الحجاج مدينة واسط نفى النبط منها وكتب إلى عامله على البصرة: «إذا أتاك كتابي فانف من قبلك من النبط

---

(٣) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، **الكامل**، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاتة، ٣ ج (القاهرة: مطبعة نهضة مصر، [١٩٥٦])، ج ٢، ص ٤٣٩.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

(٥) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٣ ج في ٥ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٣٦هـ/١٩١٧م)، ج ٧، ص ١١٦، وأبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، **تاريخ الكامل**، ١٢ ج في ٦ (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٠٣هـ/[١٨٨٥م])، ج ٤، ص ٩٠.

(٦) الطبري، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١١٦.

(٧) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **اختلاف الفقهاء**، باعتناء يوسف شخت (ليدن: [مطبعة بريل]، ١٩٣٣)، ص ٢٢٥.

(٨) انظر: زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي**، ج ٢، ص ١٩.

(٩) أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، **العقد الفريد**، صححه وشرح غريب ألفاظه أحد أفاضل العصر، ٤ ج (القاهرة: محمود شاكر، ١٩١٣)، ج ٢، ص ١٦٠.

فإنهم مفسدة للدين والدنيا»[١٠]. ومنع العرب التزاوج مع الموالي، فجلد والي المدينة مولى تزوج من بني سليم وفرق بينه وبين زوجته وضربه مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه[١١].

وقد امتد احتقارهم إلى أولاد الإماء، ويسمون ابن الأمة الهجين «لأنه معيب»[١٢]. ويقول إبن عبد ربه: «وكانت بنو أمية لا تستخلف بني الإماء وقالوا لا تصلح لهم العرب»[١٣]. واحتج الخليفة هشام على زيد بن علي (رضي الله عنه) عند طلبه الخلافة قائلاً: «بلغني أنك تخطب الخلافة ولا تصلح لها لأنك إبن أمة»[١٤]. حتى إن محمداً ذا النفس الزكية افتخر على المنصور قائلاً: «إني لست من أولاد الطلقاء ولا اعرقت فيّ الإماء ولا حضنتني أمهات الأولاد»[١٥].

ولذلك سخط الموالي على الأمويين وعلى من ينتقصهم. يذكر المبرد أنّ الشاعر جرير هجا بعض بني العنبر بن تميم الذين لم يقروه حتى اشترى منهم القرى، فقال:

قالوا نبيعكه بيعاً فقلت لهم   بيعوا الموالي واستحيوا من العرب.

ويضيف: «وتزعم الرواة أنّ ما أنفت منه جِلّة الموالي هذا البيت لأنه حَطّهم ووضعهم ورأى الإساءة إليهم غير محسوبةٍ عيباً»[١٦].

وكانت هذه النظرة سائدة في الأوساط الرسمية وبين القبائل والأعراب. أما الأوساط العلمية والدينية، فكانت تنظر إليهم بعين المساواة.

ثانياً: الأوضاع المالية

كانت الضرائب التي فرضها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على البلاد المفتوحة معتدلة بالنسبة إلى ما كانت عليه قبل الفتح الإسلامي[١٧]. ولكن الأمويين كانوا بحاجة إلى الأموال الكثيرة لاصطناع الأحزاب ولتهدئة الثورات، ولسد حاجات البلاط

(١٠) أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، ج ١، ص ٢١٨.

(١١) علي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني** (القاهرة: الساسي، [د. ت.])، ج ٤، ص ١٥٠.

(١٢) أمين، **ضحى الإسلام**، ج ١، ص ٢٥.

(١٣) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**.

(١٤) انظر: زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي**، ج ٤، ص ٥٧.

(١٥) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٠.

(١٦) المبرد، **الكامل**، ج ٢، ص ٥٩ و٦١.

(١٧) إنظر: ألفرد جوشيا بتلر، **فتوح العرب لمصر**، عربه محمد فريد أبو حديد (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٣)، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

وللفتوحات، فأدى ذلك بهم إلى زيادة الضرائب وجمعها بمختلف الطرق، فنتج من هذا الاتجاه مساوئ عامة وأخرى تختص بمناطق معينة.

١ ـ المساوىء العامة

من المساوئ العامة **زيادة كمية الجزية والخراج**. فمثال الزيادة في الجزية ما أضيف على أهل الجزيرة (القسم الشمالي من العراق)، حيث كانت جزيتهم ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً وقسطين خلاً في العام لكل رجل. فلم يرض عبد الملك بن مروان بذلك وبعث إلى عامله، فأحصى الجماجم واعتبر الناس كلهم عمالاً بأيديهم، وبحسب ما يكسبه العامل سنته كلها، ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وإدامه وكسوته، وطرح أيام الأعياد في السنة كلها، فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل فرد أربعة دنانير، فألزمهم ذلك جميعاً وجعلهم طبقة واحدة[١٨].

وأمثلة الزيادة في الخراج كثيرة منها ما يرويه المقريزي من أن عبيد الله بن الحبحاب صاحب خراج مصر «كتب (سنة ١٠٦هـ) . . إلى هشام بأن أرض مصر تحتمل الزيادة، فزاد في كل دينار قيراطاً»[١٩]. ويروي الجهشياري أن عامل مصر قال لسليمان بن عبد الملك: «يا أمير المؤمنين إني ما جئتك حتى نهكت الرعية وجهدت، فإن رأيت أن ترفق بها وترفّه عنها وتخفّف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها وصلاح معايشها فافعل، فإنه يستدرك ذلك في العام المقبل»، فأجاب سليمان: «هبلتك أمك. أحلب الدر، فإذا انقطع، فاحلب الدم والنجا»[٢٠]. وفي سنة ١٠٤هـ في خلافة يزيد بن عبد الملك «اشتد أيضاً أسامة بن زيد التنوخي متولي الخراج على النصارى، وأوقع بهم وأخذ أموالهم ووسم أيدي الرهبان»[٢١]. وفي خلافة هشام بن عبد الملك «تشدد» العامل «على النصارى وزاد في الخراج»[٢٢].

---

(١٨) يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف، **كتاب الخراج**، اعتمد في هذه الطبعة على نسخة مخطوطة في الخزانة التيمورية رقم ٦٧٤ فقه مع معارضتها بطبعة بولاق سنة ١٣٠٢هـ (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩٧٦)، ص ٢٣ ـ ٢٤.

(١٩) أبو عمر محمد بن يوسف الكندي، **الولاة وكتاب القضاة**، مهذباً ومصححاً بقلم رفن كست (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨)، ص ٧٣، أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، **الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها**، ٥ ج (القاهرة: مكتبة المليجي، [١٩٠٦ ـ ١٩٠٨])، ج ٤، ص ٣٩٤.

(٢٠) أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، عني بتصحيحه وتحقيقه عبد الله اسماعيل الصاوي (القاهرة: عبد الحميد أحمد حنفي، ١٩٣٨)، ص ٥١ ـ ٥٢.

(٢١) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٩٥.

(٢٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٩٥.

واتبع الأمويون **طرقاً سيئة في الجباية**. فكانوا يستعملون العنف والإهانة في جباية الجزية التي اعتبروها رمز الذل والصغار، وأجحفوا أحياناً في تقدير الخراج كما في فارس حيث «كان عمال بني أمية يخرصون الثمار على أهلها، أي يحزرون مقدارها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذي يتبايعون به، فيأخذونها قرفاً على قيمتهم التي قدروها»[٢٣].

وأخذوا الجزية والخراج ممن لا تجب عليهم، ففرضوا الجزية على الرهبان كما فعل عبد العزيز بن مروان في مصر. يقول المقريزي: «أمر (عبد العزيز) بإحصاء الرهبان، فأحصوا وأخذت منهم الجزية عن كل راهب، وهي أول جزية أخذت من الرهبان»[٢٤]. وأخذوا الجزية والخراج من المغلوبين حتى بعد إسلامهم، كما فعل الحجاج مع الموالي في العراق[٢٥]. وكانت الحال كذلك في خراسان كما يظهر من شكوى خراساني إلى عمر بن عبدالعزيز «يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤدون الخراج»[٢٦]. ويروي الجهشياري أن يزيد بن أسلم والي أفريقية ليزيد بن عبد الملك أراد اتباع طريقة الحجاج مع أهل أفريقية فقتلوه[٢٧].

وفرض الأمويون **ضرائب إضافية**، كالرسوم على الصناعات والحرف[٢٨]، وضرائب على من يتزوج أو يكتب عرضاً[٢٩]. وأرجعوا الضرائب الساسانية التي تسمى «هدايا النوروز والمهرجان»، فيذكر الجهشياري أن معاوية «طالب أهل السواد أن يهدوا له في النوروز والمهرجان، ففعلوا ذلك فبلغ عشرة آلاف درهم...»[٣٠]. وصار العمال يأخذون في الخراج دراهم وزنها أكثر من أربعة عشر قيراطاً (وهي الدراهم الشرعية التي قررها عمر بن الخطاب)، فكان ذلك يزيد زيادة فاحشة في الضرائب التي يدفعها الأهالي[٣١].

---

(٢٣) انظر: جرجي زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي**، ٥ ج (القاهرة: مطبعة الهلال، ١٩٠٣)، ج ٢، ص ٢٢.

(٢٤) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٩٤.

(٢٥) انظر: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٨، ص ٣٥؛ ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٤، ص ١٧٩، و J. Wellhausen, *The Arab Kingdom and its Fall*, translated by Margaret Graham Weir ([Calcutta]: University of Calcutta, 1927), pp. 279-280.

(٢٦) الطبري، المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٣٤، وابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٩.

(٢٧) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٥٧.

(٢٨) بندلي جوزي، **من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام** (القدس: [د. ن.]، ١٩٢٨)، ص ٤٢.

(٢٩) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٨، ص ١٢٩، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٥، ص ٢٣.

(٣٠) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٤.

(٣١) الطبري، المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٢٩؛ أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ٣ ج في ١ (النجف: المكتبة المرتضوية، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، ج ٢، ص ١٩٤، وغيرلوف فان فلوتن، **السيادة** =

وربما كانت الضرائب الإضافية، كما يقول بندلي جوزي أشد وطأة من الخراج والجزية لأنها لم تكن محدودة ولا مستندة إلى قاعدة مقبولة بل كان مقدارها يتوقف على رغبة العمال(٣٢).

واتخذ العمال ولاياتهم وسيلة للإثراء، فاعترف والي خراسان ليزيد بأنه قد حصل له عشرون مليوناً من الدراهم فسوّغه إياها(٣٣). وبدل أن يتخذ الخلفاء تدابير لمحاسبة الولاة ومنعهم من الظلم نجدهم يقاسمونهم في فوائدهم في الأموال التي جمعوها بتلك الطرق الباطلة، وهذا معناه رضى الخلفاء بسوء تصرف العمال مع أهل البلاد، إضافة إلى أنه دليل على أن بعضهم كان يهمه مصالح الخزينة المركزية بالدرجة الأولى(٣٤).

٢ ـ الوضع في العراق

فقد أسندت الجباية إلى الموالي والدهاقنة (النبلاء المحليون)(٣٥) لأنهم «أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة» من غيرهم، كما قال عبيد الله بن زياد(٣٦). كما إن الدهاقنة سارعوا إلى اعتناق الإسلام وصاروا حلفاء العرب، فحافظوا على نفوذهم وجمعوا ثروات طائلة، فوقع ثقل الضرائب على الطبقة العامة. يقول ابن قتيبة: «ولم أر في الشعوبية أرسخ عداوة ولا أشد نصباً للعرب من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى»(٣٧).

وقد فرض العرب على أهل الذمة (غير المسلمين في الدولة الإسلامية) في العراق ضريبتين هما: الجزية والخراج، وعند إسلام الذمي يعفى من الجزية(٣٨).

= **العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية**، ترجمه عن الفرنسية ونقده وعلق عليه حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٣٤)، ص ٢٩.

(٣٢) جوزي، **من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام**، ص ٤٢.

(٣٣) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٩.

(٣٤) انظر: فلوتن، **السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية**، ص ٢٨ ـ ٣٣.

(٣٥) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٢، ص ٢٩.

(٣٦) زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي** (١٩٠٣)، ج ٢، ص ٢٣.

(٣٧) **رسائل البلغاء: تحتوي على ما عرف لعبد الله بن المقفع من الأدب الصغير والأدب الكبير وغيرهما وما لعبد الحميد بن يحيى الكاتب من الرسائل والنتف والحكم وعلى الرسالة العذراء في موازين البلاغة وأدوات الكتابة لأبي اليسر ابراهيم بن محمد بن المدبر**، عني بجمعها محمد كرد علي (القاهرة: دار الكتب العربية الكبرى، ١٩١٣)، ص ٢٧٠.

(٣٨) انظر: أبو زكريا يحيى بن سليمان بن آدم القرشي، **كتاب الخراج**، صححه وشرحه أحمد محمد شاكر (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م)، ص ٣٩؛ أبو عبيد القاسم الهروي بن سلام، **الأموال**، صححه وعلق هوامشه محمد حامد الفقي، ٤ ج في ١ (القاهرة: مطبعة حجازي، ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م)، ص ٧٨ و٩٣، ويوليوس فلهاوزن، **الدولة العربية وسقوطها**، نقله إلى العربية يوسف العش (دمشق: مطبعة الجامعة السورية، ١٩٥٦)، ص ٢٧٦.

وإذا اشترى العربي المُسلم أرض خراج لا يدفع عنها إلا العشر. فلما دخل كثير من الذميين في الإسلام، عن عقيدة أو غير ذلك، وكثر شراء العرب الأراضي الخراجية، إضافة إلى توسّع نفقات الدولة للإدارة ولمواجهة الثورات، أصبحت الدولة مهددة بأزمة مالية. فحاول الحجاج إنقاذ مالية الدولة بأن فرض الجزية على من أسلم، وأعاد بعض الأراضي الخراجية التي تحولت إلى العشر على يد العرب إلى الخراج، وأرجع الفلاحين النازحين إلى المدن إلى قراهم لئلا تبور المزارع(٣٩). فضجّ الموالي من سياسة الحجاج لأنها كانت تنافي مبادئ الإسلام، ولم يكترث الوالي للأمر. واستمر هذا الوضع حتى خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ)، فوضع حلاً يتفق والإسلام ويحفظ للخزينة حقوقها، ذلك أن أعفى من أسلم من الجزية، ولكنه اعتبر الخراج إيجاراً لأرض الخراج التي هي ملك مشترك للمسلمين، ويترتب على زارع هذه الأرض أن يدفعه سواء أكان مسلماً أم ذمياً(٤٠). كما ألغى عمر الضرائب الإضافية، كهدايا النوروز والمهرجان، وضرائب الزواج، و«أجور الضرابين»، و«أجور البيوت»، ورسوم العرائض(٤١).

ولكن إصلاحات عمر انتهت بوفاته، إذ أمر خلفه بنقضها بأن كتب إلى عماله: «أما بعد فإن عمر كان مغروراً. . . فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى، أخصبوا أم أجدبوا، أحبوا أم كرهوا، حيوا أم ماتوا»(٤٢). وكانت نتيجة هذه السياسة في العراق أن رجع الضغط على دافعي الضرائب وأرجعت الضرائب الإضافية(٤٣).

ثم دفعت كثرة الضرائب الملاكين الصغار إلى أن يحتموا بالملاكين الكبار من العرب أو برجال الدولة، فكانت الأرض تسجل باسم الحامي، ويدفع مالكها الحقيقي له جزءاً من الحاصل لقاء حمايته من عبث العمال(٤٤)، وهذا هو «الإلجاء». وفي ولاية الحجاج ألجأ عدد كبير من الملاكين أراضيهم إلى مسلمة بن عبد الملك(٤٥)، ولكن تسجيل الأرض باسم شخص ثان كان يفقد الملاك الأصلي أرضه في كثير من الأحيان.

---

(٣٩) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٨، ص ٣٥، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٤، ص ١٧٩.

(٤٠) انظر: ابن آدم، المصدر نفسه، أرقام (٣٤)، (٥٠) و(١٩٣).

(٤١) الطبري، المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٢٩.

(٤٢) محمد كرد علي، **الإدارة الإسلامية في عز العرب** (القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٣٤)، ص ١٤.

(٤٣) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٥٥.

(٤٤) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١١٨.

(٤٥) أبو الفرج قدامة بن جعفر، **الخراج وصناعة الكتابة**، باعتناء جان دو غويه، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦ (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٩)، ص ٢٤١.

٣ـ الوضع في خراسان

عقد الفاتحون العرب مع أمراء المناطق الإيرانية عقوداً تعهد الأمراء بموجبها أن يدفعوا جزية سنوية مشتركة عن مناطقهم، ولم يُشَر فيها إلى الخراج على الأرض لأنّ وضع الخراج يأتي بعد استقرار الفتح، وهذا فتح المجال للتلاعب.

وتعاون الدهاقنة وعمال الدولة في جباية الضريبة بتأكيد الجزية، فاتفقت مصالحهما على حساب الرعية[٤٦]. ويقول بارتولد (Barthold): «رضيت الدهاقين في العصور الإسلامية الأولى في إيران بزوال خطورتهم السياسية نظير ما نالوا من الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية»[٤٧]، فكان الوضع في خراسان، كما قال أعجمي لعربي: «الشريف من كل قوم نسيب الشريف من كل قوم»[٤٨].

ووقع ثقل الضرائب في الجباية على رؤوس الأهلين لا على مساحة الأرض، إذ لو فرضت على الأرض لوقع أكثرها على الدهاقنة[٤٩]. وهكذا استغل الدهاقنة موقفهم للترفيه عن أنفسهم وللضغط على الرعية.

وبما أن اعتناق الإسلام يعفي من ضريبة الرؤوس، كان انتشاره يتعارض مع مصلحة الدولة المالية من جهة، ومع مصلحة الدهاقنة المادية ونفوذهم المعنوي[٥٠] من الجهة الأخرى، ففرض الأمويون الضريبة أحياناً على من أسلم، كما أنهم حرموا من دخل الجيش من الموالي من العطاء، فكان ذلك مدعاة لتذمر الخراسانيين.

فلما بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة حاول وضع حد لهذه المساوئ، فأعفى المسلمين من الجزية وأعطى الموالي المقاتلة مثل العرب[٥١]. فزاد انتشار الإسلام. ولكن يزيد بن عبد الملك نقض هذه السياسة وزاد في الضرائب كي يسدّ النقص الذي سببه سلفه[٥٢].

---

(٤٦) فلوتن، **السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية**، ص ٤٨ ـ ٥٠.

(٤٧) ف. بارتولد، **تاريخ الحضارة الإسلامية**، نقله من التركية إلى اللغة العربية حمزة طاهر؛ قدم له عبد الوهاب عزام (القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٢)، ص ٦٥.

(٤٨) **رسائل البلغاء: تحتوي على ما عرف لعبد الله بن المقفع من الأدب الصغير والأدب الكبير وغيرهما وما لعبد الحميد بن يحيى الكاتب من الرسائل والنتف والحكم وعلى الرسالة العذراء في موازين البلاغة وأدوات الكتابة لأبي اليسر ابراهيم بن محمد بن المدبر**، ص ٢٧٠.

(٤٩) انظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ج ٨، **تاريخ الطبري**، ص ١٩٦؛ فلوتن، **السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية**، ص ٥٠، و G. H. Sadighi, *Les Mouvements religieux iraniens au IIème et au IIIème siécle de l'hégire* (Paris: Les Presses modernes, 1938), p. 5.

(٥٠) انظر: فلوتن، المصدر نفسه، ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٥١) الطبري، المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٣٤ و١٣٩، واليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٤٥.

(٥٢) انظر: فلوتن، المصدر نفسه، ص ٥١.

وقامت محاولة أخرى لإصلاح الوضع الاقتصادي في خلافة هشام، إذ وعد واليه أشرس بن عبد الله السلمي (١٠٩ ـ ١١٢هـ/ ٧٢٧ ـ ٧٢٩م) بإعفاء من أسلم من ما وراء النهر من الجزية. فنجحت دعوته إلى درجة بعيدة، فرعب الوالي لأن «في الخراج قوة للمسلمين» كما قال، وتذمر الدهاقنة لأنهم «لا يودّون نشر دين فيه روح المساواة»، كما يقول بارتولد، فقال لعماله: «خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه منه»، فأعادوا الجزية على من أسلم(٥٣)، فقامت ثورة عامة في ما وراء النهر استمرت حتى ولاية نصر بن سيار. ولا ننسى ما كان للدهاقنة من يد في عرقلة ما قام به الأمويون من محاولات إصلاحية(٥٤).

وأخيراً، حاول نصر بن سيار (١٢٠ ـ ١٣١هـ/ ٧٣٨ ـ ٧٤٨م) تنظيم الضرائب في خراسان بطريقة عادلة، فقرر إعفاء المسلمين من الجزية، ولم يجد صعوبة في ذلك، إذ وجد ثلاثين ألف مسلم يدفعون الجزية، وثمانين ألف رجل من المشركين رفعت عنهم جزيتهم، ففرض عليهم الجزية وأعفى المسلمين. ثم قسم خراسان إلى مناطق ضرائب، وفرض على كل منطقة كمية معينة تجبى على الأرض مهما كان مالكها(٥٥). وقد أغضبت تدابير نصر هذه الدهاقنة، إضافة إلى أنها جاءت متأخرة.

ثالثاً: الحالة المعنوية

١ ـ الحالة في الكوفة

كانت الكوفة مهد الدعوة العباسية، وكانت شبه بوتقة صهرت فيها كثير من الثقافات القديمة، كما انتشرت فيها بعض الديانات القديمة، كاليهودية والزردشتية والمانوية وبعض العقائد البابلية. وأدى وجود هذه الديانات إلى تسرب بعض الآراء الغريبة إلى غير العرب من سكانها كمبدأ تقديس الملوك، وبعض المبادئ الغريبة كمبدأ تناسخ الأرواح والحلول، فلا غرابة إذاً من انتشار بعض عناصر الغلو في الدعوة العباسية. هذا، إضافة إلى أن سخط موالي الكوفة كان شديداً على السياسة الأموية.

---

(٥٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٩٦ ـ ١٩٧؛ ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٥، ص ٥٤، و W. Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, translated from the original Russian and revised by the author with the assistance of H. A. R. Gibb, E. J. W. Gibb Memorial Series. New Series; V, 2nd ed. (London: Luzac and Co., 1928), pp. 189-190.

(٥٤) انظر: فلوتن، المصدر نفسه، ص ٥٥، و Sadighi, *Les Mouvements religieux iraniens au IIème et au IIIème siécle de l'hégire*, p. 48.

(٥٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٦٨، وفلهاوزن، **الدولة العربية وسقوطها**، ص ٤٧٨ ـ ٤٨١.

كما إن القبائل العراقية كرهت أن ترى السواد يستغله الأمويون، وسعت لاسترجاع حقها فيه، وكانت تميل إلى العلويين وترى فيهم منذ مقتل علي (ﷺ) رمز سلطتها المفقودة. ولكن عرب العراق لم يعترفوا للموالي بالمساواة، وكان عددهم كبيراً جداً بالنسبة إلى الموالي. ولعلنا ندرك من ميول العرب العلوية في الكوفة، ومن احتقارهم الموالي، أن الكوفة ما كانت تصلح لأن تكون مهداً رئيسياً للدعوة.

٢ ـ الحالة في خراسان

أما خراسان، فكان فيها من أسلم رغبة في الإسلام، ومن أسلم طمعاً في الامتيازات، ومن حافظ على دينه الأصلي. وكان كل من هذه الجماعات ساخطاً على الأمويين، فـ **أولاها** حقدت عليهم لإهمالهم مبادئ الإسلام، و**الثانية** خاب ظنها بالمساواة، و**الثالثة** كانت تنتظر الفرصة لتنقذ دينها[٥٦].

ولم ينتشر الإسلام بصورة متساوية في إيران، فكان انتشاره في الغرب قوياً، وفي طبرستان والديلم كاد يكون معدوماً، وأما في خراسان فانتشر في المدن الكبيرة. ولكن الديانات الفارسية بقيت منتشرة في القرى، فساعد ذلك على انتشار بعض الآراء القديمة غير الإسلامية في التناسخ والحلول. ووجدت إلى جانب هذه بعض المذاهب الفارسية القديمة التي لم تتخلّ عن عقائدها، ولم تقبل الدين الإسلامي، بل سلكت طريقاً وسطاً حافظ على الأسس الفارسية واقتبس شيئاً من الإسلام كما هو الحال مع «الخرمية»[٥٧].

ووجدت في خراسان بوادر روح قومية فارسية تضيق بحكم العرب، وتعتبره نوعاً من عجائب القدر، وتسعى للخلاص منه بكل وسيلة، إلا أن وجود تباين في المصالح بين طبقات الشعب الإيراني، وعدم وجود شعور عام، واقتصار الثقافة على طائفة صغيرة نسبياً، يحملنا على الاعتقاد بأن الحركة القومية كانت محدودة. وقد فكر الطامحون بإرجاع مجد إيران، ولكنهم وجدوا أن محاولة الانفصال عن العرب مباشرة ضرب من الحمق لأن ذلك يوحّد العرب ضدهم، وعليه فخير طريقة كانت أن يؤيدوا بني هاشم، فإذا ما انتقلت السيادة إلى هؤلاء بمساعدتهم فستصبح السلطة في أيديهم، وعند ذاك يحققون نياتهم الأصلية[٥٨].

---

(٥٦) قدم صديقي (Sadighi) هذا الكتاب كرسالة للدكتوراه لجامعة باريس، وطبع منه مئة نسخة فقط، وقد ظفرت قبل عدة سنين بواحدة [أهداها المؤلف لصديقي الدكتور لويس أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة لندن]، وأخذت ملاحظاتي آنئذ، ولذا فيؤسفني ألا أستطيع إعطاء رقم الصحائف دائماً.

(٥٧) Sadighi, Ibid., pp. 48 ff.

(٥٨) أمين، **ضحى الإسلام**، ج ١، ص ٣١.

وكانت غاية الخراسانيين الأولى التخلص من ظلم الأمويين، ولا يهمهم أكان الإمام عباسياً أم علوياً، وقد ظهر هذا من تأييدهم العباسيين حين استأثر هؤلاء بالسلطة. ولم تكن الدعوة العلوية قوية في خراسان، فكانت تلك البلاد صالحة لأن تكون حقلاً خصباً للدعوة الجديدة.

وكان عدد العرب قليلاً نسبياً في خراسان، إذ قدرهم فلهاوزن بمئتي ألف[٥٩]، ولم يحصروا أنفسهم في المراكز العسكرية، بل امتلكوا الضياع في الأرياف، واختلطوا بأهل البلاد، وتزوجوا الإيرانيات، واقتبسوا العوائد الإيرانية، وصار بعضهم يشعر بشيء مشترك مع الأهالي[٦٠].

ولكن عدم اعتراف العرب للموالي بالمساواة كان الحجر الأساسي في النزاع، كما إن انتشار الإسلام، وهو دين المساواة، أثار روح التذمر. هذا مع العلم بأن العرب هم أول من نظم وأثار الموالي. ففي سنة ١١٦هـ ثار الحارث بن سريج المرجئي في بلاد ما وراء النهر يدعو إلى «الكتاب والسنّة»[٦١]، وإلى حفظ العهود مع أهل الذمة، وإلى إعفاء المسلمين من الجزية ورفع الظلم عنهم، ومن ثم أراد أن تكون الخلافة بالانتخاب، وكانت رايته سوداء، فانضم إليه بعض رؤساء الأزد وتميم، وبعض الدهاقنة، وكثير من الموالي. وانتهت حركته بمقتله سنة ١٢٨هـ (٧٤٦م) بعد أن هزت الموالي، وكان لها أثر في نجاح الدعوة العباسية في ما بعد[٦٢].

وقد أظهر العباسيون تفضيلاً لخراسان على العراق كمسرح للدعوة، ويتضح سبب ذلك من الكلمة التي تنسب إلى محمد بن علي، والتي قالها لدعاته حين وجههم إلى خراسان. وسواء أصحت تلك الكلمة أم لم تصح، فهي توضح لنا وضع مختلف الأمصار، إضافة إلى أنها تعرض أمامنا برنامج الدعوة. قال محمد بن علي: «أما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده، وأما البصرة وسوادها فعثمانية (نسبة إلى الخليفة عثمان (رضي الله عنه)) تدين بالكف (عن الاشتراك في النزاع على الخلافة)، وتقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، وأما الجزيرة فحرورية مارقة، وأعراب كأعلاج،

---

(٥٩) فلهاوزن، **الدولة العربية وسقوطها**، ص ٤٩٣.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٤٩٣ ـ ٤٩٨.

(٦١) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج ٨، ص ٥١٩.

(٦٢) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٥١٩ ـ ٥٢١؛ فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد، **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي**، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، قسم التراث العربي، ١٩٨١)، ص ١٩٠ ـ ١٩٣؛ فلوتن، **السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية**، ص ٦٠ وما بعدها، و Sadighi, *Les Mouvements religieux iraniens au IIème et au IIIème siécle de l'hégire.*

ومسلمون في أخلاق النصارى، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل ابي سفيان وطاعة بني مروان وعداوة راسخة وجهلاً متراكماً، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان فإن هناك **العدد الكثير والجلد الظاهر**، وهناك **صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل**، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب (يشير إلى شجاعتهم)، وأصوات هائلة **ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة** (إشارة إلى التذمر). وبعد فإني أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق (إشارة إلى النبوءات التي ترمز إلى خراسان)»[٦٣].

رابعاً: الدعـوة

١ ـ الدعوة الشيعية

كانت لفظة شيعة تعني الأتباع والأنصار، ثم صارت تطلق بصورة خاصة على أتباع العلويين[٦٤]. ويقول الأشعري: «قيل لهم الشيعة لأنهم شايعوا علياً (رضي الله عنه) ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله»[٦٥]. وكان حزبهم من أقوى الأحزاب المناوئة للأمويين وأكثرها نفوذاً، ولذلك تسترت باسمه بعض العناصر الغريبة عنه وعن الإسلام، قاصدة تحقيق غاياتها من وراء ذلك الستار.

وهكذا دخل تحت اسم الشيعة جماعتان: **الشيعة المعتدلون**، وكانوا يختلفون عن بقية المسلمين بقولهم إن الإمامة بالنص لا بالاختيار، وإنها في آل علي[٦٦]، ثم **الغلاة** وهؤلاء جاؤوا بآراء غريبة عن الإسلام[٦٧].

والذي أراه أن حركة الغلو كانت استمراراً لحركات دينية ظهرت في إيران وانتشرت في العراق قبل الإسلام، كما كانت استمراراً للآراء الدينية القديمة من

---

(٦٣) أحمد بن حمد بن الفقيه الهمذاني، **مختصر كتاب البلدان**، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٥ (ليدن: مطبعة بريل، ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م)، ص ٣١٥.

(٦٤) انظر: محمد حسين الزين، **الشيعة في التاريخ** (صيدا: مطبعة العرفان، ١٩٣٨)، ص ١٦.

(٦٥) أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، تصحيح هـ. ريتر، ٢ ج (استانبول: [د. ن.]، ١٩٣٠)، ج ١، ص ٥.

(٦٦) أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، **أصول الكافي: وبهامشه شرح الملا محمد صالح المازندراني** (طبع حجر)، ص ١٠١، وأبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **نهاية الإقدام في علم الكلام**، حرره ألفرد جيوم (لندن: اوكسفورد يونيفرستي برس، [١٩٣١])، ص ٤٨٤ ـ ٤٨٧.

(٦٧) انظر: الأشعري، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥، والزين، **الشيعة في التاريخ**، ص ١٦٧ وما بعدها.

مجوسية وبوذية وبابلية عند أناس أسلموا لأغراض خاصة، فكسوا آراءهم الحقيقية بثوب إسلامي[٦٨]. وهي تمثل سخط الطبقات المثقلة اجتماعياً ومالياً من جهة، ورد فعل الديانات التي غمرها الإسلام من جهة أخرى[٦٩].

ويتفق الغلاة جميعاً في الحلول والتناسخ[٧٠]، وأولهم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ[٧١]، وهم في رأي سيف بن عمر أصل البلاء في الإسلام[٧٢]، ومنهم تشعبت أصناف الغلاة[٧٣].

وقد بنى السبئية آراءهم على فكرة تجسد الألوهية، **فزعموا** أن جزءاً إلهياً حلّ في علي، وقالوا «بتناسخ الجزء الإلهي في الأئمة بعد علي»[٧٤]. وقد لا يظهر ذلك الجزء الإلهي دائماً في العالم، بل يجوز أن يعود إلى مقره السماوي حتى يتجسد في شخص آخر[٧٥]. يتضح هنا أثر الاعتقادات القديمة، ويرى الشهرستاني أن هذه الآراء مأخوذة من المزدكية والهند (البرهمية) والفلاسفة والصابئة[٧٦].

وقد كان موطن السبئية الكوفة وحواليها، وأكثرهم من الموالي، ولكن بينهم قليلاً من العرب[٧٧]. وبانت أهميتهم التاريخية لأول مرة في حركة المختار (٦٤هـ ـ ٦٧هـ) (وإن كانوا موجودين قبل ذلك). فالمختار استمال الموالي وتقرّب منهم، ومن بينهم السبئية، والظاهر أنه اطلع على بعض مبادئهم[٧٨]. ولم تمت السبئية في الكوفة مع المختار، بل عاشت في الطبقات الواطئة، وكان بين أتباعها من له معرفة جيدة بأساليب الدعاية السرية[٧٩].

---

(٦٨) انظر: فلوتن، **السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية**، ص ٨٤ ـ ٨٥، و Edward Granville Browne, *Literary History of Persia*, 4 vols. (Cambridge [Eng.]: University Press, 1928-1929), vol. 1: *From the Earliest Times until Firdawsi*, pp. 311-313.

(٦٩) انظر: فلوتن، المصدر نفسه، ص ٨٣ ـ ٨٤، و Wellhausen, *The Arab Kingdom and its Fall*, p. 504.

(٧٠) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل** (طبع حجر)، ص ١٠١.

(٧١) فخر الدين محمد بن عمر الرازي، **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: ومعه بحث في الصوفية والفرق الإسلامية**، [ضبط] مصطفى عبد الرازق؛ بمراجعة وتحرير علي سامي النشار (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٨)، ص ٥٧.

(٧٢) Wellhausen, *The Arab Kingdom and its Fall*, p. 502.

(٧٣) الشهرستاني، **الملل والنحل**، ص ١٠٠.

(٧٤) المصدر نفسه، ص ١٠٠ ـ ١٠١.

(٧٥) انظر: فلوتن، **السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية**، ص ٧٩.

(٧٦) الشهرستاني، المصدر نفسه، ص ١٠١.

(٧٧) انظر: Wellhausen, *The Arab Kingdom and its Fall*, pp. 501-503.

(٧٨) انظر: الشهرستاني، المصدر نفسه، ص ٨٣.

(٧٩) انظر: الزين، **الشيعة في التاريخ**، ص ١٦٧ ـ ١٦٩، و Wellhausen, Ibid., p. 504.

وكنتيجة لحركة المختار ظهرت الكيسانية، وهي في مبادئها الأساسية متصلة بالسبئية. وتغلو الكيسانية في اعتقادها بإحاطة الأئمة بالعلوم الإلهية، فتذهب إلى أن محمد بن الحنفية قد أحاط بالعلوم كلها[(٨٠)]، «ويجمعهم القول بأن الدين طاعة رجل»، حتى قال بعضهم إن طاعة ذلك الرجل تبطل ضرورة التمسك بقواعد الإسلام[(٨١)]، ويقول الأشعري: «وأبطلوا جميعاً الاجتهاد في الأحكام»[(٨٢)].

ومن الكيسانية تفرعت الهاشمية القائلون بانتقال الإمامة من محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم (عبد الله)[(٨٣)]، إذ إن محمداً أطلع ابنه على أسرار العلوم والحكم، وعلمه التأويل وعلم الباطن. ويذكر الشهرستاني أن الهاشمية قالوا: «إن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً. والمنتشر في الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع في الشخص الإنساني»، وهو العلم الذي استأثر علي (رضي الله عنه) به ابنه محمد بن الحنفية، وهو أفضى ذلك السر إلى ابنه أبي هاشم، وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام حقاً[(٨٤)]. وقد ساعد تطرف الهاشمية في التأويل على تسرب كثير من الآراء غير الإسلامية إليهم، وعلى دخول كل من أسلم لطمع أو لخوف من دون فهم الدين الإسلامي في صفوفهم[(٨٥)].

وقد تورع الأئمة من ادعاءات المغالين وتبرأوا منهم، كما فعل علي (رضي الله عنه) ومحمد بن الحنفية[(٨٦)]. ولكن أبا هاشم كان طموحاً، فحاول الاستفادة من هذه الآراء. ويعتقد فان فلوتن أنه أول من نظم الدعوة وشجع شعور التقديس للإمام والآراء المتعلقة بالتأويل[(٨٧)]. ويذكر ابن عبد ربه أنه قام بـ «أمر الشيعة»، وأنهم كانوا يأتونه و«يقوم بأمرهم ويؤدون إليه الخراج»[(٨٨)].

ويجمع عدد من المصادر على أن أبا هاشم وفد إلى سليمان بن عبد الملك، وأن الخليفة خاف من طموحه، فأقعد له في طريق رجوعه من سمّه، فلما شعر بدنو أجله عرج على الحميمة مقر محمد بن علي فأوصى له، و«دفع إليه كتبه وصرف الشيعة

---

(٨٠) انظر: فلوتن، **السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية**، ص ٨٠.

(٨١) الشهرستاني، **الملل والنحل**، ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٨٢) الأشعري، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، ج ١، ص ١٧.

(٨٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠، وأبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، **الفرق بين الفرق**، حقق أصوله، وفصله، وضبط مشكله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة: مكتبة المعارف، ١٩١٠)، ص ٢٨.

(٨٤) الشهرستاني، **الملل والنحل**، ص ٨٥.

(٨٥) انظر: فلوتن، **السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية**، ص ٨٢ ـ ٨٩.

(٨٦) المصدر نفسه، ص ٩٠ ـ ٩١، والزين، **الشيعة في التاريخ**، ص ١٦٨.

(٨٧) فلوتن، المصدر نفسه، ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٨٨) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج ٣، ص ١٩٤.

نحوه. . . وسلم إليه كتاب الدعاة»[٨٩]. وكانت وفاة أبي هاشم سنة ٩٨هـ.

ويظهر أن علي بن عبد الله بن العباس جاء إلى دمشق في خلافة عبد الملك ليسكن فيها، واشتهر بتقواه، ولكنه كان طموحاً يسعى لنيل الخلافة[٩٠]، فأساء الوليد معاملته، ولذلك انتقل سنة ٩٥ إلى الحميمة[٩١]، وتوفي سنة ١١٨هـ، ولكن محمد بن علي كان الشخصية القوية في بني العباس حتى في حياة والده. ويضيف فلهاوزن أن أبا هاشم انتقل إلى الحميمة، وهناك تحالف مع العباسيين، وعند وفاته أوصى لمحمد بن علي[٩٢]. ويؤكد فان فلوتن أهمية الوصية، ولكن فلهاوزن لا يقتنع بصحتها، ويعتقد أنها بحسب روايتها ضعيفة، ولا بد من أنها حصلت في وقت سابق لوجود شهود كثيرين عليها[٩٣]. وعلى كل، يمكننا أن نجزم بأن أبا هاشم توفي «ولا عقب له»[٩٤]، وبأن التفاهم بينه وبين محمد بن علي جعل الهاشمية ينضمون إلى محمد ويكوّنون نواة الدعوة العباسية[٩٥]. يقول الرازي: «وهم (أي الهاشمية) يقولون إنه مات وأوصى بالخلافة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس»[٩٦].

٢ ـ الدعوة العباسية

كان محمد بن علي المنظم الأول للدعوة العباسية. يقول الدينوري عنه: «وهو أول من قام بالأمر وبثّ دعاته في الآفاق»[٩٧]، وظل يسكن في الحميمة، ولكنه جعل الكوفة مركز دعوته.

---

(٨٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٥؛ شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ٢ ج (القاهرة: الحلبي، ١٣١٠هـ/[١٨٩٢م])، ج ١، ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥؛ اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٤٠، وعبد الرحمن سنبط الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك** (بيروت؛ القدس: مطبعة القديس جاورجيوس، ١٨٨٥)، ص ١١.

(٩٠) انظر: المطهر بن طاهر المقدسي، **البدء والتاريخ (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي** = *Le Livre de la creation et de l'histoire de Motahhar ben Tahir el-Maqdisi*، اعتنى بنشره وترجمته من العربية إلى الفرانسوية كلمان هوار، ٦ ج (باريس: ارنست لورو، ١٨٩٩)، ج ١، ص ٥٧.

(٩١) الطبري، **تاريخ الطبري**.

(٩٢) Wellhausen, *The Arab Kingdom and its Fall*, pp. 501-503.

(٩٣) المصدر نفسه، ص ٥٠٣.

(٩٤) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ١، ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥.

(٩٥) انظر: اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٤٠ ـ ٤١.

(٩٦) انظر: الرازي، **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: ومعه بحث في الصوفية والفرق الإسلامية**، ص ٦٣، والبغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٨.

(٩٧) أحمد بن داود أبو حنيفة الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، تصحيح فلاديمير جرجاس (ليدن: بريل، ١٨٨٨)، ص ٣٥٩.

ويظهر أن خلافة عمر بن عبد العزيز كانت فرصة لنشاط أعداء الأمويين ولبدء الدعوة. فابن عبد ربه واليعقوبي والطبري والدينوري وابن خلكان يجعلون سنة مئة هجرية السنة التي بدأ فيها محمد بن علي أعماله. وها نحن أولاء نحمل أخبار الدعوة كما وردت في الطبري، إذ جاء فيه:

في سنة ١٠٠هـ أرسل محمد بن علي ميسرة إلى الكوفة، فأوفد ميسرة ثلاثة من الكوفيين إلى خراسان لبث الدعوة. وهناك انتخب أحد الدعاة اثني عشر نقيباً وسبعين تابعاً، فأرسل إليهم محمد بن علي إرشادات مكتوبة. [لكن تتمة المئة سنة، وذكر اثني عشر نقيباً وسبعين تابعاً تثير الشك(٩٨). كما إن الروايات المتأخرة في الطبري تبيّن أن الأمر لم ينظم بهذا الشكل. ثم إن عدم اتساق الروايات تقوي الشكوك، فيذكر الطبري أن محمد بن علي أرسل رسولاً واحداً إلى خراسان سنة ١٠٢ أو سنة ١٠٣هـ، وبعد أن تبعه سبعون انتخب اثني عشر نقيباً من بينهم. وهناك اختلاف في أسماء النقباء على روايات متعددة في الطبري. ثم إن نجاح الدعوة المحدود يشكك في ضرورة تنظيم مثل هذا](٩٩).

وفي سنة ١٠٢هـ أرسل ميسرة دعاته إلى خراسان من العراق، فوشى بهم إلى أمير خراسان (سعيد خذينة) لأعمالهم المريبة فادعوا أنهم تجار. وشفع لهم بعض الخراسانيين وأغلبهم من ربيعة واليمن، فأطلق سراحهم(١٠٠).

وفي سنة ١٠٥هـ انضم بكير بن ماهان إلى الدعوة. وقد رجع في تلك السنة من السند (حيث كان كاتباً لأميرها)، ومعه أربعة قضبان فضة، وقضيب من ذهب، فأقنعه الدعاة بالانضمام إليهم، فأعطى ماله لمحمد بن علي، وأصبحت له معه صلة شخصية، وصادف أن توفي ميسرة فعيّن بكيراً محله(١٠١).

وفي سنة ١٠٧هـ أو سنة ١٠٨هـ أرسل بكير بن ماهان دعاة إلى خراسان، فأخبر عنهم الوالي أسد بن عبد الله فنكل بهم(١٠٢).

---

(٩٨) انظر: Wellhausen, *The Arab Kingdom and its Fall*, p. 506.
ويذكر المقدسي أن أول من استجاب الدعوة أربعة نفر من الكوفة، فأمرهم ببث الدعوة فيها، فلما كثر أتباعه أمر ببث الدعوة في خراسان. ثم يذكر أن دعاة بكير بن ماهان في خراسان اختاروا اثني عشر نقيباً فقط، بينما يذكر اليعقوبي أن دعاة محمد بن علي (غرسوا غرساً) في خراسان، ولا يشير إلى أية تنظيمات. انظر: المقدسي، **البدء والتاريخ (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي** = *Le Livre de la creation et de l'histoire de Motahhar ben Tahir el-Maqdisi*، ج ١، ص ٥٩، واليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٥٠.

(٩٩) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٨، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ و١٦٧، وج ٩، ص ٩٨.

(١٠٠) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٦٧.

(١٠١) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٨٠.

(١٠٢) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٨٨ و١٩٠.

وفي سنة ١١٣هـ ظهر عدة دعاة عباسيين في ولاية جنيد، فقتل الوالي واحداً منهم وأمر بتتبع الباقين(١٠٣).

وفي سنة ١١٨هـ أرسل ابن ماهان عمار بن يزيد إلى خراسان ليرأس الدعوة فيها، فبدل اسمه إلى «خداش» وسكن «مرو»، فنجح نجاحاً طيباً، ولكنه زاغ وبشر بدين الخرمية وسمح باشتراكية النساء. فقبض عليه الوالي ومثّل به وقتله(١٠٤).

وتبرأ محمد بن علي من خداش بعد مقتله، وأظهر غضبه على شيعته لأنهم اتبعوا تعاليم خداش ضد مبادئه، وبعد مراسلات رضي عنهم. وترأس الدعوة بعد خداش سليمان بن كثير الخزاعي(١٠٥).

ثم توفي محمد بن علي في ١ ذي القعدة ١٢٥هـ وعمره ثلاث وستون سنة، وأوصى لابنه إبراهيم. وفي سنة ١٢٦هـ أرسل إبراهيم الإمام بكير بن ماهان إلى خراسان، فجمع الأتباع في مرو وأخبرهم بوصية محمد وأعطاهم رسالة إبراهيم، فاعترفوا به ودفعوا له ما جمعوه من الأموال للإمام(١٠٦).

وفي سنة ١٢٧هـ عيّن إبراهيم الإمام عند وفاة بكير بن ماهان، وتبعاً لوصيته، أبا سلمة حفص بن سليمان الخلال لرئاسة الدعوة. فذهب أبو سلمة إلى خراسان «فصدقوه وقبلوا أمره ودفعوا إليه ما اجتمع قبلهم من نفقات الشيعة وخمس أموالهم»(١٠٧).

إنّ العودة إلى مصادر الدعوة العباسية (بما فيها «أخبار الدولة العباسية») تشير إلى أنها بدأت حوالى ٩٨هـ انطلاقاً من الحميمة مقر الإمام، وأنّ الكوفة كانت مركز رئيس الدعوة، وأنّ الدعوة كانت بين الموالي في الكوفة ابتداءً، وأنها لم تتقدّم كثيراً فيها خلال عامين. ولذا تقرّر الاتجاه بالدعوة إلى خراسان حوالى ١٠٠هـ.

وأُرسل الدعاة إلى خراسان ابتداءً من الكوفة. وتوسعت الدعوة في العقد الأول للقرن الثاني للهجرة، فوشي ببعض الدعاة إلى الولاة ونَكّل بهم، وبخاصة في ولاية أسد بن عبد الله القسري الأولى (١٠٥ ـ ١٠٩هـ).

ولعل سهولة كشف الغرباء أدت إلى تعيين الدعاة في خراسان من أهلها،

---

(١٠٣) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.
(١٠٤) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢٢٩.
(١٠٥) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢٤٩.
(١٠٦) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٤٣.
(١٠٧) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٦٦.

وجلهم عرب، وتوسع انتشار الدعوة.

وأُرسل خداش من الكوفة، وكان من الغلاة، واتصل بالخرمية وكثر أتباعه، وكُشِف أمره في ولاية أسد القسري الثانية سنة ١١٨هـ ونكل به.

وسارع محمد بن علي (الإمام) لتدارك الوضع، فأرسل بكير بن ماهان، رئيس الدعوة، إلى خراسان لدراسة الوضع، وليؤكد السريّة والاتجاه الإسلامي للدعوة، وليحكم تنظيمها، فكوّن مجلس النقباء من أهل خراسان، وجعل رئاسته إلى سليمان بن كثير الخزاعي.

ونشط المجلس في الدعوة حتى اشتدت العصبية القبلية في خراسان، وزاد التمزق في الدولة الأموية بعد مقتل الوليد بن يزيد (١٢٦هـ).

وآن أوان التحرك، فطلب مجلس النقباء من إبراهيم إرسال ممثل له يتولى الأمر، فأرسل أبا مسلم الخراساني سنة ١٢٨هـ. وكانت بيعة أبي مسلم، بحسب وصية الإمام، على كتاب الله وسنّة نبيه والعمل بالعدل ورفع الظلم[١٠٨].

٣ ـ أساليب الدعاة

قال محمد بن علي لدعاته: «انطلقوا أيها النفر فادعوا الناس في رفق وستر»[١٠٩]، فكان الدعاة يجوبون خراسان ظاهر أمرهم للتجارة ويراسلون الإمام في الحميمة بوساطة الكوفة أو يجتمعون به وقت الحج. وحاولوا ستر حقيقتهم بكل وسيلة، فلما قبض أسد بن عبد الله في ولايته الثانية (سنة ١١٧هـ) على جماعة منهم، ومن بينهم سليمان بن كثير الخزاعي، قال سليمان: «أيها الأمير إنا أناس من قومك اليمانية، وإن هؤلاء المضرية تعصبوا علينا فرقوا إليك فينا الزور والبهتان»، فخلى سبيلهم[١١٠]. فلما سمع الإمام بهذا، أوصاهم مرة أخرى: «فاكتموا أمركم وترفقوا في دعوتكم»[١١١].

وعني الدعاة بالتبشير في المناطق التي كان العداء فيها للأمويين بالغاً منتهاه، ففي ما وراء النهر كانت الثورة مشتعلة في ذلك الحين. وفي خراسان كان التذمر المالي

(١٠٨) انظر: عبد العزيز الدوري، «الدعوة العباسية،» في: أحمد محمود بدر [وآخرون]، **بحوث ودراسات في تاريخ العرب**، ٢ ج (دمشق: دار طلاس، ٢٠٠٢)، ج ١: **مهداة إلى نبيه عاقل**، و Wellhausen, *The Arab Kingdom and its Fall,* pp. 513-514.

(١٠٩) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٣٥.

(١١٠) المصدر نفسه، ص ٣٣٧، الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٨، ص ٢٢٨.

(١١١) الدينوري، المصدر نفسه، ص ٣٣٨.

والاجتماعي شديداً، فنشروا دعوتهم في هاتين المنطقتين بخاصة. يقول الدينوري: «فساروا (أي الدعاة) من مدينة مرو إلى بخارى، ومن بخارى إلى سمرقند، ومن سمرقند إلى كش ونسف، ثم عطفوا على الصغانيان، وجازوا منها إلى ختلان، وانصرفوا إلى مرورود والطالقان، وعطفوا إلى وهراة وبوشنج، وجازوا إلى سجستان، فغرسوا في هذه البلدان غرساً كثيراً، وفشا أمرهم في جميع أقطار خراسان»(١١٢).

كما إن خداشاً أغرى الأهالي بتساهله في بعض العقائد غير الإسلامية، وبخاصة اشتراكية مزدك، فانضم إليه عدد كبير منهم.

ثم حاول الدعاة العباسيون جلب كل المقاومة الشيعية (العلوية) إلى صفوفهم مهما كان نوعها. وأظهروا غايتهم الأولى وهي قلب الدولة الأموية، وأخفوا الثانية وهي سعيهم لأخذ الخلافة، ولم يظهروا للناس كمدعين للملك، بل كوسيلة للثورة التي يريدها الله. وبيّنوا أن قضيتهم هي قضية جهاد الحق ضد الباطل، فلم تكن البيعة تؤخذ باسم العباسيين، بل لشخص غير معين من آل البيت يتفق عليه في ما بعد (الرضى من آل محمد). وتجنبوا كل ما يبين أنهم قاموا لأخذ محل العلويين، بل إنهم أعلنوا في مناسبات عدة بأنهم جاؤوا لأخذ ثأر من استشهد منهم(١١٣).

كما أخفى الغلاة من الدعاة حقيقة عقائدهم عن المعتدلين. وقد ساعد إهمال الولاة على انتشار الدعوة العباسية، فإن أسد بن عبد الله كان الوالي الوحيد الذي تشدد مع الدعاة، فقتل بعضهم، ولم يخلفه أحد بشدته. والظاهر أن الأمويين لم يدركوا أهمية الدعوة، فعندما أخبر العامل «جنيد» الخليفة هشام عن الدعوة كتب إليه الخليفة «ألا يرغب في الدماء وأن يكف عمن كف عنه ويسكن الناس بجهده، وأن يطلب النفر الذين يدعون الناس حتى يجدهم وينفيهم»(١١٤). ولكن جنيداً لم يجدهم.

وكان لحسد الولاة بعض الأثر في توسيع الدعوة، فكان ابن هبيرة والي العراق يحجز كتب نصر بن سيار عن هشام «لئلا تقوم لنصر قائمة عند الخليفة»(١١٥).

كما إن نصر بن سيار شغل في ما وراء النهر عن معالجة المشاكل الداخلية(١١٦)، ثم إن العصبية القبلية أضعفت العرب لأنها مزقت قوتهم، فكانوا في خراسان على ثلاثة أحزاب. فأكثر «ربيعة» كانت مع شيبان بن سلمة الحروري الخارج على الدولة

---

(١١٢) المصدر نفسه، ص ٣٤٠.

(١١٣) انظر: Wellhausen, *The Arab Kingdom and its Fall*, pp. 517-518.

(١١٤) الدينوري، المصدر نفسه، ص ٣٣٨.

(١١٥) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج ٣، ص ١٩٦.

(١١٦) انظر: Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, pp. 192-193.

يطلب العمل بكتاب الله وسنّة نبيه، ثم «مضر» وزعيمها نصر الذي لم يستخدم في الأربع سنين الأولى من ولايته غير المضريين، ولما حاول بعدئذ تغيير سياسته لم يفلح، و«الأزد» اليمانية ورئيسها جديع بن شبيب الكرماني(١١٧).

وقد ملّ الناس حكم الأمويين المضطرب، حتى قال الشاعر يخاطبهم:

إن البرية قد ملت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا

واستغل الدعاة ذلك، فصوروا ظلم الأمويين بأقبح الصور(١١٨).

٤ ـ سير الدعوة

إن مشكلة خداش وتوسع وانتشار الدعوة، واضطراب أحوال خراسان، استوجبت اتصال الإمام بها مباشرة بواسطة أحد ثقاته، والسيطرة على الوضع، كما إنها حتمت وجود رجل قوي على رأس الدعوة. ولم يكن سليمان بن كثير بالرجل المناسب، إذ كان له نفوذ محلي في خراسان يعطيه شبه استقلال، هذا إلى أنه لم يظهر براعة خاصة، فأرسل الإمام أبا مسلم في سنة ١٢٨هـ ليكون ممثله في خراسان.

أما شخصية أبي مسلم، فيكتنفها الغموض، ونسبه مختلف فيه(١١٩)، فيذكر الفخري أنه «ولد بأصفهان ونشأ في الكوفة»(١٢٠). ويقول الدينوري إنه ولد «بماه البصرة مما يلي أصفهان»(١٢١). ويشير إليه الإمام «بالأصبهاني»(١٢٢)، بينما يعترف المسعودي باضطراب الروايات، ويقول: «كان من قرية من أعمال الكوفة وسوادها»(١٢٣)، ويبيّن الطبري أن اسم هذه القرية «خطرنية»(١٢٤).

---

(١١٧) انظر: أمين، **ضحى الإسلام**، ج ١، ص ٣.

(١١٨) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٣٧.

(١١٩) يقول الفخري لابن الطقطقى عن أبي مسلم: «أما نسبه ففيه اختلاف كثير لا فائدة لاستقصاء القول فيه». انظر: محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ/[١٨٩٩م]).

(١٢٠) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(١٢١) الدينوري، المصدر نفسه، ص ٣٣٩.

(١٢٢) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ١، ص ٢٨١.

(١٢٣) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، النص العربي مع الترجمة الفرنسية بقلم ك. باربيه دو مينار وبافيه دو كورتبي، ٩ ج (باريس: المطبعة العسكرية الامبراطورية، [١٨٦١ ـ ١٨٧٦])، ج ٤، ص ٥٩.

(١٢٤) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٨٦.

وقد كان إيرانياً، مولى أو عبداً[١٢٥]، واسترعى انتباه رجال الحزب العباسي على الرغم من كونه شاباً بما رأوا فيه «من ذكاء عقله وفهمه وحسن بصره وجودة ذهنه وحسن منطقه» فأخذوه وقدموه إلى إبراهيم الإمام، ففقهه في مبادئ الدعوة وأصولها واختصه وجعله رسولاً بينه وبين أتباعه في خراسان، ثم عيّنه ممثله هناك[١٢٦].

وكان يكتب اسمه على نقوده «عبد الرحمن بن مسلم»، ولم يكن هذا اسمه حقيقة[١٢٧]. ويقول صدّيقي أن اسمه الحقيقي بهزادان. ويصفه ابن خلكان نقلاً عن المدائني بأنه كان «قصيراً أسمر جميلاً حلواً نقي البشرة أحور العين عريض الجبهة، حسن اللحية وافرها، طويل الشعر، طويل الظهر، قصير الساق والفخذ، خافض الصوت، فصيحاً بالعربية والفارسية، حلو المنطق، راوية للشعر، عالماً بالأمور. ولم يُر ضاحكاً ولا مازحاً في وقته، ولا يكاد يقطب في شيء من أحواله. تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور، وتنزل به الحوادث الفادحة فلا يرى مكتئباً»[١٢٨].

وأوصى إبراهيم الإمام شيوخ الدعوة في خراسان بإطاعة أبي مسلم[١٢٩]، كما أمره بألا يخالف الشيخ سليمان بن كثير[١٣٠]. وينسب الطبري وابن قتيبة إلى إبراهيم الإمام وصية أوصى بها أبا مسلم حين أرسله، جاء فيها: «يا عبد الرحمن إنك رجل من أهل البيت، فاحتفظ بوصيتي، وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وحل بين

(١٢٥) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ١، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١، واليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٦٧. وادعى أبو مسلم في أول أيامه أن أمة لوالده عمير بن بطين العجلي، باعها وهي حامل بأبي مسلم. وادعى بعد نجاحه أنه من نسل سليط بن عبد الله بن العباس. انظر: الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٣٩.

(١٢٦) الطبري، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ و٢٩٩؛ الدينوري، المصدر نفسه، ص ٣٣٩ ـ ٣٤٧؛ ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٠٠، واليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٦٧.

(١٢٧) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ١، ص ٢٨٠؛ ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ١٠٠، واليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٦٧.

(١٢٨) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨١.

(١٢٩) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٤٣، وأبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، راجع أصوله، ورقمه، وضبط مبهمه، وعلق عليه محمد محي الدين عبد الحميد، ٤ ج (القاهرة: دار الرجاء، ١٩٣٨)، ج ٣، ص ١٦٩.

(١٣٠) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨١؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٧٦، وأبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ٢ ج في ١ (القاهرة: مطبعة النيل، [١٣٣١هـ/ ١٩١٢م])، ج ٢، ص ٢١٨.

أظهرهم، فإن الله لا يتم أمره إلا بهم، وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في أمرهم، وانظر هذا الحي من مضر فإنهم العدو القريب الدار، فاقتل من شككت في أمره، ومن كان في أمره شبهة، ومن وقع في نفسك منه شيء. وإن استطعت أن لا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل. فأي غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله»(١٣١). ولعل هذه الوصية تلخص سياسة أبي مسلم في خراسان، ولكني أعتقد أنها موضوعة وخاصة وتوجد فيها عبارة «وإن استطعت أن لا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل»، وكيف يوصيه بذلك والعرب على تنازعهم قوة عسكرية يخشى بأسها، والدعوة العباسية لا تزال ضعيفة، وكيف يوصيه بمحو العرب من خراسان، ويطلب منه في الوقت عينه أن يخطب ودّ اليمن لأن نجاح القضية العباسية يتوقف عليهم وهم عرب؟ وكيف يوصيه بسحق العرب، وأهم شيوخ الدعوة كسليمان بن كثير الخزاعي وقحطبة بن شبيب الطائي وأبي داوود الشيباني عرب؟ ويجب أن نتذكر أن الدعوة في خراسان كانت ضد الأمويين وليست ضد العرب(١٣٢). ومما يؤيد رأيي أنها ترد في الطبري من دون إسناد، وترد في ابن قتيبة وهو مرتبك في بعض رواياته على العباسيين، ولا ذكر لها في اليعقوبي أو ابن خلكان أو المسعودي أو الدينوري(١٣٣).

وذهب أبو مسلم إلى خراسان، فأظهر من ثبات الرأي وحسن التنظيم والمقدرة على انتهاز الفرص والمرونة السياسية والشدة ما أدى إلى نجاح الحركة العباسية. واهتم أولاً بتنظيم الدعوة، فوجّه إلى كل ناحية من خراسان أحد دعاته. وكان الدعاة «يدورون خراسان كورة كورة في زي التجار»، ثم «ولى على كل من بايعه في كل كورة رجلاً من أهلها»(١٣٤). وانتفع من تجربة خداش، فحاول التوفيق بين الإسلام وبين العقائد المحلية، وبخاصة عقيدة تناسخ الأرواح، وجلب بذلك عدداً كبيراً من الدهاقنة والفلاحين إلى جانبه(١٣٥). وقام بجولة في غرب إيران (جمادى الثانية في سنة ١٢٩هـ) ليتصل بالشيعة المبعثرة هناك، وليستميل رؤساءهم كمقدمة للاستعداد للثورة، وكان ظاهر عزمه الذهاب إلى الحج، ولكنه أرسل قحطبة لمقابلة الإمام ورجع هو(١٣٦).

---

(١٣١) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٧٦، وابن قتيبة، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١٨.

(١٣٢) انظر: الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٣٧.

(١٣٣) يقول الدينوري إن أبا العباس أوصى أبا مسلم «ألا يدع بخراسان عربياً لا يدخل في أمره إلا ضرب عنقه»، وهذه الرواية أقرب إلى الفهم. وترد إشارات إلى الوصية المزعومة في مصادر متأخرة، ولكنها لا تهمنا لأنها منقولة من المصادر التي ذكرناها. انظر: المصدر نفسه، ص ٣٥٨.

(١٣٤) المصدر نفسه، ص ٣٤٤.

(١٣٥) Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, p. 194.

(١٣٦) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٨٢ ـ ٨٣، وفلهاوزن، **الدولة العربية وسقوطها**، ص ٥٢١.

وهكذا نجح أبو مسلم في دعوته، فقد «وافاه في يوم واحد أهل ستين قرية»[١٣٧]. ويدّعي الدينوري أنه أجاب دعوته «جميع أرض خراسان»[١٣٨]. ويقول بارتولد إن معظم الدهاقنة دخلوا في الإسلام لأول مرة بتأثيره[١٣٩]. وقد وقفت في طريقه بعض الصعوبات، مثل صعوبة المواصلات بين جهات خراسان، ما يعرقل جمع الأتباع، فحاول التغلب على هذه الصعوبة بتعيين موعد للاجتماع. ثم إن العرب، حتى الخارجين منهم على الحكومة، أبوا في أول الأمر أن يشتركوا مع الموالي. ولكن أبا مسلم استفاد من حماس المسوّدة وإخلاصهم للدعوة، واستغل انشغال الأمويين في الشام عن نجدة نصر.

ولا شك في أن الخصومة بين نصر بن سيار وربيعة والأزد أشغلت الوالي عن أبي مسلم، وقد حاول نصر تسوية الخلاف مع الكرماني، فلم يفلح[١٤٠]، فكتب إلى الخليفة يبيّن توسع حركة أبي مسلم وخطرها على الأمويين، ويستنجد به، فلم يستطع مروان نجدته[١٤١]. ثم استنجد به ثانية بعد أن استفحل أمر أبي مسلم، فأمر مروان واليه على العراق يزيد بن هبيرة أن يسرع لنجدة نصر، ولكن إبن هبيرة لم يفعل «وتشاغل بدفع فتنة العراق»[١٤٢]، كما يقول المسعودي، بينما يذكر الدينوري أن إبن هبيرة احتج بقلة ولاء العراقيين[١٤٣]، وهكذا ترك نصر وحيداً في المعمعة.

ومضى أبو مسلم بنشاط وحكمة في حركته فجعل «سفيذنج» قرية سليمان بن كثير الخزاعي مركزه الأول للثورة. وهناك توافد عليه الأتباع من مختلف أنحاء خراسان ومن ما وراء النهر، فيروي الدينوري «وانجفل الناس على أبي مسلم من هراة وبوشنج ومرو الرّوذ والطالقان ومرو ونسا وأبيورد وطوس ونيسابور وسرخس وبلخ والصغانيان والطخارستان وختّلان وكش ونسف فتوافوا جميعاً مسودي الثياب»[١٤٤]. وفي اليوم المعين ٢٥ رمضان سنة ١٢٩هـ رفع اللواء (الظل) والراية

---

(١٣٧) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٨٣.

(١٣٨) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٤٤.

(١٣٩) بارتولد، **تاريخ الحضارة الإسلامية**، ص ٦٥.

(١٤٠) انظر: الدينوري، المصدر نفسه، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(١٤١) انظر: ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج ٣، ص ١٩٦، والمسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** (١٩٣٨)، ج ٣، ص ١٧٠ ـ ١٧١.

(١٤٢) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٧١ ـ ١٧٢، يروي أن نصراً بن سيار كتب إلى ابن هبيرة رأساً.

(١٤٣) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

(١٤٤) المصدر نفسه، ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

(السحاب) اللذين أرسلهما الإمام وهو يتلو: ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير**﴾(١٤٥)، ثم لاحظ أن سليمان بن كثير كان حجر عثرة في طريقه، فانتقل في أواخر سنة ١٢٩هـ إلى قرية «ماخوان»، حيث أصبح حاكماً حقيقياً وزاد أتباعه وتقوّى جيشه(١٤٦).

ثم أثارت قوة أبي مسلم شكوك القبائل العربية التي كانت تتطاحن في مرو، وانتبهوا للخطر المشترك، فحاولوا التفاهم ضده. وحاول نصر مصالحة اليمانية، وتحذير القبائل من الخطر الجديد قائلاً:

أبلغ ربيعة في مرو وأخوتها ... أن يغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب
ما بالكم تلفحون الحرب بينكم ... كأن أهل الحجا عن فعلكم غيب
وتتركون عدواً قد أظلكم ... ممن تأشب لا دين ولا حسب
ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم ... ولا صميم الموالي إن هم نسبوا
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به ... عن الرسول ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلاً عن أصل دينهم ... فإن دينهم أن تقتل العرب(١٤٧)

وبتأثير البكريين تصالح شيبان الحروري أولاً مع نصر، ثم اقتدى به علي بن جديع الكرماني. ويقول ابن خلدون: «توادعت قبائل العرب من ربيعة ومضر واليمن على وضع الحرب والاجتماع على قتال أبي مسلم الخراساني»(١٤٨). وتراءى اتفاق العرب لضرب العدو المشترك ولكن الحزازات منعتهم، فاكتفوا بحملة صغيرة ضده، فلم يجد صعوبة في صدها. واستطاع أن يفرّق بينهم بدهائه، فمن أساليبه في ذلك ما أورده ابن خلدون حين قال: «فجعل أبو مسلم يكتب إلى شيبان الخارجي يذم اليمانية تارة، ومضر أخرى، ويوصي الرسول بكتاب مضر أن يتعرض لليمانية ليقرأوا ذم مضر، وللرسول بكتاب اليمانية أن يتعرض لمضر ليقرأوا ذم اليمانية»(١٤٩). ويروي الطبري أنه أرسل لعلي الكرماني من يقول له: «أما تأنف من مصالحة نصر وقد قتل

---

(١٤٥) **القرآن الكريم**، «سورة الحج،» الآية ٣٩، والطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٨٣ - ٨٤.

(١٤٦) انظر: Wellhausen, *The Arab Kingdom and its Fall*, pp. 529-530.

(١٤٧) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٦٠.

(١٤٨) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر**، ٧ ج (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٨٤هـ/[١٨٦٧م])، ج ٢، ص ١٢١.

(١٤٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١١٩.

بالأمس أباك وصلبه؟! ما كنت أحسبك تجامع نصر بن سيار في مسجد تصليان فيه»[١٥٠]. وأخيراً ذهب أبو مسلم إلى مرو واستطاع أن يقنع الكرماني بقطع علاقاته مع نصر وباستئناف القتال.

ثم رجع في أوائل سنة ١٣٠هـ إلى «ماخوان»، وترك المتقاتلين وحدهم لينتظر الفرصة المناسبة.

لم يكن موقف أبي مسلم قوياً منذ بدء دعوته كما تصوره بعض المصادر كالدينوري وابن قتيبة والطبري، بل كان هو طالب الود، ولم يستطع مقاومة القبائل العربية علناً بل ذر الرماد في أعينهم لئلا يدركوا غايته، وبذل جهده في استمالة الأزد لأنهم ساخطون على بني أمية، فنجح بذلك في أواخر سنة ١٢٩هـ أو أوائل سنة ١٣٠هـ وتحالف معهم «لأن السلطان في مضر وهم عمال مروان وقتلة يحيى بن زيد»[١٥١]، ولكنه تجنب التصادم مع نصر[١٥٢]. وبقي أبو مسلم يغالط الطرفين حتى حاصر الكرماني مدينة «مرو» سنة ١٣٠هـ وهجم على جيش نصر في داخلها، وحينئذ دخلها أبو مسلم وأوقف القتال.

ولعل موقف أبي مسلم حتى سقوط مرو بيده يتضح من ذكر روايتين في الطبري تبينان كيفية دخوله تلك المدينة: فـ **الأولى** تذكر أنه جاء إلى مرو والكرماني محاصراً لها، فعرض عليه أن يدخلا سوية فرفض قائلاً: «لست آمن أن تجتمع يدك ويد نصر على حربي ولكن أدخل أنت فانشب الحرب». ففعل الكرماني ذلك، ثم دخل أبو مسلم المدينة وأمر الطرفين بالكف عن القتال[١٥٣]. والرواية **الثانية** تقول إن أبا مسلم أتى مرو في أثناء النزاع، فعرض عليه نصر «أن يدخل مدينة مرو ويوادعه»، فأجابه، لأن نصراً خاف اجتماع الكرماني مع أبي مسلم عليه[١٥٤]. ومهما كان الأمر، فالظاهر أن أبا مسلم لم يصرح علناً لطرف معين، وأنه كان يسيء الظن في القبائل بعامة وإنما حاول استخدام اليمانية على حذر منهم.

وبعد دخول مرو، أخذ أبو مسلم البيعة على الجند من الهاشمية بخاصة، ونصها: «أبايعكم على كتاب الله عز وجل وسنّة نبيه (ﷺ) والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله (ﷺ) وعلى أن لا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأكم به ولاتكم،

---

(١٥٠) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٩٧.
(١٥١) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٩٧.
(١٥٢) انظر: Wellhausen, *The Arab Kingdom and its Fall*, pp. 530-531.
(١٥٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٩٨.
(١٥٤) انظر: المصدر نفسه، ج ٩، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

وإن كان عدو أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم»[١٥٥]، فنرى في البيعة وعداً بالسير على الكتاب والسنّة، كما نرى فيها التكتم وعدم ذكر الإمام، وذلك لاستغلال الفرق التي تميل إلى العلويين، وخشية أن يقتل الأمويون الإمام إن عرفوا اسمه. أما باقي نص البيعة، فهو تأكيد الطاعة والنظام في الجيش.

وبعد فتح مرو بدأ النضال المسلح بين أبي مسلم وأعدائه، وأعطيت قيادة الجيوش العباسية إلى قحطبة بن شبيب بحسب أوامر الإمام. وبدأ أبو مسلم بشيبان الخارجي الذي هرب إلى سرخس بعد سقوط مرو، فطلب منه البيعة للإمام، ولما أبى هاجمه وتغلب عليه وقتله، فهربت بقية جيشه، وأكثرهم من بكر، والتحقت بنصر في نيسابور. وأرسل نصر بن سيار ابنه ضد الجيش العباسي، فهزم وقتل قرب طوس، فهرب نصر من نيسابور في آخر شوال سنة ١٣٠هـ[١٥٦]، فسار إليها أبو مسلم وجعلها مركزه.

وحاول أبو مسلم التخلص من رؤساء اليمانية، فتخلص من علي بن جديع الكرماني في طريقه إلى نيسابور، وفي الوقت نفسه قتل واليه أبو داوود عثمان بن جديع الكرماني في طخارستان. وهكذا تخلص أبو مسلم من منافسة زعماء اليمانية بعد أن أدى التحالف معهم غايتهم المطلوبة[١٥٧].

وذهب نصر إلى قومس على حدود جرجان، ومعه العرب من بكر وتميم الهاربين من خراسان. وكان والي العراق قد أرسل جيشاً بأمر مروان إلى جرجان بقيادة نباتة بن حنظلة الكلابي، ولكن نباتة لم يتعاون مع نصر، وجاء قحطبة بن شبيب فتغلب على نباتة وقتله في ذي الحجة سنة ١٣٠هـ. أما نصر فوقف قليلاً في وجه الحسن بن قحطبة، ثم هرب بعد مقتل نباتة إلى همدان، وأخيراً توفي شريداً في «ساوة» سنة ١٣١هـ.

وفي سنة ١٣١هـ، اجتمع قحطبة وابنه الحسن وسارا غرباً، فأخضعا الري وهمدان. ثم تقدم الحسن لمحاصرة الجيش الأموي في نهاوند. ولكن والي كرمان أرسل نجدة لإنقاذ نهاوند، فقابلها الحسن وهزمها، ثم تقدم على نهاوند وفتحها، وأصبح الطريق إلى العراق مفتوحاً أمام القوات العباسية، فأرسل قحطبة ابنه الحسن إلى العراق على مقدمته، ثم تبعه. وفي هذا الحين سار ابن هبيرة بجيش قوي لمقابلة

---

(١٥٥) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٩٩.

(١٥٦) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١١١، و Wellhausen, Ibid., p. 583.

(١٥٧) المصدران نفسهما، ج ٩، ص ١٠٣ ـ ١٠٤، وص ٥٣٩ على التوالي.

الجيوش العباسية وعسكر في جلولاء. ولكن قحطبة استطاع بمهارته أن يتجنب جيش إبن هبيرة بأن عبر الدجلة إلى الكوفة، فتبعه ابن هبيرة وعسكر عند «فرات بادقلي»، وأرسل فرقة إلى الكوفة، فعبر قحطبة الفرات، وسار على ضفته الغربية وعسكر مقابل جيش ابن هبيرة. وفي ليلة ٨ محرم ١٣٢هـ/ ٢٧ آب/ أغسطس ٧٤٩م عبر قحطبة النهر مع فرقة صغيرة وباغت جيش ابن هبيرة وانتصر عليه، فانسحب ابن هبيرة إلى واسط، ولكن قحطبة لاقى حتفه بطريقة مبهمة في الليل بعد أن قام بأعظم الخدمات العسكرية للعباسيين، فتسلم إبنه الحسن القيادة ودخل الكوفة حيث بويع لأبي العباس(١٥٨).

خامساً: المبادئ التي استفادت منها الدعوة

١ ـ استغلت الدعوة التشاؤم العام من الفوضى التي أنتجتها الحروب الأهلية بين الأمويين، وثورات الخوارج والعصبية القبلية. وتتمثل حالة الفوضى في قول العباس بن الوليد يخاطب الأمويين:

إني أعيذكم بالله من فتن ... مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قد ملّت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا(١٥٩)

وأضاع الناس أملهم في تحسن نظام الأمويين وأحسوا بأن في بقائه ضياع الإسلام(١٦٠). وانتشرت بينهم فكرة مجيء رجل ينقذ الناس من الشر، وقد اختمرت هذه الفكرة في ذلك الوقت بين بعض الشيعة وانتشرت بين بقية المسلمين أيضاً، فاستغلها الدعاة وصارت رمزاً للمنقذ من آل البيت «الذي سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»(١٦١).

٢ ـ واستغل الدعاة التنبؤ والتكهن اللذين انتقلا إلى المسلمين على أيدي القسيسين والرهبان واليهود(١٦٢)، ووضعوا النبوءات عن مجيء سلطان آل البيت منذ أول الدعوة. يروي الدينوري أن في سنة ١٠١هـ «توافدت الشيعة على الإمام محمد بن علي... وقالوا له أبسط يدك نبايعك على هذا السلطان، لعل الله يحيي بك العدل ويميت بك الجور، فإن هذا وقت ذاك وأوانه الذي وجدناه مأثوراً عن

(١٥٨) انظر: Wellhausen, Ibid., pp. 540 ff.
(١٥٩) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٨.
(١٦٠) فلوتن، **السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية**، ص ١٢٣.
(١٦١) المصدر نفسه، ص ١٢١ ـ ١٢٣.
(١٦٢) عن التنبؤ، انظر: المصدر نفسه، ص ١٠٧ ـ ١١٩.

علمائكم»[١٦٣]. وبشر العباسيون بالرجل ذي الأعلام السود الذي يخرج من المشرق ويزيل عرش بني أمية، فيذكر ابن عبد ربه أن أبا هاشم تنبأ لمحمد بن علي بما يلي: «والله ليتمنّ هذا الأمر حتى نخرج الرايات السود من قعر خراسان»[١٦٤]. وقد كان لهذه النبوءات أثر قوي، حتى إنها تغلغلت بين الأمويين أنفسهم، كما يفهم من قول اليعقوبي بأن مروان بن محمد قصد الزاب لمواجهة الجيوش العباسية «لأن بني أمية كانت تروي في ملاحمها أن المسوّدة لا يجوز سلطانهم الزاب»[١٦٥].

وكان لاختيار الراية السوداء علاقة بكتب الملاحم (أي النبوءات المنظومة شعراً)، إذ كان لواء الرسول في حروبه مع الكفار أسود، ولذا صارت الراية السوداء رمز الحق والعدل. ومن ثم صار من الضروري للإمام الذي يزول على يده سلطان بني أمية أن يتخذ الألوية السوداء شعاراً له[١٦٦].

٣ ـ ولم يتورع الدعاة من إدخال بعض الآراء غير الإسلامية كمبدأ تناسخ الأرواح ومبدأ الحلول في دعوتهم، وبهذا جذبوا قسماً كبيراً ممن لم يدخل الإسلام في قلوبهم وأكسبوا الأئمة حقاً مقدساً. ويتضح هذا لأول مرة في حركة خداش الذي أظهر قبولاً لبعض مبادئ الخرمية، واتخذ ذلك وسيلة لجذب هذه الطائفة. ويقول الطبري إن خداشاً «أظهر دين الخرمية ودعا إليه ورخص لبعضهم في نساء بعض»[١٦٧]. ويقول المقدسي عن خداش: «ثم لم يلبث أن غيّر ما دعاهم (أتباعه) إليه، ومثّل لهم الباطل في صورة الحق، فرخص لبعضهم في نساء بعض وهو أول من بدأ مذهب الباطنية»[١٦٨]. وتظهر شدة تمسك أتباع خداش به حين لم يصدقوا قول إبن هامان بأن الإمام تبرأ من تعاليمه[١٦٩].

ويرى فلهاوزن أن الخرمية لم تكن طائفة دينية (وإنما هي ميل للتمتع بملاذ الحياة)، وأن الهاشمية لضجرهم من تقييدات الإسلام مالوا إلى الوثنية الإيرانية[١٧٠]، وهو رأي خطأ، فقد أظهر صديقي أن الخرمية فرقة دينية ترجع

---

(١٦٣) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٣٤.

(١٦٤) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج ٣، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

(١٦٥) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٨٣.

(١٦٦) فلوتن، **السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية**، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(١٦٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٨، ص ٢٢٩.

(١٦٨) المقدسي، **البدء والتاريخ (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي** = *Le Livre de la creation et de l'histoire de Motahhar ben Tahir el-Maqdisi*، ج ٦، ص ٦٠ ـ ٦١.

(١٦٩) الطبري، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢٤٩.

(١٧٠) فلهاوزن، **الدولة العربية وسقوطها**، ص ٥١٦.

مبادئها إلى «مزدك» الإباحي، ثم حصل فيها تطور بمرور الزمن، وأنهم اتخذوا لأنفسهم لقب «خرّم دينان» أو أهل الدين الفرح، وأنهم باتصالهم بالإسلام كوّنوا لأنفسهم حلاً وسطاً بين دينهم المجوسي وبين الإسلام، ولكنهم بقوا يعتقدون بالنور والظلمة، ويقولون بالحلول وبتناسخ الأرواح وباشتراكية النساء برضاهن[١٧١]، فخداش إذاً شجع هذه الميول واستفاد منها.

وسار أبو مسلم على خطة خداش مع الخرمية، حتى إن طائفة منهم صارت تعتقد بإمامته وبأن فيه جزءاً إلهياً، ويقول الشهرستاني إن «الرزامية» قالوا عن أبي مسلم: «له حظ في الإمامة»، وادعوا حلول روح الآلهة فيه، وقالوا بتناسخ الأرواح[١٧٢].

ثم إن الراوندية، وهي شيعة بني العباس في خراسان، كانت تدين بالتناسخ والحلول[١٧٣]، فيذكر الطبري «أن رجلاً من الراوندية. . . زعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في علي بن أبي طالب، ثم في الأئمة في واحد بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد، وأنهم آلهة، فلم يزل ذلك فيهم إلى اليوم، فعبدوا أبا جعفر المنصور»[١٧٤].

ووضعوا الأحاديث عن الرسول بأنه بشّر بانتقال السلطان إلى العباسيين، فرووا عن الرسول أنه قال لعمه العباس: «إنها تكون في ولدك»، وأنه حين أتاه إبنه عبد الله أذن في أذنه وتفل في فيه، وقال: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل. ثم دفعه إلى أبيه، وقال: «خذ إليك أبا الأملاك»[١٧٥]. واستفادوا من آراء الفرس في شرعية الحكم في العائلة المالكة واحتجوا بالقرابة، فكتب أبو مسلم على نقوده التي ضربها في خراسان: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى**﴾[١٧٦].

٤ ـ وحاول بعض الدعاة استثارة عاطفة الفرس القومية، وبخاصة في خراسان ضد العرب بعامة، والأمويين بخاصة، فخطب قحطبة بن شبيب في الخراسانيين قائلاً: «يا أهل خراسان، هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين، وكانوا ينصرون على

---

(١٧١) Sadighi, *Les Mouvements religieux iraniens au II^ème et au III^ème siècle de l'hégire.*

(١٧٢) الشهرستاني، **الملل والنحل** (طبع حجر)، ص ٨٧.

(١٧٣) Sadighi, Ibid.

(١٧٤) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(١٧٥) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٠٣.

(١٧٦) **القرآن الكريم**، «سورة الشورى،» الآية ٢٣، و Henri Lavoix, *Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothéque nationale*, 3 vols. (Paris: Imprimerie nationale, 1887-1896), vol. 1: *Khalifes orientaux*, p. xlvii.

عدوهم لعدلهم وحسن سيرتهم حتى بدلوا وظلموا، فسخط الله عز وجل عليهم، فانتزع سلطانهم وسلط عليهم أذل أمة في الأرض كانت عندهم [يشير إلى العرب]، فغلبوا على بلادهم... واسترقوا أولادهم، فكانوا بذلك يحكمون بالعهد وينصرون المظلوم، ثم بدلوا وغيّروا وجاروا في الحكم، وأخافوا أهل البر والتقوى... فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم ليكونوا أشد عقوبة لأنكم طلبتموهم بالثأر»[١٧٧]. ويشير فلهاوزن إلى ذكر «نيوفان» فظائع الموالي مع العرب وانتقامهم منهم[١٧٨].

ولكن يجب ألا نبالغ في أثر الشعور القومي في الحركة العباسية، فأساسها إسلامي ولها دوافع اجتماعية واقتصادية، إضافة إلى الدوافع السياسية. فقد انتشرت الدعوة العباسية بخاصة في أول الأمر بين الخرمية، لكون هؤلاء العمود الفقري للحزب العباسي في خراسان، ولا شك في أن الخرمية كانوا أقلية دينية في خراسان، وكان أساس نشوئها (كما يبيّن كريستنسن (Christensen)) السخط على النظام الطبقي وعلى الأوضاع المالية في إيران في العصرين الساساني والإسلامي. ولعل نصر بن سيار، ذلك الخبير بأوضاع خراسان، قصد هذه الطائفة حين قال أتباع أبي مسلم:

ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم ولا صميم الموالي إن هم نسبوا

وانتشرت الدعوة بين الطبقات العامة في الأماكن التي كان الضغط المالي فيها بالغاً منتهاه، ومما سهل انضمام تلك الطبقات إلى العباسيين أن الدعاة أعطوا دعوتهم ثوباً يتناسب والآراء الدينية القديمة السائدة بين العامة.

والتف الدهاقنة حول أبي مسلم أملاً بالفوائد المادية والاجتماعية بعد أن جردتهم إصلاحات نصر بن سيار منها.

ثم إن الدعوة انتشرت في بقاع معينة من خراسان، واشترك فيها بعض العرب حتى كان بعض رؤسائها البارزين كقحطبة بن شبيب وأبي داوود وزياد بن صالح وسليمان بن كثير عرباً[١٧٩]. وهناك بعض الحوادث التي تبيّن اشتراك الإيرانيين مع القبائل العربية ضد الشيعة العباسية في خراسان[١٨٠].

ولكن الدعوة أثارت آمالاً في نفوس الإيرانيين بوعودها الكثيرة، فجعلتهم

---

(١٧٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٠٦.

(١٧٨) فلهاوزن، **الدولة العربية وسقوطها**، ص ٥٣٦.

(١٧٩) بارتولد، **تاريخ الحضارة الإسلامية**، ص ٦٥ ـ ٦٦.

(١٨٠) فلهاوزن، المصدر نفسه، ص ٥١٧.

يتطلعون إلى عيش أرفه وأيام أسعد من أيامهم في عهد بني أمية، وبذلك دفعت بوادر اليقظة الفارسية من حالة سلبية تتذمر من وضع سيىء إلى حالة إيجابية تتطلب العز والسيادة.

وعلينا ألا نتصور أن الدعوة انتهت بانتصار العباسيين، بل استمرت واستمر تأثيرها بصورة إيجابية حيث حاول العباسيون تثبيت سلطانهم باتباعهم أساليب الدعاية، كما ظهر أثرها بصورة سلبية في إيران في الثورات الدينية والاضطرابات طوال العصر العباسي، وذلك نتيجة خيبة الآمال التي أثارتها الدعوة العباسية في نفوس الفرس.

٥ ـ ويجب أن نلاحظ أن أبا مسلم جمع تحت رايته عناصر غير متجانسة، يجمعها العداء لبني أمية لأسباب متباينة، فكانت نواة الجيش العباسي من الهاشمية[(١٨١)]، وهم الأتباع المخلصون، وكان أكثر أتباع أبي مسلم فلاحين من جهات مرو مدفوعين بوضعهم السيئ[(١٨٢)]. واجتمع النبلاء حوله لفقدهم امتيازاتهم بعد تنظيمات نصر[(١٨٣)]. كما إن بعض أتباع العلويين ساهموا في التحرك لأنهم ظنوا أن الدعوة كانت لإرجاع حقوق آل علي المهضومة، واشترك بعض العرب في الحركة على أساس إحياء السنّة وإرجاع العدل. هذا إضافة إلى من اشتركوا بدوافع قومية، فكان من المحتم أن تؤكد هذه العناصر المتباينة ميولها الحقيقية بعد زوال الخطر المشترك كما سنرى[(١٨٤)].

---

(١٨١) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٩٨.

(١٨٢) فلهاوزن، المصدر نفسه، ص ٥٣٢.

(١٨٣) انظر: W. Barthold, *Mussulman culture*, translated from the Russian by Shahid Suhrawardy; with a foreword by Hassan Suhrawardy ([Calcutta]: University of Calcutta, 1934), p. 73.

(١٨٤) Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, pp. 194-195.

الفصل الثاني

معنـى الانتقـال مـن الأموييـن إلـى العباسييـن

سمى العباسيون حكومتهم «دولة»، فكانت في زعمهم فاتحة عصر جديد في الإسلام[1]. وقد تصحّ هذه التسمية، إلا أنها تحتاج إلى تحديد، فقد حلّ بنو العباس محل بني أمية في الحكم، ولكنهم ساروا في أثر الأمويين في كثير من أنظمتهم وتقاليدهم، ولم يخلقوا دولتهم خلقاً جديداً. ولكي نضع صورة حقيقية للوضع، علينا أن نأخذ أواخر دولة بني أمية وأوائل دولة بني العباس بنظر الاعتبار، لأنهما بمثابة حلقتي وصل لطالما أغفلهما الباحثون. وإلى القارئ في ما يلي مدى الشبه والاختلاف بين هذين الدورين.

١ ـ يقول الجاحظ: «دولة بني العباس أعجمية خراسانية، ودولة بني مروان أموية عربية»[2]. ويرى المسعودي أنه باستخدام العباسيين الموالي «سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها»[3]. ويقول بيكر: «إن انتصار العباسيين معناه انتصار الفرس على العرب»[4]. ويرى فلهاوزن (Wellhausen) أن حكم العرب انتهى بمجيء العباسيين، وأن «الفارسية انتصرت على العربية تحت ستار الأممية الإسلامية»[5].

ولعل هذه الأقوال صحيحة في أساسها، ولكنها متطرفة على ما أرى، فمن المبالغة أن تقول بأن سلطان العرب انتهى بسقوط الأمويين، فالخلفاء العباسيون كانوا

---

(١) انظر: يوليوس فلهاوزن، **الدولة العربية وسقوطها**، نقله إلى العربية يوسف العش (دمشق: مطبعة الجامعة السورية، ١٩٥٦)، ص ٥٥٦، وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٣ ج في ٥ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م)، ج ٩، ص ٩٨، ١٥٣ و١٦٧.

(٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **البيان والتبيين**، حققه وشرحه حسن السندوبي، ط ٢ (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٢)، ج ٣، ص ٢٠٦.

(٣) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، النص العربي مع الترجمة الفرنسية بقلم ك. باربيه دو مينار وبافيه دو كورتبي، ٩ ج (باريس: المطبعة العسكرية الامبراطورية، [١٨٦١ ـ ١٨٧٦])، ج ٨، ص ٢٩٢.

(٤) C. H. Becker, «The Expansion of the Saracens,» in: *Cambridge Medieval History*, planned by J. B. Bury; edited by H. M. Gwatkin [and] J. P. Whitney, 8 vols. (Cambridge, MA: [University Press], 1911-1936), vol. 2: *The Rise of the Saracens and the Foundation of the Western Empire*, reprinted with corrections, p. 364.

(٥) فلهاوزن، **الدولة العربية وسقوطها**، ص ٥٥٧.

عرباً هاشميين (من جهة الأب على الأقل)، وكانوا يعتزّون بنسبهم ويعتبرونه أكبر مناقبهم. ومع أنهم قرّبوا الفرس، إلا أنهم سيطروا عليهم، فنكلوا بهم حين شعروا بتعاظم نفوذهم، كما فعل أبو العباس بالخلال، والمنصور بأبي مسلم، والرشيد بالبرامكة، والمأمون بالفضل بن سهل.

وقد أعطيت بعض المناصب المهمة كالوزارة إلى الفرس، ولكن عدداً كبيراً من الولاة والقواد كانوا عرباً في العصر العباسي الأول، فكان أكثر الولاة في خلافة أبي العباس والمنصور من العائلة المالكة، وكثيراً ما تنافس كبار الموظفين من العرب والفرس في البلاط وفي الولايات. وكان الجيش العباسي يتألف من فرق عربية وخراسانية.

وظلت اللغة العربية لغة السياسة والثقافة والأدب. كما بقي الناس ينزعون إلى الفخر بالنسب العربي وبالولاء العربي، فأبو مسلم الخراساني انتحل لنفسه نسباً عربياً، والشاعر والبة بن الحباب كان يدّعي النسب إلى العرب، وإسحق الموصلي (مطرب الرشيد) ذهب إلى خازم بن خزيمة ليتشرف له بالولاء له. ولكننا نرى إلى جانب هذه النزعة، نزعة فارسية تفخر بشرفها علانية كما في قول بشار بن برد:

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم ... مولى العريب فخذ بفضلك فافخر

مولاك أكرم من تميم كلها ... أهل الفعال ومن قريش المشعر[٦]

فسلطان العرب لم ينته بسقوط الأمويين، وإن زالت سيادتهم على العناصر المختلفة في الدولة، إذ فقدت القبائل العربية امتيازاتها، وزال الفرق بين العرب والمسلمين من غير العرب[٧]. لقد كانت دولة بني العباس أممية إسلامية، بينما كانت دولة بني أمية عربية، فبعد أن كان استخدام الموالي في الوظائف نادراً، أصبح في الدولة العباسية أمراً طبيعياً. ويقول المسعودي عن المنصور: «إنه أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم في مهماته وقدمهم على العرب، فامتثلت ذلك الخلفاء من بعده»[٨].

ولكن العباسيين اختصوا بالخراسانيين من بين عناصر المملكة، وأطلقوا عليهم اسم الشيعة والأنصار والأبناء (أبناء الدولة)، ومنهم كونوا زهرة جيوشهم في العصر العباسي الأول[٩].

---

(٦) أحمد أمين، **ضحى الإسلام**، ٣ ج (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٤)، ج ١، ص ٢٩.

(٧) فلهاوزن، المصدر نفسه، ص ٥٥٧.

(٨) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٨، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٩) انظر: فلهاوزن، المصدر نفسه، ص ٥٥٨.

٢ ـ ويتميز العهد الجديد بعلاقته بالدين، فادّعى العباسيون أنهم يريدون إحياء السنّة وإعادة حكم العدل، وإرجاع الخلافة الحقة بدل الملك الذي أقامه الأمويون، فارتدى خلفاؤهم البردة (كرمز لسلطتهم الدينية) في المناسبات الخاصة كصلاة الجمعة والعيدين، وأحاطوا أنفسهم بالفقهاء واستشاروهم في مشاكل الدولة[١٠]. وهكذا اتحد الدين والسياسة، وكانت غاية العباسيين الاستفادة من الدين لتثبيت مركزهم السياسي[١١]. ويقول الفخري: «إن هذه الدولة ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك، فكان أخيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تديناً، والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة»[١٢].

واستغل العباسيون دعوتهم المنظمة لتقوية مركزهم ولجلب الناس إليهم، فادّعوا بأن السلطة ستبقى في أيديهم، ولن تخرج منهم حتى يسلموها إلى عيسى بن مريم[١٣]، وأن نظام العالم سيختل إذا ذهبت خلافتهم[١٤].

ولكن المثل الأعلى للمساواة والعدل ظلا وهماً، إذ لم يحقق العباسيون وعودهم، فاستمر العسف والجور، واستمرت الثورات. ففي سنة ١٣٣هـ احتج شريك بن شيخ المهري الثائر في بخارى ضد مظالم العباسيين قائلاً: «ما على هذا اتبعنا آل محمد، على أن نسفك الدماء ونعمل بغير الحق»، وتبعه على رأيه أكثر من ثلاثين ألفاً[١٥]. وقال أبو العطار الشاعر:

يا ليت جور بني مروان عاد لنا   يا ليت عدل بني العباس في النار[١٦]

واعتمد العباسيون على القوة أكثر من الأمويين في تنفيذ رغباتهم وسياستهم، وكان أبو العباس أول من أشار إلى هذا الاتجاه في خطبته الافتتاحية[١٧]. وصار للجلاد مكان معلوم في البلاط إلى جانب العرش ليزيد من سطوة الخليفة. ويعتقد

(١٠) Thomas W. Arnold, *The Caliphate* (Oxford: Clarendon Press, 1929), pp. 89-91.

(١١) فلهاوزن، المصدر نفسه، ص ٥٦٢.

(١٢) محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ/[١٨٩٩م])، ص ١٠١.

(١٣) عبد الرحمن سنبط الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك** (بيروت؛ القدس: مطبعة القديس جاورجيوس، ١٨٨٥)، ص ٤٠.

(١٤) انظر: Arnold, *The Caliphate*, pp. 81-82.

(١٥) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٤٨.

(١٦) علي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني** (القاهرة: الساسي، [د. ت.])، ج ١٦، ص ٨٤.

(١٧) الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك**، ص ٤٠.

فلهاوزن أن العباسيين اقتبسوا وظيفة الجلاد من الفرس الذين كان لملوكهم حق الحياة والموت على الرعية[١٨].

قلنا إن العباسيين اعتمدوا على الدين وقربوا الموالي، ولكنهم أخفقوا كما أخفق الأمويون من قبلهم في خلق وحدة متجانسة من إمبراطوريتهم[١٩]. وقد يعزى بعض فشلهم هذا إلى موقف الموالي الذين لم يكن تذمرهم وطلبهم المساواة إلا لرغبتهم في التخلص من حكم الأمويين وللتحرر من سيادة العرب التي كانت تتمثل في الدين واللغة والأسرة الحاكمة زمن العباسيين، لا رغبة في المساواة نفسها.

٣ ـ وتغيرت نظرية الحكم في العصر العباسي، فبعد أن كان الخليفة الأموي أشبه برئيس قبيلة يستمد سلطانه من رضى رؤساء القبائل ويستشيرهم في الأمور ويحاول استرضاءهم، أصبحت السلطة عند العباسيين مقدسة ومستمدة من الله تعالى، فخطب المنصور قائلاً: «أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسه على ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه. فارغبوا إلى الله وسلوه. . . أن يوفقني للرشاد والصواب، وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم. . .»[٢٠].

وصار الخليفة خليفة الله على الأرض، فيذكر المسعودي من قول عبد الله بن عمرو بن عتبة يعزي المهدي «ولا مصيبة أعظم من إمام والد، ولا عقبى أجلّ من خلافة الله على أولياء الله»[٢١].

وبينما كان الأمويون محاطين بأرستقراطية عربية لها مركز ممتاز، أحاط العباسيون أنفسهم بالخراسانيين وغيرهم من صنائعهم، وهم أدوات بأيدي الخلفاء. وإذا استثنينا الهاشميين لم يتبق للنسب أهمية للتقدم في الدولة، بل كان مركز الرجل وأهميته يتوقفان على تشريف الخليفة له. فحلّت جماعات من الموظفين محل الأرستقراطية العربية، وقسمت إلى طبقات يسيطر بعضها على بعض وكان على رأسها الوزير[٢٢].

---

(١٨) فلهاوزن، **الدولة العربية وسقوطها**، ص ٥٦٢.

(١٩) **دائرة المعارف الإسلامية**، مادة «بنو أمية».

(٢٠) أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، **العقد الفريد**، صححه وشرح غريب ألفاظه أحد أفاضل العصر، ٤ ج (القاهرة: محمود شاكر، ١٩١٣)، ج ٣، ص ٣٧٠.

(٢١) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ١٣٩.

(٢٢) فلهاوزن، **الدولة العربية وسقوطها**، ص ٥٥٩ ـ ٥٦١.

٤ ـ ويرى الأستاذ ليفي ديللافيدا (Levi della Vida) «أن النظام الإداري الذي جرى عليه العباسيون هو في جوهره نظام الأمويين»[٢٣]، واستمرت النظم الأموية في الضرائب والإدارة المحلية والجيش والدواوين في العهد العباسي.

إلا أن النظام الإداري الجديد لم يكن قائماً على أساس التفريق في الجنس أو على أساس التنافر بين طبقات الأمة المختلفة، فلم تكن هناك طبقة المحاربين العرب ذات الامتيازات الكثيرة من جهة، وطبقة المزارعين التي تشتغل لفائدة المحاربين من جهة أخرى، كما كان في زمن الأمويين، بل أصبح الدين أساس الإدارة، واعتبر مرجعاً لتحديد العلاقات بين الشعب والحكومة.

ثم إن الإدارة العباسية اتخذت شكلاً يختلف عن الإدارة الأموية، إذ استندت إلى الوزارة، وهي مؤسسة أدخلها العباسيون، فظهرت طبقة الكتّاب التي أدت دوراً يعدل دور أرباب السيوف أو قد يفوقه في تسيير دفة الدولة.

واهتم العباسيون بالتنظيمين الإداري والمالي، ولا ريب في أن ظروفهم ساعدتهم على ذلك.

٥ ـ أما من الوجهة الثقافية، فقد كان العصر العباسي متمماً للعصر الأموي، إذ كان العصر الأموي عصر انتقال مثّل فيه القديم إلى جانب الجديد، فإضافة إلى وجود العادات البدوية والشعر العربي والدراسات الدينية، نرى بدء تسرب عادات أجنبية وأفكار مسيحية ويونانية في النواحي الدينية والعلمية.

لقد أخذ العرب بعض ضروب الغناء والموسيقى عن الفرس، واقتبس البلاط الأموي في عهده الأخير بعض تقاليد البلاط الساساني في مجالسه، كعادة جلوس الخلفاء خلف ستارة في مجالس الغناء[٢٤]، كما أنه تأثر بالبيزنطيين. وفي العصر الأموي بدأت حركة التأليف، إذ بدأ جمع الشعر الجاهلي، وظهرت بوادر حركة تدوين التاريخ[٢٥]، ونشأت الدراسات الفقهية[٢٦].

وترجمت بعض الكتب، ولعل خالد بن يزيد بن معاوية أول من بدأ بالترجمة، إذ

---

(٢٣) **دائرة المعارف الإسلامية**، مادة «بنو أمية».

(٢٤) S. Khuda Bukhsh, *Contributions to the History of Islamic Civilization*, 2 vols. (Calcutta: [n. pb.], 1929-1930), vol. 1, pp. 89-91.

(٢٥) علي حسن عبد القادر، **نظرة عامة في تطور الفقه الإسلامي** (القاهرة: [مكتبة القاهرة الحديثة]، ١٩٤٢)، ص ١١٣.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١٠٠ وما بعدها.

أمر أن تترجم له بعض الكتب من اليونانية والقبطية إلى العربية، وكتب هذا الأمير بضع رسائل في الكيمياء[٢٧]. وفي خلافة عمر بن عبد العزيز ترجم ماسرجويه بعض الكتب السريانية، كما انتقل مركز الدراسات اليونانية من الاسكندرية إلى حران وأنطاكية، فسهل انتشارها بين المسلمين. وترجم سالم بن جبلة كاتب هشام بعض كتب أرسطو، كما ترجم ابنه جبلة عدة كتب من الفارسية إلى العربية، منها كتاب في تاريخ الفرس من بدء ملكهم إلى انتهائه، ترجمه بأمر الخليفة هشام في سنة ١١٣هـ[٢٨].

ولم تكن حركة الترجمة في العصر الأموي منظمة، بل كانت فردية، ولكن ما إن جاء العصر العباسي حتى لقيت من تشجيع الخلفاء ورجال الدولة ومن تطور الزمن ما ساعدها على النضوج والتقدم. واستمرت بعض تقاليد الحياة البدوية، إذ وجدت الأسواق (كما كانت قبلاً)، فكانت مجمعاً لأهل العلم والأدب ومحلات لتبادل السلع كما في المربد[٢٩].

٦ ـ وتغيّرت وضعية بعض الأحزاب، إذ انكمشت الحروب القبلية التي كانت متأصلة بين القبائل في العصر الأموي، وانحصرت في الجزيرة العربية وسورية، وحمل نفوذ الموالي العرب على الشعور بالوحدة، فبينما حاولت الشعوبية أن تحطّ من شأن العرب، جابهها الكتاب، فأثبت الجاحظ وحدة العرب[٣٠]. وذهب بديع الزمان الهمداني والثعالبي إلى أنها ﴿**خير أمة أخرجت للناس**﴾[٣١]، واستمرت الخصومة في العصر العباسي الأول بين العرب والفرس واتخذت أشكالاً شتى، أدبية ودينية وسياسية.

ثم تغيّرت وضعية الأحزاب المتخاصمة على الخلافة، فبعد أن كان النزاع بين أمية وهاشم أصبح بين بني هاشم أنفسهم، إذ خاب ظن العلويين بحسن نيات العباسيين بعد استئثار هؤلاء بالسلطة، فسعوا لقلب الخلافة العباسية، ونجحوا فعلاً

---

(٢٧) أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم، **الفهرست** (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٤٨هـ/ [١٩٢٩م])، ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨.

(٢٨) انظر: Von Krener, in: Bukhsh, *Contributions to the History of Islamic Civilization*, vol. 1. pp. 286-288.

(٢٩) انظر: سعيد الأفغاني، **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام** (دمشق: المطبعة الهاشمية، ١٩٣٧)، ص ٣٥٦ وما بعدها.

(٣٠) انظر: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **رسائل الجاحظ**، ٣ ج، ج ١: **الرسائل السياسية**، «مناقب الترك،» ص ٦ ـ ٧.

(٣١) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ١١٠.

بإقامة دولة الأدارسة، والدولة الفاطمية التي كانت أخطر أعداء العباسيين بين القرنين العاشر والثاني عشر للميلاد.

كما إن العباسيين نكلوا ببعض العلويين تنكيلاً لم يسبق له مثيل، فيروى عن محمد ذي النفس الزكية أنه قال: «لقد كنا نقمنا على بني أمية ما نقمنا، فما بنو العباس إلا أقل خوفاً لله منهم، وإن الحجة على بني العباس لأوجب منها عليهم، ولقد كان للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر»[٣٢]. أما حزب الخوارج فقد ضعف وقلّت أهميته.

٧ ـ وجعل العباسيون عاصمتهم في العراق، فكان ذلك رمزاً لنجاح العراق في نضاله السياسي مع الشام طوال العصر الأموي.

كما إن نقل العاصمة إلى العراق أدى إلى أن تسود الثقافتان الفارسية والسريانية والعادات الفارسية في الدولة العباسية. وقد ظلت الثقافة الفارسية عاملاً مهماً في الدولة العباسية حتى بعد زوال نفوذ الفرس السياسي.

ولكن هناك مبالغات كثيرة عن الدور الذي لعبه الفرس في الثقافة العباسية، وهي ناتجة من محاولات الشعوبيين في أثناء خصومتهم الطويلة مع العرب أن ينسبوا كل أنظمة العباسيين وثقافتهم إلى الفرس. ولكنا لو درسنا الأنظمة الساسانية[٣٣] لتبيّن لنا أنها كانت أبسط مما كان عند العباسيين، كما إن كثيراً من الأنظمة العباسية لم يكن يعرفها الساسانيون، فلم يكن الفرس مثلاً يميزون بين كلمتي «جزية» و«خراج»، ولم يعرفوا نظام «الحسبة». وقد تطور نظام البريد عند المسلمين، فصار يقوم بالتجسس للخليفة على العمال والرعية، إضافة إلى نقل الأخبار الرسمية، وهذا أمر لم يعرفه الفرس، وهناك أمثلة كثيرة لا محل لذكرها.

وأثر وقوع العراق على طرق التجارة المهمة في الحضارة العباسية، شجع حركة التجارة، فأصبح المجتمع تجارياً زراعياً بعد أن كان زراعياً في العصر الأموي. وقد انتبه أبو جعفر المنصور إلى أهمية التجارة في اختياره موقع بغداد[٣٤].

---

(٣٢) أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، ج ١٠، ص ١٠٦.

(٣٣) خير من كتب في هذا الموضوع هو: Arthur Christensen, *L'Iran sous les Sassanides* (Copenhague: Levin et Munksgaard, 1936).

(٣٤) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **البلدان** (النجف: المطبعة الحيدرية، ١٩٣٩)، ص ٩.

وقد أدى بُعد العراق عن البحر، وقلة خطر البيزنطيين البحري على مركز الدولة، إلى إهمال العباسيين الأسطول، فتقلص النفوذ البحري للمسلمين.

وأهمل العباسيون الولايات الغربية بعامة، واهتموا بالقسم الشرقي من الامبراطورية التي ورثوها، فساعد ذلك على انفصال الولايات الغربية النائية، كمراكش وتونس.

٨ ـ ولأول مرة في تاريخ الإسلام نرى أكثر من دولة واحدة تحكم أراضيه، إذ انفصلت الأندلس ونشأت فيها دولة مستقلة عن العباسيين.

الفصل الثالث

أبـو العبـاس(*)

(*) ربيع الأول ١٣٢هـ ـ ذو الحجة ١٣٦هـ.

نقل الخلافة إلى العلويين، وقال: «ينبغي أن يتربصوا، فإن الناس بايعوا إبراهيم وقد مات ولعله يحدث بعده أمر، **وأراد أن يصرف الأمر إلى ولد علي**»[١٢]. ويتفق الجهشياري واليعقوبي والطبري مع المقدسي (في قوله إن الخلال أراد نقل الخلافة إلى العلويين عندما بلغته وفاة إبراهيم)، فيقول الجهشياري: «وكان لما صحّ عنده موت إبراهيم الإمام لقي رجالاً من شيعة علي (ﷺ)، فناظرهم في نقل الأمر إلى ولد علي»[١٣]. وكان أول ما عمله بعد أن سلم إليه ابنا قحطبة الرياسة أن «أظهر الإمامة الهاشمية ولم يسم الخليفة»[١٤]، مع أن العباسيين لم يكونوا في خطر آنذاك. ويذهب اليعقوبي إلى أنه أخفى أبا العباس وأهل بيته لأنه «دبر أن يصير الأمر إلى بني علي»[١٥]، بينما يقول الطبري: «وأراد في ما ذكر . . . تحويل الأمر إلى آل أبي طالب»[١٦]. وأخيراً يقول إبن قتيبة: «وكان أبو سلمة يريد صرف الخلافة إلى ولد علي»[١٧].

إذاً أراد الخلال أن يبايع العلويين، وكان مدفوعاً بميوله في ذلك، فالكوفة كانت علوية والخلال يميل إلى بني علي. ولما كانت غاية الموالي الأولى التخلص من الأمويين انضم الخلال إلى الدعوة العباسية المنظمة لهذا الغرض. ولكن انتصار الجيوش العباسية ومقتل إبراهيم الإمام أفسح المجال له ليحقق ما كان يميل إليه حقيقة، وبخاصة أن المدعو له لم يكن معروفاً عند الجمهور.

وقد كتب الخلال إلى ثلاثة من العلويين ليعقد الأمر لأحدهم، وهم الإمام جعفر بن محمد الصادق، وعبد الله بن الحسن، وعمر الأشرف بن زين العابدين، فأحرق الصادق الكتاب، ورفض عمر الأشرف. أما عبد الله، فقد «قبل الكتاب، فحذره جعفر بن محمد فلم يحذر»[١٨]، ويذكر اليعقوبي أنه قال: «أنا شيخ كبير وابني محمد أولى بهذا الأمر»، وأرسل إلى جماعة بني أبيه وقال: «بايعوا إبني محمد»[١٩].

---

(١٢) انظر: المطهر بن طاهر المقدسي، **البدء والتاريخ (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي** = *Le Livre de la creation et de l'histoire de Motahhar ben Tahir el-Maqdisi*، اعتنى بنشره وترجمته من العربية إلى الفرانسوية كلمان هوار، ٦ ج (باريس: ارنست لورو، ١٨٩٩)، ج ٦، ص ٦٧.

(١٣) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٨٦.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٨٤، واليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٨٦.

(١٥) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٨١.

(١٦) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٢٤.

(١٧) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ٢ ج في ١ (القاهرة: مطبعة النيل، [١٣٣١هـ/ ١٩١٢م])، ج ٢، ص ٢٢٦.

(١٨) انظر: الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٨٦، وابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١١١ ـ ٢١٢.

(١٩) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٨٦.

وفشلت مساعي الخلال، إذ شك زعماء العلويين به وبالشيعة العباسية، فيذكر الجهشياري أن الإمام الصادق نصح عبد الله ألا يقبل دعوة أبي سلمة «وأعلمه أن أهل خراسان ليسوا بشيعة»[٢٠]. ويروي المسعودي ما حدث بصورة أتم، فيقول إن الصادق قال لعبد الله: «يا أبا محمد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟ أأنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان؟ أأنت أمرته بلبس السواد؟ وهؤلاء الذين قدموا إلى العراق أأنت كنت سبب قدومهم أو وجهت فيهم، وهل تعرف منهم أحداً؟»[٢١].

ومن جهة أخرى، ارتاب الخراسانيون من تصرفات أبي سلمة، وتكلموا وقالوا: «يا أبا سلمة ما لك دعوتنا وما أنت لنا بإمام؟»[٢٢]. ثم اكتشف أحدهم مخبأ العباسيين، فأخبر بعض القواد الخراسانيين فجاؤوا، وعلى رأسهم أبو الجهم «إلى أبي العباس ومعهم أصحابهم في السلاح وبايعوه»، وهكذا جابهوا الخلال بحقيقة واقعة، فبايع واعتذر[٢٣]. وكانت مدة انفراد أبي سلمة بالأمور إلى أن بويع أبو العباس شهرين ونصفاً[٢٤].

ثالثاً: البيعة لأبي العباس

وفي اليوم التالي، خرج أبو العباس إلى المسجد تصحبه ثلة من الجند من ألفي فارس، إذ لم يكن واثقاً من تأييد الكوفيين[٢٥]، وهناك كانت البيعة العامة. وتضطرب المصادر في تعيين تاريخ البيعة، والمرجح أنها كانت في ربيع الأول سنة ١٣٢هـ[٢٦]. ويجعلها اليعقوبي في «١٣ ربيع الأول المصادف تشرين الآخر من شهور العجم»،

---

(٢٠) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٨.

(٢١) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ١٨٤.

(٢٢) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٨٦.

(٢٣) انظر: المصدر نفسه، ص ٨٦؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٢٥؛ المسعودي، المصدر نفسه، والمقدسي، **البدء والتاريخ (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي** = *Le Livre de la creation et de l'histoire de Motahhar ben Tahir el-Maqdisi.*

(٢٤) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٨٧، ومما يسترعي الانتباه أن الدينوري يتجاهل القصة بكاملها. انظر: الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٦٨.

(٢٥) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج ٢، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٢٦) على روايات الجهشياري والطبري واليعقوبي. ويقول الدينوري إنها كانت في رجب، ويجعلها حال دخول ابني قحطبة الكوفة، انظر: الدينوري، المصدر نفسه، ص ٣٦٨، ولذلك لا يؤخذ به. ويضعها المسعودي في ١٣ ربيع الآخر، انظر: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **التنبيه والإشراف**، عني بتحقيقه ومراجعته عبد الله اسماعيل الصاوي (القاهرة: مكتبة الشرق الإسلامية، ١٩٣٨)، ص ٢٩٢، ويتفق معه الطبري في رواية ثانية، انظر: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٢٣.

ويرى الجهشياري أنها كانت يوم ٢٦ ربيع الأول سنة ١٣٢هـ/ ١٣ كانون الأول/ ديسمبر سنة ٧٤٩م[٢٧].

واعتلى أبو العباس المنبر، وجلس عمه داوود بن علي درجة دونه، فخطب الخليفة قائلاً: «الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة وشرّفه وعظمه واختاره لنا وأيده بنا، **وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه والناصرين له**... **وخصنا برحم رسول الله** وقرابته... وأنبتنا من شجرته... **ووضعنا من الإسلام وأهله في الموضع الرفيع**، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم، فقال... **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾**، وقال: **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾**[٢٨]، فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا... بنا هدى الناس بعد ضلالتهم ونصرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم، **وأظهر بنا الحق ودحض بنا الباطل**، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً... فتمم الله ذلك منة ومنحة لمحمد (ﷺ)، فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى، فحووا مواريث الأمم، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها... ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا **وتدارك بنا أمتنا وولي نصرنا... ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض**.

«يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا... أنتم الذين لم يتغيّروا عن ذلك، ولم يثنكم من ذلك تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا **وأتاكم الله بدولتنا**، **فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا. وقد زدتكم في أعطياتكم** مائة درهم فاستعدوا، **فأنا السفاح المبيح والثائر المبير**»[٢٩].

ثم اشتد عليه الوعك فجلس، وخطب داوود بن علي، فمما قاله: «وإنما **أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم**، ولقد كانت أموركم ترمضنا... ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم، لكم ذمة الله تعالى وذمة رسول الله (ﷺ) وذمة العباس أن **تحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم**

---

(٢٧) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٨٦، والجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٨٤ و٨٦.

(٢٨) **القرآن الكريم**: «سورة الأحزاب،» الآية ٣٣، و«سورة الشورى،» الآية ٢٣.

(٢٩) انظر: الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٢٥ ـ ١٢٦، وعبد الرحمن سنبط الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك** (بيروت؛ القدس: مطبعة القديس جاورجيوس، ١٨٨٥)، ص ٤٠ ـ ٩٣.

بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله (ﷺ)، ثم قال: «يا أهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا من أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا، وأفلج بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون... **وأدالكم على أهل الشام ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام**»[(٣٠)].

وهكذا بيّن العباسيون الأسس التي يستندون إليها، وأعلنوا للناس سياسة وعدوا بالسير عليها، فظل الناس يتطلعون إلى تحقيقها من دون جدوى. ويلاحظ من مضمون الخطبتين ما يلي:

(١) إن أبا العباس في خطابه هذا افتخر بكونه «ثائراً»، أي خارجاً على الظلم وقالباً للنظام السابق.

(٢) إن العباسيين قاموا بحق شرعي لهم جاءهم من قرابتهم من الرسول (ﷺ)، ولم يغفلوا الرعية، بل فكروا في حقوقها المهضومة، وأن الله نصر المظلوم المستضعف بهم، وفي ذلك إشارة إلى أهل العراق وخراسان.

(٣) إنهم جاؤوا لإحياء سنّة الرسول (ﷺ)، وسيعملون بالكتاب والسنّة.

(٤) ومثلوا انتصارهم كانتصار للعراقيين على أهل الشام، فأغروا أهل الكوفة بزيادة العطاء وبالوعود الخلابة كي يحصلوا على تأييدهم. ثم إن روح الدعاية قوية في الخطبتين حتى قال داوود بن علي: «واعلموا أن هذا الأمر (أي الخلافة) فينا، وليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم»[(٣١)].

رابعاً: برنامج العباسيين

بويع أبو العباس، وكانت مهمته شاقة، فمروان وجيوشه في الشام، وابن هبيرة مع جيشه القوي في واسط، ومركزه ضعيف في الكوفة ووزيره الخلال لا يعتمد عليه. ولكن أبا العباس أظهر مقدرة فائقة ووضع أسس الدولة العباسية.

اهتم أبو العباس أولاً بالجبهة الشمالية، ولنفهم تسلسل الحوادث أرى أن نرجع إلى فتح نهاوند. فبعد أن خضعت هذه المدينة، أرسل قحطبة جيشاً بقيادة «أبي العون» أحد زعماء الأزد، وأمره أن يشغل الجيش الأموي الذي أرسله مروان بقيادة ابنه عبد

---

(٣٠) انظر: المصدران نفسهما، ج ٩، ص ١٢٥ ـ ١٢٦، وص ٣٩ ـ ٤٠ على التوالي، واليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٨٧.

(٣١) الأربلي، المصدر نفسه، ص ٤٠، والطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٢٧.

الله، فانتصر أبو العون عند شهرزور وتراجع عبد الله، فقدم مروان لنجدة ابنه، فسارع أبو العباس بإرسال بقية جنوده في الكوفة لمساعدة أبي العون، وأعطى القيادة العليا لعبد الله بن علي.

وفي ١١ جمادى الأولى سنة ١٣٢هـ ـ ٢٥ كانون الثاني سنة ٧٥٠م التقى الجيشان على نهر الزاب الكبير، ودارت معركة حاسمة انتهت بانتصار العباسيين، وكان عدد جيشهم يقارب الأربعين ألف جندي[٣٢]، وربما كان الجيش الأموي ضعف هذا العدد[٣٣]. ولا تهمنا تفاصيل المعركة، فإنها مذكورة في كتب التاريخ. أما أسباب هزيمة الأمويين، فهي ضعف معنوياتهم وقوة معنويات الخراسانيين[٣٤]، ثم العصبية الهدامة في الجيش الأموي وتخاذله في أثناء القتال. ويروي الطبري: «وقال مروان لقضاعة: إنزلوا، فقالوا: قل لبني سليم فلينزلوا، فأرسل إلى السكاسك أن احملوا، فقالوا قل لبني عامر فليحملوا، فأرسل إلى السكون أن احملوا، فقالوا: قل لغطفان فليحملوا»[٣٥].

وحاول مروان تشجيع جنده، فعرض المال أمامهم، وما إن وقعت أبصارهم عليه حتى كفوا عن القتال وتوجهوا صوبه، فحاول صدهم وأرسل ابنه لإرجاعهم، فظنوا أنها الهزيمة وهربوا. ولعل مروان أخطأ خطأة أخرى حين عبر النهر إلى العباسيين، فقطع خط رجعته وغرق قسم كبير من جيشه.

وعلينا أن نتذكر أن الحروب أنهكت جيش مروان وهدت قواه، هذا إضافة إلى أن هجوم جيش بني العباس كان خاطفاً وفجائياً، فلم يكن في وسع مروان أن ينظم جنده ويشد قواه قبل أن ينزل إلى الميدان.

وظل مروان يهرب من مدينة إلى أخرى بين الجزيرة والشام ومصر حتى قتل في ٢٧ ذي الحجة سنة ١٣٢هـ في قرية بوصير[٣٦].

ولكن معركة الزاب لم تضع حداً لنضال الأمويين، بل ثار كثير من أنصارهم في

---

(٣٢) انظر: الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١١٦ و١٣٠.

(٣٣) يذكر الطبري في المصدر نفسه روايتين على عدد الجيش الأموي، الأولى تجعله مائة وعشرين ألفاً في: ج ٩، ص ١٣٣ ـ ١٣٤، والثانية تجعله اثني عشر ألفاً في: ج ٩، ص ١٣٥.

(٣٤) انظر: ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٠٦.

(٣٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٣١.

(٣٦) انظر تفاصيل الواقعة في: المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٣٠ ـ ١٣٤؛ ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ١٠٦ ـ ١٠٧؛ اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٨٣ ـ ٨٤، والمسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

حمص وقنسرين والجزيرة وحوران[٣٧]. ونلاحظ ظاهرة جديدة في هذه الثورات، إذ إنها اتخذت البياض شعاراً لها (بالمقابلة للون الأسود شعار العباسيين)، فأخمد أبو العباس هذه الحركات بمهارة سياسية وبمناورات سلمية أحياناً، إذ استمال زعماءهم بالأموال والوعود.

وفي الجنوب كان الحسن بن قحطبة يحاصر ابن هبيرة في واسط، فأرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر للإشراف على الحصار، وكان لإرساله أهمية خاصة، إذ إن حضور رجل من آل البيت العباسي كان سيقوّي معنويات الجيش[٣٨]. واستمر حصار واسط أحد عشر شهراً[٣٩]، وقد ساعدت منعة حصون واسط ومهارة يزيد بن هبيرة على إطالته.

وحاول العباسيون أن يملأوا السفن حطباً، ثم يضرموها بالنار ويسيروها إلى المدينة لتحرق ما مرت به، وكان ابن هبيرة يهيئ حراقات فيها كلاليب تجر تلك السفن[٤٠].

وعلق ابن هبيرة آمالاً على قيام ثورات في أنحاء المملكة، وخابر العلويين بعد مقتل مروان ودعاهم إلى المطالبة بالخلافة[٤١] ليزيد في مشاكل العباسيين وليثير الفوضى من جهة، وليدفع اليمانية الذين كانوا في واسط إلى التضامن معه لمقاومة الحصار العباسي من جهة أخرى[٤٢]. ولكن أبا جعفر انتبه لهذا الخطر، ولخوفه من «أن يثور اليمانية مع ابن هبيرة» كتب إليهم قائلاً: «السلطان سلطانكم والدولة دولتكم»[٤٣]، بينما يذكر الطبري أن أبا العباس «كاتب . . . اليمانية من أصحاب ابن هبيرة وأطمعهم»[٤٤].

وفرق أبو جعفر صفوف ابن هبيرة، فكتب إلى قواده وأشراف من معه من

---

(٣٧) انظر: اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩٢ ـ ٩٥.

(٣٨) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٦٨، والطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٣٩) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٤٤.

(٤٠) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٤٤.

(٤١) كتب ابن هبيرة إلى محمد النفس الزكية [ابن عبد الله بن الحسن] فأبطأ جوابه. انظر: المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٤٤.

(٤٢) انظر: اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٩٠، وابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج ٢، ص ٢٤١.

(٤٣) ابن قتيبة، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٤١.

(٤٤) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٤٤.

العرب «يستميلهم بالأطماع وينبههم على حظوظهم ويعرفهم انصرام دولة بني أمية، فأجابوه جميعاً، وكان زياد بن صالح الحارثي ـ عامل ابن هبيرة على الكوفة سابقاً وأخص أصحابه عنده ـ أول من أجاب دعوة أبي جعفر»(٤٥). ودبّ التخاذل في جيش ابن هبيرة بتأثير الدسائس وطول الحصار «فقالت اليمانية. . . لا والله لا نقاتل على دعوة بني أمية لسوء رأيهم فينا وبغضهم لنا، وقالت القيسية: لا والله لا نقاتل حتى تقاتل اليمانية»(٤٦)، فلم يكن يقاتل مع ابن هبيرة غير «الصعاليك والفتيان»(٤٧).

وأخيراً، طلب ابن هبيرة الصلح، وكتب له الأمان كما اشترط بعد مفاوضات طويلة(٤٨). ولكن العهد لم يحفظ وقتل ابن هبيرة، ويعزو اليعقوبي ذلك إلى أن العباس اطلع على كتب ابن هبيرة إلى محمد بن عبد الله بن الحسن يدعوه إلى الخلافة، فقال: «نقض عهده وأحدث ما أحل به دمه»(٤٩). ويبينّ الطبري وابن قتيبة (يوافقهما اليعقوبي) أن قتله كان بإشارة من أبي مسلم الذي كتب إلى الخليفة «لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة»(٥٠)، وأن أبا جعفر تردد في قتله، فألح عليه أبو العباس «وكثرت كتبه بذلك»(٥١)، حتى كتب لأخيه «والله لتقتلنه أو لأرسلن من يخرجه من حجرتك ثم يتولى قتله»(٥٢). وطبيعي أن يكون وجود ابن هبيرة خطراً على الدولة الجديدة(٥٣).

خامساً: انتصار أبي العباس على الأمويين

وبعد تخلص أبو العباس من خطر الأمويين العسكري، كان عليه أن يتخلص من بقية منافسيه، فطارد من بقي من بني أمية، وكان ساعداه في ذلك عبد الله بن علي في الشام، وداوود بن علي في الحجاز، فقتل عبد الله كل من ظفر به منهم في دمشق،

---

(٤٥) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٦٨.

(٤٦) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج ٢، ص ٢٤٠.

(٤٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٤٤.

(٤٨) انظر: اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٩٠. انظر أيضاً نص كتاب الأمان في: ابن قتيبة، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٦.

(٤٩) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩٠.

(٥٠) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٤٤، وابن قتيبة، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٤٧.

(٥١) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩١.

(٥٢) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٤٤ ـ ١٤٥، وابن قتيبة، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٤٨.

(٥٣) انظر: اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩١، ويتضح أثر الوضع السياسي على رواية الدينوري، وخلاصتها أن ابن هبيرة طلب الأمان، فقال له المنصور: «إن أردت أن أؤمنك على حكم أمير المؤمنين فعلت»، فرضي ابن هبيرة وسلم. ثم كتب أبو جعفر يستعلم رأي أخيه، فكتب أبو العباس: «لا حكم لابن هبيرة إلا السيف»، وعند ذاك أمر أبو جعفر بقتله. انظر: الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٧٠ ـ ٣٧٢.

وارتكب أنواع الفظائع حتى نبش القبور وقتل حوالى ثمانين من رؤساء بني أمية عند نهر أبي فطرس (بين فلسطين والأردن) بعد أن وعدهم بالعفو والصلات(٥٤).

سادساً: قتل الخلال

ثم تخلص أبو العباس من الخلال، ويتفق أكثر المؤرخين وأوثقهم، كالطبري والجهشياري والفخري واليعقوبي وابن قتيبة، على أن أبا العباس كان صاحب فكرة قتله، بينما كان أبو مسلم المنفذ لها. وكانت محاولة أبي سلمة في نقل الخلافة إلى ولد علي السبب الأول لمصرعه.

وأراد أبو العباس أن يقتل الخلال، فنصحه أصحابه أن يستشير أبا مسلم لئلا يستوحش ويرتاب(٥٥)، فكتب إليه أبو العباس عن خيانة أبي سلمة، فأجاب أبو مسلم: «إن كان رابك من ريب فاضرب عنقه»(٥٦)، ولكن الخليفة لم يفعل ذلك بإشارة من أصحابه «لئلا يوحش أبا مسلم أو يوجد لأهل خراسان حجة»(٥٧)، وطلب إلى أبي مسلم أن يرسل أحد رجاله لقتل الخلال، ففعل(٥٨).

وهناك رواية أخرى ترد في الدينوري والمسعودي، وهي تبرئ الخليفة من قتل الخلال، وتضع المسؤولية على أبي مسلم وتجعل من حسد هذا لمركز الخلال ومنافسته له سبباً في تنكيل الأخير به، فيقول الدينوري إن أبا مسلم لما سمع بأن الخليفة «ولى أبا سلمة جميع ما وراء بابه وجعله وزيره وأسند إليه جميع أموره، أرسل أحد قواده وأمره بقتل الخلال»(٥٩). ويقول المسعودي: «لما سمع أبو مسلم بخيانة الخلال، أشار على الخليفة بقتله لأنه «نكث وغيّر وبدل»، ولكن الخليفة رفض، فطلب أبو مسلم من داوود بن علي ومن أبي جعفر حثه على قتله، فرفض أبو العباس قائلاً: «ما كنت لأفسد كثير إحسانه وعظيم بلائه... بزلة كانت منه»، فلما سمع أبو مسلم بذلك «خاف من

(٥٤) انظر: اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩١ ـ ٩٣؛ المقدسي، **البدء والتاريخ (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي** = *Le Livre de la creation et de l'histoire de Motahhar ben Tahir el-Maqdisi*، ج ٦، ص ٧٢ ـ ٧٣، وابن قتيبة، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(٥٥) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٩٠؛ ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١١٢، وابن قتيبة، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣١.

(٥٦) ابن قتيبة، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣١، والطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٤١.

(٥٧) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٨٩.

(٥٨) انظر: الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٤٠ ـ ١٤١، حيث يروى أن أبا العباس خاف أن يكون تصرف الخلال عن ممالأة أبي مسلم، فأرسل أبا جعفر إلى خراسان لأخذ البيعة ولمعرفة رأي أبي مسلم «فإن كان عن رأيه أخذنا لأنفسنا، وإن لم يكن عن رأيه طابت أنفسنا».

(٥٩) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٦٨.

ناحية أبي سلمة أن يقصده بالمكروه، فوجه جماعة من ثقات أصحابه في أعمال الحيلة في قتل أبي سلمة»[٦٠]، ولكن الدينوري غير دقيق في روايته لأنه تجاهل خيانة الخلال، وإن صحت رواية المسعودي فهي تدل على دهاء الخليفة لا على عدم رغبته في قتل الخلال، ولكني أرى فيها أثر الصنعة، إضافة إلى أنها تناقض الروايات الأخرى.

ويجب ألا ننسى أن مركز الخلال كان خطراً على الخليفة، لأنه لم يكن مديناً به لأبي العباس، فيقول ابن قتيبة: «وكان أبو سلمة يظهر الإدلال والقدرة على أمير المؤمنين»[٦١]، بينما يذكر الدينوري أنه «كان ينفذ الأمور من غير مؤامرة»[٦٢]، فكان لزاماً على الخليفة أن يقتله ليتقي شره.

أما علاقة الخليفة بأبي مسلم، فهي أن أبا العباس كان يخاف سلطانه وحب أهل خراسان له، لأنه لم يكن والياً فحسب، وإنما كان زعيماً دينياً ومنقذاً في نظر بعض الخراسانيين[٦٣]، وكان أبو مسلم فوق هذا يتدخل في شؤون الدولة، إذ كان له ممثل في البلاط اسمه أبو الجهم، وكان الخليفة لا يعدو رأيه. يقول الطبري: «وكان أبو الجهم عيناً لأبي مسلم على أبي العباس»[٦٤]، ويضيف ابن قتيبة: «وكان أبو الجهم يكتب إليه (إلى أبي مسلم) بالأخبار، وكان أبو العباس لا يقطع أمراً من دون رأي أبي مسلم»[٦٥]. ويؤيدهما اليعقوبي، إذ يقول: «وكان الغالب عليه (أبي العباس) أبو الجهم بن عطية الباهلي»[٦٦].

سابعاً: أبو العباس وأبو مسلم الخراساني

ولم يبق لأبي العباس إلا اتباع الحيلة للتخلص من أبي مسلم، فحاول أن يستعمل زياد بن صالح والي بلاد ما وراء النهر للقيام ضده، «وأمره إن رأى فرصة أن يثب على أبي مسلم فيقتله»[٦٧]. وثار زياد (سنة ١٣٥هـ/ ٧٥٢ ـ ٣م) على أبي مسلم وأظهر

(٦٠) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ١٩٩.

(٦١) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج ٢، ص ٢٣١.

(٦٢) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٦٨.

(٦٣) W. Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, translated from the original Russian and revised by the author with the assistance of H. A. R. Gibb, E. J. W. Gibb Memorial Series. New Series; V, 2nd ed. (London: Luzac and Co., 1928), p. 196.

(٦٤) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٤٤.

(٦٥) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج ٢، ص ٢٤٧.

(٦٦) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٩٧.

(٦٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٥٢.

«كتاباً من أبي العباس بولايته على خراسان»[٦٨]، ولكن أبا مسلم قضى على ثورته بسرعة.

وبقي أبو مسلم يتدخل في كل شيء حتى «ثقلت وطأته... على أبي العباس، وكثر خلافه وإياه ورده لأمره»[٦٩]. كما إن الخليفة «شكا إلى خالد (البرمكي)... اهتمامه بهيبة الجند... أبا مسلم»، فأشار عليه خالد برأي ظاهره تقوية جيش أبي مسلم وباطنه تحطيم مركزه. وكان رأي خالد أن يأمر الخليفة أبا مسلم بعرض جيشه وإسقاط من لم يكن من أهل خراسان منهم، ففعل ذلك، فأسقط أبو مسلم بشراً كثيراً في يومين متتاليين، ولما جلس في اليوم الثالث قام إليه رجل، فقال: «علام تسقط الناس أيها الرجل منذ ثلاث؟ فقال: أُسقط من لم يكن من أهل خراسان. قال: فابدأ بنفسك، فإنك من أهل أصبهان وقد دخلت في أهل خراسان. فوثب أبو مسلم عن مجلسه، وقال: هذا أمر أحكم بليل... وفطن لما أريد به وبلغ الخبر أبا العباس فسر»[٧٠]. ولم يجرؤ أبو العباس على اتخاذ تدبير حاسم ضد أبي مسلم، فقد أشار عليه أبو جعفر سنة ١٣٢ ـ ١٣٣هـ عند رجوعه من خراسان بقتل أبي مسلم وقال له: «لست بخليفة ما دام أبو مسلم حياً، فاحتل لقتله قبل أن يفسد عليك أمرك، فلقد رأيته وكأنه لا أحد فوقه، ومثله لا يؤمن غدره ونكثه»، فرفض أبو العباس حذراً من الخراسانيين «وقد أشرب قلوبهم حبه واتباع أوامره وإيثار طاعته»[٧١]. ثم أشار عليه ثانية بقتله سنة ١٣٦هـ عندما جاء للحج، فرفض للسبب عينه[٧٢]، وهكذا ترك أبو العباس إنجاز هذه المهمة الصعبة لأخيه.

ثامناً: الإداريات

ويقال إن أبا العباس اتخذ أبا سلمة الخلال وزيراً له، ولكن علينا أن نتذكر أن العباسيين لم يعرفوا آنئذ نظام الوزارة وسلطات الوزير ومناطق نفوذه بصورة واضحة. لذلك يجب ألا نتصور أنه منذ تعيين الخلال تحدّدت سلطة الوزير وتعيّن مركزه وأعماله، وإنما وضع الحجر الأساسي لهذه المؤسسة عند استيزار الخلال، ثم نمت وتدرجت حتى اتخذت شكلها الثابت في أواخر العصر العباسي الأول (كما سنرى).

---

(٦٨) المقدسي، **البدء والتاريخ (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي** = *Le Livre de la creation et de l'histoire de Motahhar ben Tahir el-Maqdisi*، ج ٦، ص ٧٥.

(٦٩) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٩٣.

(٧٠) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(٧١) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٧٣.

(٧٢) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٥٤.

ويجدر بالذكر أن الخلال كان يسمى «وزير آل محمد» قبل بيعة أبي العباس، وأن رجال الدعوة العباسية هم الذين أعطوه هذا اللقب(٧٣)، ولعلهم كانوا متأثرين بالتقاليد الفارسية. ولكني أرى أن منصب الخلال ووظائفه تقارب وظيفة عبد الحميد الكاتب، كاتب آخر خلفاء بني أمية، ويؤيد هذا قول المسعودي: «استخارت بنو العباس تسمية الكاتب وزيراً» لوجود الآية ﴿**واجعل لي وزيراً من أهلي**﴾(٧٤). إذاً لم يحدث العباسيون تغييراً إدارياً جوهرياً بتسمية الخلال وزيراً، ولكن فكرة الوزارة العباسية واشتراك الفرس في السلطان الجديد، أديا بمرور الزمن إلى تكوّن نظام الوزارة الحقيقي، وإلى رسوخه كأساس للإدارة العباسية.

أما ولاة أبي العباس، فكانوا من العائلة المالكة أو من كبار أنصار الدعوة، فقد عيّن:

- أبا جعفر ـ على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان.
- داود بن علي ـ على الحجاز واليمن واليمامة.
- عبد الله بن علي ـ على الشام.
- سليمان بن علي ـ على البصرة وتوابعها البحرين وعمان.
- إسماعيل بن علي ـ على كور الأهواز.
- أبا مسلم الخراساني ـ على خراسان.
- أبا العون ـ على مصر وشمال أفريقية(٧٥).

وجعل إلى خالد بن برمك ديوان الخراج وديوان الجند، فأدخل نظام الدفاتر بأن جعل سجلاتها في دفاتر بعد أن كانت في صحف متفرقة(٧٦).

ولما لم يكن أبو العباس مطمئناً إلى نيات أهل الكوفة، اهتم باختيار مدينة تكون مركزاً له، فنزل في أول الأمر (سنة ١٣٢هـ) في الهاشمية قرب الكوفة، ثم انتقل إلى الحيرة، ومنها إلى الأنبار سنة ١٣٤هـ(٧٧).

---

(٧٣) انظر: الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٨٤.

(٧٤) **القرآن الكريم**، «سورة طه،» الآية ٢٩، والمسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٢٩٤.

(٧٥) انظر: اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٧٩ ـ ٩٢.

(٧٦) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٨٩.

(٧٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٥١.

ويبيّن الدينوري أنه استطاب الأنبار «فابتنى بها مدينة بأعلى المدينة عظيمة لنفسه وجموعه وقسمها خططاً بين أصحابه من أهل خراسان، وبنى لنفسه في وسطها قصراً عالياً. وأقام بتلك المدينة طوال خلافته»(٧٨). وتدعى هذه المدينة بـ «الهاشمية»(٧٩).

ونظم قضية العهد، ففي السنة ١٣٦هـ جعل أخاه أبا جعفر ولي عهده، وبعده ابن أخيه عيسى بن موسى، فأعاد بذلك خطأة الأمويين ووضع سنة غير حسنة للعباسيين.

تاسعاً: انتصار العباسيين في آسيا الوسطى

وفي عهد أبي العباس كانت الصين تتدخل في شؤون آسيا الوسطى وما وراء النهر، وقتلوا أمير الشاش لعدم ولائه لهم، فاستنجد ابنه بالعرب فأنجدوه. وفي تموز/يوليو ٧٥١م (١٣٣هـ) هزم زياد بن صالح الجيش الصيني الذي كان يقوده كاوهسين شي (Kao-Hsien-chih)، ويقول المؤرخون العرب إن القتلى الصينيين كانوا بين ٤٥ و٥٠ ألفاً، وإن الأسرى كانوا بين ٢٠ و٢٥ ألفاً، بينما يدّعي الصينيون بأن عدد الجيش الصيني كان لا يزيد على ثلاثين ألفاً. وكان للمعركة أثر بعيد، إذ إنها قررت أن تسود الحضارة العربية بدل الحضارة الصينية في بلاد ما وراء النهر(٨٠).

عاشراً: كلمة ختامية في أبي العباس

وعلى الرغم من قصر خلافة أبي العباس، فإنه قضى على أكثر خصومه، واستطاع تهدئة قسم من منافسيه مثل العلويين، وبخاصة آل الحسن الذين أكرمهم غاية الإكرام(٨١)، وسايرهم باللطف والدهاء حتى «طفئ أمر محمد (ذي النفس الزكية)»(٨٢)، وحتى حصل من عبد الله بن الحسن على الوعد التالي: «يا أمير المؤمنين لك عهد الله وميثاقه ألا ترى منهما (أي ولديه محمد النفس الزكية وإبراهيم) شيئاً

---

(٧٨) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

(٧٩) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٩٥.

(٨٠) المقدسي، **البدء والتاريخ (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي** = *Le Livre de la creation et de l'histoire de Motahhar ben Tahir el-Maqdisi*، ج ٦، ص ٧٤ ـ ٧٥، و Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, pp. 194-196.

(٨١) انظر: اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٦، وعلي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين** (النجف: [د. ن.]، ١٣٥٣هـ/[١٩٣٤م])، ص ١٢٥.

(٨٢) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩٧.

تكرهه ما كان (محمد) في الدنيا»[٨٣]. وهكذا اكتفى أبو العباس بهذا مع أنه عرف بمراسلات سرية بين محمد ذي النفس الزكية وبعض الناس يدعوهم إلى نفسه[٨٤].

ويظهر أن أبا العباس كان أميل إلى اللين والمساومة من أبي جعفر، كما يظهر من معاملته أبا مسلم والعلويين. وهنا ترد تسميته بـ «السفاح»، وأرى أنها نتيجة التباس بعض المؤرخين بين عبد الله بن محمد أبي العباس، وعمه عبد الله بن علي، فالخليفة أعلن عند بيعته «أنا السفاح المبيح»، وأراد بذلك تهديد أعدائه، ولم يعط هذا اللقب لسفكه الدماء، بينما استحق عمه لقب «السفاح» للمجازر التي عملها. ويؤيد هذا قول ابن قتيبة «ذكروا أن أبا العباس ولّى عمه **عبد الله بن علي الذي يقال له السفاح الشام**»[٨٥]. وعندما يعدد اليعقوبي أولاد علي بن عبد الله بن العباس يذكر **عبد الله الأصغر وهو السفاح**»[٨٦]. وبينما يلقب عبد الله بن علي بالسفاح في ابن قتيبة واليعقوبي، لا نجد أثراً لنسبة هذا اللقب للخليفة في المصادر الأولى كالطبري والجهشياري وابن قتيبة واليعقوبي والدينوري[٨٧]. والمسعودي أول مصدر يذكره[٨٨] وهو يعتمد على القصص أحياناً، ويظهر أن المؤرخين المتأخرين أخذوه عنه[٨٩]، إذ عزّ عليهم أن يدعوا أبا العباس بلا لقب يشيرون به إليه.

ولا يذكر عن أبي العباس التقتيل إلا قليلاً[٩٠]. ويقول المقدسي: «كان أبو العباس يكره الدماء»[٩١]، ما يدل على أنه لم يكن بطبعه سفاكاً. ويذكر ابن قتيبة أن أبا العباس غضب كثيراً حينما قتل عمه عبد الله العالم الزاهد عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وكتب إلى عمه «ألا يقتل أحداً من بني أمية حتى يعلم به أمير المؤمنين»[٩٢]، والظاهر أنه اعتبر القتل ضرورة سياسية لتوطيد ملكه في تلك الظروف الاستثنائية، فحاول تحديده.

---

(٨٣) أبو الفرج الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(٨٤) انظر: المصدر نفسه، ص ١٢٧، واليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٨٥) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج ٢، ص ٢٢٢.

(٨٦) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٦٢.

(٨٧) يسميه الدينوري أحياناً (الإمام). انظر: الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٦٥، ٣٧٢ و٣٧٤.

(٨٨) انظر: المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، **والتنبيه والإشراف**، ص ٢٩٢.

(٨٩) الفخري مثلاً.

(٩٠) انظر: اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٩٤.

(٩١) المقدسي، **البدء والتاريخ (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي** = *Le Livre de la creation et de l'histoire de Motahhar ben Tahir el-Maqdisi*، ج ٦، ص ٩٩.

(٩٢) ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج ٢، ص ٢٣٥.

وكان أبو العباس ذا شخصية قوية، ولعل لهذه أثراً في توليته العهد قبل أخيه أبي جعفر، وكان أكبر منه سناً، ثم إن أبا العباس كان ملازماً لأخيه إبراهيم الإمام، بينما كان أبو جعفر يتجول بين حين وآخر في العراق وفارس، هذا إضافة إلى أن أم أبي العباس كانت عربية.

ويصفه المؤرخون بالحلم وكرم الخلاق، ويصفه المسعودي بأنه كان «سديد الرأي، ماضي العزيمة، كريم الأخلاق، متألفاً للرجال سمحاً بالأموال»(٩٣). ويقول اليعقوبي عنه: «وكان. . . حليماً جواداً، وصولاً لذوي أرحامه»(٩٤)، ويقول الفخري: «وكان كريماً حليماً وقوراً عاقلاً كاملاً كثير الحياء حسن الأخلاق»(٩٥).

توفي أبو العباس في ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٦هـ بالجدري، وخلف تسع جباب، وأربعة أقمصة، وخمسة سراويل، وأربعة طيالسة، وثلاثة مطاريف خز. ولعله لم يترك في بيت المال شيئاً.

---

(٩٣) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٢٩٣.

(٩٤) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٩٧.

(٩٥) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٠٩.

الفصل الرابع

أبــو جعفــر المنصــور(*)

(*) ١٣٦ ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥م

أولاً: مزايا أبي جعفر المنصور

بويع المنصور بالخلافة والمملكة لا تزال مضطربة، والدولة لم تتوطد أركانها ولم يستقر حكمها بعد، لكنه استطاع أن يثبت أركانها بمقدرته النادرة، وبفضل امتداد حكمه مدة تقرب من اثنتين وعشرين سنة.

وقد عرك المنصور وجرب قبل الخلافة، فقد لاقى من المصاعب في شبابه ما جعله يعتاد حياة الخشونة والتعب، ثم كان مشاور أبي العباس وساعده الأيمن، فحارب إبن هبيرة وولي أرمينية وأذربيجان والجزيرة، واشتغل بالإدارة والسياسة قبل مجيئه إلى الحكم.

أما صفته وأخلاقه، فأرى من المفيد أن أثبتها هنا، إذ إنها ذات علاقة بسياسته، فيصفه المسعودي والطبري بأنه كان «طويلاً أسمر نحيفاً خفيف العارضين، يخضب بالسواد»[1]. ويذكر المؤرخون مزاياه، فيقول المسعودي إنه كان «محنك السن حازم الرأي، قد عركته الدهور، وحلت الأيام سطوته، وروى العلم وعرف الحلال والحرام، لا يدخله فتور عند حادثة، ولا تعرض له ونية عند مخوفة، يجود بالأموال حتى يقال هو أسمح الناس، ويمنع في الأوقات حتى يقال هو أبخل الناس، ويسوس سياسة الملوك ويثب وثوب الأسد العاري، لا يبالي أن يحرس ملكه بهلاك غيره»[2]. ويقول الفخري: «كان من عظماء الملوك وحزمائهم وعقلائهم وعلمائهم وذوي الآراء الصائبة فيهم والتدابير السديدة، وقوراً شديد الوقار، حسن الخلق في الخلوة، من أشد الناس احتمالاً لما يكون من عبث أو مزاح، فإذا لبس ثيابه وخرج إلى المجلس العام تغيّر لونه واحمرت عيناه وانقلبت جميع أوصافه»[3].

ووصفه ابن هبيرة، فقال: «ما رأيت رجلاً في حرب أو سلم أمكر ولا أنكر

(١) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **التنبيه والإشراف**، عني بتحقيقه ومراجعته عبد الله اسماعيل الصاوي (القاهرة: مكتبة الشرق الإسلامية، ١٩٣٨)، ص ٢٩٥، وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٣ ج في ٥ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٣٦هـ/١٩١٧م)، ج ٩، ص ٢٩٣.

(٢) المسعودي، المصدر نفسه، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٣) محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ/[١٨٩٩م])، ص ١١٥.

ولا أشد تيقظاً من المنصور، لقد حاصرني تسعة شهور، ومعي فرسان العرب، فجهدنا كل الجهد حتى ننال من عسكره شيئاً، فما قدرنا لشدة ضبطه لعسكره وكثرة تيقظه»(٤). ويبينّ الطبري أنه «لم ير في دار المنصور لهو قط»(٥) لانصرافه بكليته إلى تدبير شؤون المملكة حتى كان يتحاشى التنعم «فكان يلبس الخشن وربما رفع قميصه» حتى قال الإمام الصادق عنه: «الحمد لله الذي ابتلاه بفقر نفسه في ملكه»(٦).

ونستخلص من هذا أن المنصور كان مجرباً حازماً، وقوراً، ظريفاً في مجالسه الخاصة، شديد الدهاء، مثقفاً كثير الحذر، يتحاشى اللذائذ، مهتماً بإدارة الدولة، مدبراً في المال، قوي الإرادة.

ثانياً: المشاكل الداخلية

ولي المنصور والأخطار لا تزال محدقة به، فكان يدرك شجاعة وطموح عمه عبد الله بن علي ومركزه الحصين في جيشه. وإن صحت رواية المسعودي بأن أبا العباس جعل «ولاية العهد لمن قتل مروان، وعبد الله بن علي... هو الذي قتله»(٧)، فإن ذلك قوّى مركزه وألهب طموحه.

وكان المنصور يخشى سلطان أبي مسلم ويسيء الظن به، وتتضح نظرته في هذا الصدد من محاورة جرت بينه وبين أخيه سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٤م حين قدم أبو مسلم للحج. قال أبو جعفر: «يا أمير المؤمنين... اقتل أبا مسلم فوالله إن في رأسه لغدرة. فقال (أبو العباس): يا أخي قد عرفت بلاءه وما كان منه. فقال أبو جعفر: يا أمير المؤمنين إنما كان بدولتنا، والله لو بعثت سنوراً لقام مقامه وبلغ ما بلغ في هذه الدولة... الخ»(٨). فكان من الطبيعي أن يحاول الخليفة التخلص منه.

وهناك العلويون من آل الحسن الذين كانوا يدعون الناس إلى بيعتهم، وقد عرف المنصور ذلك وأنكر تخلف محمد ذي النفس الزكية وإبراهيم عن المجيء إلى ابي العباس لمبايعته، فكانوا ينافسون بني العباس في الملك، إضافة إلى أنهم كانوا ملجأ المعارضة، فحاول الخلال نقل الخلافة إليهم، وراسلهم ابن هبيرة ليبايع لهم، فكان لا بد للخليفة من ضربهم لتثبيت مركزه.

---

(٤) المصدر نفسه، ص ١١٦.

(٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٩٤.

(٦) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١١٥.

(٧) انظر: المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٣، ص ١٨٨.

(٨) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٥٣.

هذا إضافة إلى حذره من عدم ولاء أهل الكوفة للعباسيين ومن كثرة تقلبهم.

وتتضح مهارة المنصور ودهاؤه في ضربه خصومه بعضهم ببعض، وفي محاولته التخلص منهم بأقرب وأسلم وسيلة، فلم يتجنب استخدام المخادعة لأنها أقل كلفة وأنجح من غيرها أحياناً.

ويبالغ البعض في وصف المنصور بالغدر، ولكن علينا أن نتذكر أن القسوة ضرورية لتثبيت دعائم دولة حديثة، وأن بعض ما ينسب إلى المنصور من أعمال الغدر ليس من صنعه كقتل ابن هبيرة، كما إن مجيء أبي مسلم إلى المنصور كان نتيجة التهديد والوعيد، كما سنرى. ولنفصل الآن في المشاكل الداخلية.

١ ـ ثورة عبد الله بن علي

ما كاد عبد الله بن علي والي الشام يسمع بوفاة أبي العباس، حتى خرج على المنصور، فجمع جنده وطلب منهم أن يبايعوه، وادعى أن أبا العباس جعل له العهد حين أرسله لمقاتلة مروان بن محمد[٩].

وقد بايعه القواد والجند، وكان عامة جيشه من أهل الشام، وهم يتمنون اضطراب أحوال العباسيين ويأملون أن ترجع السلطة إليهم[١٠]. ولذلك تبعوا عبد الله على رغم كرههم الشديد فظائعه.

وانتدب المنصور أبا مسلم لقتال عمه، وهو يأمل أن يتخلص من أحدهما، وقد عبّر وزيره أبو أيوب المورياني عن وجهة نظره حين قال: «نحن لأبي مسلم أشد تهمة منا لعبد الله بن علي ألا إنا نرجو واحدة»[١١]. ولم يكن أبو مسلم راغباً في محاربة عبد الله، إذ يبينّ اليعقوبي أنه قال لكاتبه: «امضِ إلى خراسان وأخلِ بين هذين الكبشين، فأيهما غلب. . . كتبنا إليه سمعنا وأطعنا، فرأى أنا قد أنعمنا عليه وعملنا له عملاً»، ولكن كاتبه أقنعه بضد ذلك[١٢]. ثم إن جيش عبد الله كان يضم عدداً كبيراً من الخرسانيين، وكان المنصور يأمل في أن يستميلهم بإرسال أبي مسلم، فيذكر الطبري

(٩) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٥٦؛ أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ٣ ج في ١ (النجف: المكتبة المرتضوية، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، ج ٣، ص ١٠١؛ المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١٦، وابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٢٢.

(١٠) يقول ابن قتيبة إن عبد الله «قرب موالي بني أمية وأطمعهم وسد ثغورهم». انظر: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ٢ ج في ١ (القاهرة: مطبعة النيل، [١٣٣١هـ/ ١٩١٢م])، ج ٢، ص ٢٣٧.

(١١) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٦٠.

(١٢) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٠١ ـ ١٠٢.

أن أبا مسلم قال للخليفة حين أبدى مخاوفه من حركة عمه: «أنا أكفيك أمره إن شاء الله، إنما عامة جنده ومن معه، أهل خراسان، وهم لا يعصونني»[١٣].

ودارت الحرب بين أبي مسلم وعبد الله حوالى خمسة شهور (١٣٦ ـ ١٣٧هـ/ ٧٥٥م)، وإلى القارئ مجمل العوامل التي ساعدت على خذلان جيش عبد الله.

(١) خشي عبد الله أن يخذله الخراسانيون في ساعته الحرجة، فقتل منهم سبعة عشر ألفاً، فأضعف بذلك جيشه. كما أنه شك في إخلاص القائد الكبير حميد بن قحطبة، فلم يقتله بنفسه، بل سرحه بكتاب إلى والي حلب ليقتله، فأحس حميد وهرب إلى أبي مسلم، فخسر عبد الله قائداً محنكاً مطلعاً على خططه ونقاط ضعفه[١٤].

(٢) استطاع أبو مسلم أن يحول عبد الله من مركزه الحصين في نصيبين، إذ تجنب عبد الله وادعى أنه لم يأت لمقاتلته، وإنما جاء والياً على الشام، فخاف الشاميون على أهلها من أبي مسلم، وألحوا على عبد الله باتباعه، فلما فعل بعد تردد رجع أبو مسلم وخندق في نصيبين.

(٣) تمكن أبو مسلم بحركة عسكرية من تمزيق صفوف عبد الله، فضم أكثر الميمنة إلى الميسرة، فلما ضم الشاميون أكثر ميسرتهم إلى ميمنتهم، هجم أبو مسلم بسرعة بالقلب مع بقية الميمنة على ميسرة أهل الشام، فشتت نظامهم ودحرهم في ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٧هـ[١٥].

فهرب عبد الله إلى أخيه سليمان والي البصرة واختفى عنده، ثم سلمه سليمان سنة ١٣٩هـ[١٦] إلى أبي جعفر بعد أن أخذ له أماناً، فسجنه المنصور ثم تخلص منه بعد تسع سنين[١٧].

ثم جاء دور أبي مسلم، ولا بد لنا من أن نتذكر رأي المنصور فيه، كما إن طبيعة الخليفة وتصرفات أبي مسلم أسرعت بتقديم الأزمة، فعند وفاة أبي العباس أرسل أبو مسلم رسالة إلى المنصور يعزيه من دون أن يهنئه بالخلافة، فأنكر المنصور ذلك. ولما

---

(١٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٥٥.

(١٤) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٥٦، واليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠٢.

(١٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٥٨.

(١٦) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٧٢.

(١٧) لمزيد من التفاصيل، انظر: اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠٤؛ المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٣، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠، وأبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، عني بتصحيحه وتحقيقه عبد الله اسماعيل الصاوي (القاهرة: عبد الحميد أحمد حنفي، ١٩٣٨)، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

سار أبو مسلم لقتال عبد الله بن علي، أمر الخليفة الحسن بن قحطبة والي الجزيرة أن يلحق به ويراقب أعماله ففعل، وأخذ يرسل التقارير على تصرفاته، فأثار مخاوف المنصور، وبخاصة عندما كتب إليه: «إني قد ارتبت بأبي مسلم منذ قدمت عليه. إنه يأتيه الكتاب من أمير المؤمنين فيقرأه ثم يلوي شدقه» ويسخر منه[١٨].

وزاد طغيان أبي مسلم بعد انتصاره على عبد الله بن علي، فأراد المنصور أن يجس نبضه، وأن يشعره بأنه أحد عماله، فأرسل إليه رسولاً ليحصي عليه الغنائم، فغضب وقال: «أؤتمن على الدماء ولا أؤتمن على الأموال؟»، وتناول أبا جعفر بلسانه وأراد قتل الرسول لولا تدخل أصحابه ولولا ادعاء الرسول بأنه ما جاء إلا للتهنئة[١٩]. وأخبر المنصور بذلك.

ويظهر أن أبا مسلم «عزم على الخلاف»[٢٠]، فتوجه إلى خراسان، فخاف المنصور من انفصاله، وإذ ذاك يعسر إخضاعه، فحاول صرفه عن خراسان وكتب إليه: «قد وليتك الشام ومصر، فهي خير لك من خراسان. فوجه إلى مصر من أحببت، وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين». وحاول المنصور بهذا أن يضعف مركز أبي مسلم لكره أهل الشام الخراسانيين وبعد أبي مسلم عن أنصاره المخلصين في خراسان، هذا إضافة إلى قربه من مركز الخلافة وسهولة مراقبته. وفطن أبو مسلم لغرض المنصور، فغضب وقال: «وهو يوليني الشام ومصر، وخراسان لي!»، واستمر في سيره نحو خراسان[٢١]. وكان ذلك أول خلاف علني.

٢ ـ التخلص من أبي مسلم الخراساني

وأدرك أبو جعفر أن السيف لا يجدي، فعمد إلى أساليب الدهاء، ودعا أبا مسلم إلى زيارته ليتحدث وإياه في أمور مهمة، فأجاب أبو مسلم، وقد نزل الزاب وهو على الرواح إلى طريق حلوان «أنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه. وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء.

(١٨) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٦٠.

(١٩) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠٢ ـ ١٠٣، والمسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٢٠) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٢٣، وأبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، **كتاب دول الإسلام**، ٢ ج في ١ (حيدر آباد الدكن: [د. ن.، ١٩٠٩])، ج ١، ص ٧٠، حيث يقول: (وسار يريد خراسان ليقيم بها خليفة علوياً). وقد انفرد بهذا الرأي، انظر: الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٦١.

(٢١) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٦١.

فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث تتقارنها السلامة. فإن أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك. **فإن ابيت إلا أن تعطي نفسك إراداتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي**»[٢٢]. إن لهجة أبي مسلم تنم على خلافه وتعاظمه على الخليفة، إذ يتحدى المنصور وينتظر منه أن يعامله معاملة الند للند، كما أنه يهدده بالعصيان إن تعرض له.

ولجأ المنصور بعد ذلك إلى منتهى الدهاء، فوجه إلى أبي مسلم أحد أصدقائه وهو عيسى بن موسى برسالة عتابية استصلاحية قوية من دون عنف، ومما جاء فيها: «قد فهمت كتابك، وليس صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم، فإنما راحتهم في انتشار نظام الجماعة، فلم سويت نفسك بهم؟ فأنت في طاعتك ومناصحتك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به، وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سماع ولا طاعة، وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها إن أصغيت إليها. وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طلبه من الباب الذي فتحه عليك»[٢٣].

ووجه إليه في الوقت نفسه جرير بن يزيد بن عبد الله البجلي «وكان أوحد أهل زمانه وداهية عصره»، وكان له اتصال قوي بأبي مسلم في خراسان[٢٤]، وطلب إليه أن يتبع معه طريقة الترضية والإقناع، فإن فشل فالتهديد بالصورة الآنية: «يقول لك أمير المؤمنين: لست للعباس وأنا بريء من محمد إن مضيت مشاقاً ولم تأتني، وإن وكلت أمرك إلى سواي، ولم آل طلبك وقتالك بنفسي.. حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك»[٢٥].

وظهر دهاء جرير في تأدية رسالته، إذ حث أبا مسلم على إجابة المنصور وحذره من عاقبة الخلاف، وكان مما قاله: «أيها الأمير ضربت الناس عن عرض لأهل هذا البيت ثم تنصرف إلى هذه الحالة! ما آمن أن يعيبك من هنالك ومن ها هنا، وأن يقال طلب بثأر فولى ثم نقض بيعتهم، فيخالفك من تأمن مخالفته إياك وأن الأمر لم يبلغ عند خليفتك ما تكره»[٢٦]. وأكد عيسى بن موسى وجهة نظر جرير، فاستشار أبو مسلم ثقته مالك بن الهيثم، فنصحه بأن يمضي إلى خراسان وأن يستعتب المنصور من

(٢٢) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٦٢.

(٢٣) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٦١ ـ ١٦٢.

(٢٤) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٣، ص ٢١٧.

(٢٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٦٣.

(٢٦) انظر: المصدر نفسه، ج ٩، ١٦٢ ـ ١٦٣، والمسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١٧.

هناك «وتكتب إليه منها سمعك وطاعتك. . . وإلا فهو آخر عهدك بالدنيا إن وقعت عيناه عليك»[٢٧]. ففشلت سياسة الترضية، وعندئذ جاء جرير بالتهديد، فأرعب أبا مسلم وكان يعرف دهاء المنصور وشدته.

ثم قطع المنصور خط الرجعة على أبي مسلم، إذ كتب إلى أبي داوود (خليفة أبي مسلم على خراسان) بالإمارة على خراسان وأطمعه بذلك، فكتب أبو داوود إلى أبي مسلم: «إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه (ﷺ)، فلا تخالف إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه»[٢٨].

وصار أبو مسلم بين نارين، الخليفة من ورائه، وخصمه الجديد أبو داوود في خراسان. وعندئذ اضطر إزاء هذه التهديدات إلى أن يتوجه إلى العراق ليلاقي حتفه مع أنه كان أعرف الناس بسياسة العباسيين آنذاك في القتل على التهمة، وأخيراً قتل في اليوم الخامس من شعبان سنة ١٣٧هـ.

وكانت التهم التي وجهها المنصور إلى أبي مسلم، كما يظهر من الطبري هي:

(١) تقدمه على المنصور في طريق الحج وعدم انتظاره إياه في طريق الرجوع حينما جاءه خبر وفاة أبي العباس.

(٢) قتله سليمان بن كثير الخزاعي من دون استشارة الخليفة، وسليمان هذا من شيوخ الدعوة.

(٣) مراوغته في الخروج إلى خراسان.

(٤) تقديمه اسمه على اسم الخليفة في رسائله، وخطبته لأمينة بنت علي، وانتسابه إلى سليط بن عبد الله بن العباس.

(٥) تدخله في شؤون أبي العباس[٢٩].

وهكذا تخلص المنصور من أعظم خطر مباشر، ويروى أنه قال بعد قتل أبي مسلم بأنه ما تم سلطانه وأمره إلا في ذلك اليوم[٣٠].

ثم أوضح أبو جعفر سبب قضائه على أبي مسلم في خطبة ألقاها في جمع من الناس، فحذرهم عاقبة الخيانة، وقال:

---

(٢٧) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٠٣، والمسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١٧.
(٢٨) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٦٤.
(٢٩) انظر: المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٦٦ ـ ١٦٨.
(٣٠) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٦٦.

«أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تستروا غش الأيمة، فإن من غش إمامه أظهر الله عز وجل سريرته في فلتات لسانه وسقطات أفعاله، وأبداها الله لإمامه الذي بادر بإعزاز دينه به وإعلاء حقه بفلجه. إنا لم نبخسكم حقوقكم ولم نبخس الدين حقه عليكم، إنه من نازعنا عروة هذا القميص أوطأناه ما في هذا الغمد، وإن أبا مسلم بايعناه وبايع لنا، على أنه من نكث بيعتنا فقد أباح دمه لنا، ثم نكث بنا هو فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه»[٣١].

ولعل هذا الخطاب يظهر اهتمام المنصور بالرأي العام على رغم اعتزازه بسلطته المطلقة.

٣ ـ المنصور والعلويون

كان المنصور يخشى طموح بني الحسن، فقد بلغهم أنهم كانوا يشيعون بأن بني هاشم (ومن بينهم المنصور)، اجتمعوا عند اضطراب أحوال الدولة الأموية وبايعوا لمحمد ذي النفس الزكية[٣٢]. كما إن عبد الله بن الحسن أشاع عن ابنه محمد «أنه المهدي الذي بشر به»[٣٣].

وكان محمد محبوباً لدى أهل الحرمين وكلهم مستعد لتأييده، ولا يخفى ما في ذلك من خطر على نفوذ الخليفة الديني وضرر لمركزه. وكان لمحمد دعاة بثهم في الأمصار يدعون له[٣٤].

وما إن تسلم المنصور الخلافة حتى مضى في استطلاع أخبارهم، ولم يكن همه إلا طلب محمد والمساءلة عنه وعما يريد. فدعا بني هاشم وسألهم عنه في خلوة «فكلهم يقول يا أمير المؤمنين إنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل هذا اليوم، وهو يخافك على نفسه ولا يريد خلافاً ولا يحب لك معصية، إلا الحسن بن زيد فإنه أخبره وقال: والله ما آمن وثوبه عليك والله لا ينام عنك»[٣٥].

ولما حج المنصور سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٨م تخلف محمد وإبراهيم ابنا عبد الله عن

---

(٣١) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٣٢) للمقارنة بين روايتين، انظر: ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١١٩، وعلي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين** (النجف: [د. ن.]، ١٣٥٣هـ/[١٩٣٤م])، ص ١٤٣.

(٣٣) المصدران نفسهما، ص ١٢١ و١٤٣ على التوالي.

(٣٤) انظر: المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٢١.

(٣٥) أبو الفرج الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

المثول بين يديه، فازدادت شكوكه، فقبض على عبد الله بن الحسن وسجنه لأنه أبى أن يدله عليهما[٣٦]. وأوعز إلى ولاته في الحجاز بمتابعة آل الحسن والتضييق عليهم. ثـم ولى رياح بن عثمان سنة ١٤٤هـ/ ٧٦٢م (بعد أن عزل واليين تسامحا معهم)، فشدد الضغط عليهم[٣٧]. وفي سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م حجّ المنصور وقبض على آل الحسن وحملهم إلى العراق وسجنهم في قصر ابن هبيرة شرق الكوفة[٣٨].

ثم حاول المنصور أن يفسد خطط محمد، فدس عيوناً له، فمضى هؤلاء يكيدون لمحمد مدعين بأنهم أتباعه ليطلعوا على حقيقة خططه من كثب وليموّهوا الحقائق عليه[٣٩]، فأوحوا اليه بأن دعوته قد عمت الأقطار، يؤيد هذا ما قاله في خطابه حينما ثار في المدينة: «. . . والله ما جئت هذه (المدينة) وفي الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذ لي منه البيعة»[٤٠]. ولم يكتف المنصور بهذا، بل إنه أخذ يكتب إليه على ألسن قواده (أي قواد المنصور) يدعونه إلى الظهور ويعلمونه بأنهم معه. فكان محمد يقول: «لو التقينا مال إلى القواد كلهم»[٤١].

كما إن شدة رياح بن عثمان حالت دون قيام محمد (في المدينة) وإبراهيم (في البصرة) في آن واحد، فاضطر محمد إلى الثورة قبل وقتها المعيّن[٤٢]، وصادف أن كان إبراهيم مصاباً بالجدري[٤٣].

ثار محمد ذو النفس الزكية في أول يوم من رجب سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م[٤٤]، وخطب في أصحابه ورمى أبا جعفر بالطغيان وأضاف: «وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولون والأنصار المواسون، اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت»[٤٥]. فاجتمع معه «خلق عظيم وأتته كتب أهل البلدان ووفودهم»[٤٦] ومن أنصاره «ولد علي وولد جعفر وولد عقيل

(٣٦) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.
(٣٧) انظر: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١٠، والطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٨٨ ـ ١٨٩.
(٣٨) أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص ١٥٦.
(٣٩) انظر: الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٨١.
(٤٠) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٤١) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٠٥.
(٤٢) أبو الفرج الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ١٨٠ ـ ١٨١.
(٤٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٩٨.
(٤٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٤، واليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١١١. وعلى رواية أخرى في الطبري أنه خرج يوم ٢٨ جمادى الآخرة، وكذلك في: أبو الفرج الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ١٨٣.
(٤٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٤٦) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١١.

وولد عمر بن الخطاب وولد الزبير بن العوام وسائر قريش وأولاد الأنصار»[47].

وكما احتج محمد على المنصور أمام أهل المدينة، كذلك احتج المنصور على العلويين حينما أسر بنو الحسن إمام الخراسانيين لأهمية هؤلاء بالنسبة إليه من جهة، ولخوفه من وجود ميول علوية بينهم، فأحب أن يهدئها من جهة أخرى، فقال بالهاشمية: «يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا. وإن ولد علي بن أبي طالب تركناهم والخلافة. . .».

ثم يبيّن فشل محاولات العلويين بعد مقتل علي (رضي الله عنه) لاسترجاع الخلافة ويقول: «ثم وثب بنو أمية علينا، فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا، والله ما كان لهم عندنا ترة يطلبونها، وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم (أي العلويين)، فنفونا عن البلاد، فصرنا مرة في الطائف ومرة في الشام ومرة في السراة، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً، فأحيا الله شرفنا وعزنا بكم وأظهر لنا حقنا، وأصار إلينا ميراث نبينا (صلى الله عليه وسلم)، فقرّ الحق في قراره، وأظهر الله مناره، وأعزّ أنصاره، وقطع دابر القوم الذين ظلموا. . . فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل وثبوا علينا حسداً منهم وبغياً لهم بما فضلنا الله عليهم». ثم ادّعى «فوالله ما بقي منهم (العلويين) شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم له، فاستحللت به دماءهم، وحكمت عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علي»[48]. وهذا الخطاب يوضح لنا نظرة المنصور إلى الخراسانيين، واهتمامه بإقناعهم بحقه ليؤيدوه تأييداً كلياً. وهكذا بدأت حرب الدعاية قبل حرب السلاح.

ثم بدأ المنصور بمراسلة محمد ودعاه إلى حل الخلاف سلمياً ليكسب الوقت، وليضع مسؤولية الحرب على عاتق خصمه، فكتب إليه: ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم. إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم**﴾[49].

«ولك على عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم

---

(٤٧) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٣، ص ٢٢١.

(٤٨) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٤٩) **القرآن الكريم**، «سورة المائدة،» الآيتان ٣٣ ـ ٣٤.

وأموالكم، وأسوغك ما أصبت من دم أو مال، وأعطيك ألف ألف درهم وما سألت من الحوائج، وأنزلك من البلاد حيث شئت، وأن اطلق من في حبسي من أهل بيتك، وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك أو دخل معك في شيء من أمرك، ثم لا أتبع أحداً منهم بشيء كان منه أبداً»[٥٠].

فأجاب محمد ذو النفس الزكية: ﴿**إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين. ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض ونُرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون**﴾[٥١].

«وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت عليّ».

«فإن الحق حقنا، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا وخرجتم له بشيعتنا، وخطبتم بفضلنا، وإن أبانا علياً كان الوصي وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء، ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا. لسنا من أولاد اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء[٥٢]. وليس يمت أحد من بني هاشم بمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة والفضل. . . إن الله اختار لنا، فوالدنا من النبيين محمد، ومن السلف أولهم إسلاماً علي، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة، وأول من صلى القبلة، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة».

«ولك عليّ إن دخلت في طاعتي وأجبت دعوتي أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم أو معاهد، فقد علمت ما يلزمك من ذلك».

«وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجالاً قبلي، فأي الأمانات تعطيني، أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم؟!»[٥٣].

فكتب إليه أبو جعفر: «. . . أما بعد، فقد بلغني كلامك وقرأت كتابك، فإذا

---

(٥٠) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٢١٠.

(٥١) **القرآن الكريم**، «سورة القصص،» الآيات ٤ ـ ٦.

(٥٢) يقصد باللعناء الذين قاوموا الرسول من قريش فأمّنهم أو نفاهم. ويقصد بالطرداء من أسلموا بعد فتح مكة.

(٥٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢١٠ ـ ٢١١.

جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ولا كالعصبة الأولياء لأن الله جعل العم أباً وبدأ في كتابه على الوالدة الدنيا... ولقد بعث الله محمداً وله عمومة أربعة... فأنذرهم ودعاهم، فأجاب اثنان أحدهما أبي، وأبى اثنان أحدهما أبوك، فقط الله ولاقيهما منه، ولم يجعل بينه وبينهما لا ذمة ولا ميراثاً. وأما قولكم إنكم بنو رسول الله، فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم**﴾[٥٤]، ولكنكم بنو ابنته وإنها لقرابة قريبة، ولكنها لا تجوز الميراث ولا ترث الولاية ولا تجوز لها الإمامة، فكيف يورث بها...». ثم يشير إلى النزاع بين بني أمية والعلويين وإلى انتصار العباسيين، فيقول: «ثم خرجتم على بني أمية فقتلوكم وصلبوكم... ونفوكم من البلدان... حتى خرجنا عليهم، فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم»[٥٥].

وتنحصر أهمية هذه المراسلات في إحصائها (بصورة واضحة) حجج كل من العلويين والعباسيين، كما أنها تظهر نظرتهم إلى بعضهم في ذلك الوقت. ثم إنها كتبت لمجرد الدعاية، ولا أعتقد أنه قد قصد منها إقناع الخصم. وأخيراً نلاحظ أن محمداً لم يقل بأن المنصور بايعه سابقاً، كما يفهم من بعض روايات الأصبهاني والفخري.

وبعد فشل المراسلات أرسل المنصور عيسى بن موسى إلى المدينة «في جيش عظيم» على قول اليعقوبي[٥٦]، بينما يذكر الأصبهاني أن عدد الجيش كان أربعة آلاف مقاتل فقط[٥٧]، ولعل المسعودي أدق منهما، إذ يقول إن جيش عيسى كان من «أربعة آلاف فارس وألفي راجل، واتبعه محمد بن قحطبة في جيش كثيف»[٥٨]. إن رغبة المنصور في التخلص من عيسى (الذي كان ولي عهده) حملته لأن يوليه قيادة الجيش، يؤيد هذا ما قاله «لا أبالي أيهما قتل صاحبه»[٥٩]. هذا إضافة إلى الحاجة الملحة إلى قائد هاشمي يتولى أمر الحرب كي يكون له نفوذ معنوي كبير في نفوس الجند[٦٠].

---

(٥٤) **القرآن الكريم**، «سورة الأحزاب،» الآية ٤٠.

(٥٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢١ ـ ٣١.

(٥٦) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١١١.

(٥٧) أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص ١٨٥.

(٥٨) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٣، ص ١٢٢.

(٥٩) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٢١٦.

(٦٠) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٢١ ـ ١٢٢.

وقد ساعد ظهور محمد في الحجاز على النصر العاجل «حيث لا مال ولا رجال ولا سلاح ولا كراع». كما إن المنصور قطع عن خصمه الميرة من الشام(٦١) ومن مصر(٦٢)، وبذلك أقحط الأقوات. وحفر محمد خندقاً حول المدينة اقتداء «بأثر رسول الله»(٦٣)، فأتم بذلك الحصار الاقتصادي عليه. وما إن وصل عيسى إلى المدينة حتى كاتب بعض من تابع محمداً من القرشيين، فتخلوا عنه، فأضعف بهذا صفوف جيش العلويين.

ثم إن محمداً خطب في أصحابه (ويقدرهم الطبري بمائة ألف) عند مقدم الجيش العباسي قائلاً: «أيها الناس إن هذا الرجل قد قرب منكم في عدد وعدة، وقد حللتكم من بيعتي، فمن أحب المقام فليقم، ومن أحب الانصراف فلينصرف»، فأضعف عزيمة أصحابه «فتسللوا حتى بقي في شرذمة ليست بالكثيرة»(٦٤). وبشير اليعقوبي إلى مكيدة دبرتها أسماء إبنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس في المدينة، إذ وجهت مولى لها في خمار أسود جعلته على قصبة، فنصبه على مأذنة المسجد، ووجهت مولى آخر إلى المعسكر العلوي، فصاح «الهزيمة»، فانهزم الناس عن محمد وبقي هو يقاتل حتى قتل(٦٥) في اليوم الرابع عشر من رمضان(٦٦).

ثم ثار إبراهيم بن عبد الله في البصرة في أول شهر رمضان بعد أن مكث فيها مدة يدعو سراً، وقد تجاهل والي البصرة سفيان بن معاوية أمره وأيده في السر(٦٧)، فانتشرت دعوته وكسب أنصاراً بفضل مصاهرته لمحمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان، إذ كان في البصرة كثير من العثمانية، كما انضم إلى دعوته كثير من الزيدية(٦٨). وتحرج موقف المنصور، إذ لم يكن لديه إلا جند قليل (٢٠٠٠ رجل)(٦٩).

كما إن أهل الكوفة كانوا يكاتبون إبراهيم ويتحفزون للوثوب معه، حتى إن المنصور قال: «إن إبراهيم قد عرف وعورة جانبي . . . وإنما جرأه على المسير إليّ من

---

(٦١) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.
(٦٢) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٤٢.
(٦٣) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢١٩.
(٦٤) المصدر نفسه.
(٦٥) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١١١ ـ ١١٢.
(٦٦) أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص ١٩١.
(٦٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٢٥٠.
(٦٨) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٣، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٦٩) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٥٤.

البصرة اجتماع هذه الكور المطلة على عسكر أمير المؤمنين وأهل السواد معه على الخلاف والمعصية»[٧٠].

واضطرب من دون أن يفقد ثباته، فكتب إلى عيسى بن موسى أن يترك المدينة ويسرع لقتال إبراهيم. كما أنه منع الناس في الوقت نفسه من الخروج من الكوفة أو الدخول إليها، وفرض النظام العسكري العرفي فيها، وطلب من بعض رجالاتها تعهداً بسكينة أهلها[٧١].

وكان إبراهيم قد أخضع الأهواز وفارس وفتح مدينة واسط، ثم تقدم نحو الكوفة، فالتقى به عيسى بن موسى عند باخمري (وهي على ستة عشر فرسخاً من الكوفة)[٧٢] في جيش قوامه خمسة عشر ألفاً[٧٣]، فهزم الجيش العلوي، وقتل إبراهيم في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م[٧٤]. وهكذا تخلص المنصور من خطر زلزل ملكه في مركزه وكاد يقضي عليه.

ثالثاً: الحركات الفارسية في عهدي أبي العباس والمنصور

أحيت الدعوة العباسية بعض المبادئ التي كانت متأصلة في إيران قبل الفتح الإسلامي، فلما خاب أمل أصحابها بالعباسيين ظهرت بشكل حركات زندقة متشحة بثوب إسلامي أحياناً، وكشفت عن حقيقتها علناً في بعض الأحيان كما في حركة بهافريد.

١ ـ بهافريد

ظهر بهافريد في نيسابور في خلافة أبي العباس، وادعى النبوة وقال إنه خليفة زردشت فـ «صدق زرادشت»، ولكنه في الحقيقة أدخل بعض التعديلات الأساسية في ديانة زردشت، فأمر أصحابه «بترك الزمزمة عند الطعام... (وبترك) شرب الخمور وأكل الميتة ونكاح الأمهات والبنات والأخوات وبنات الأخ»، وهي جزء من الزردشتية، ولكنه «أمرهم بالسجود لعين الشمس»[٧٥]. ويظهر أنه تأثر بالإسلام، إذ

---

(٧٠) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٥٥.

(٧١) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٤٩.

(٧٢) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٥٧.

(٧٣) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٥٦.

(٧٤) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٥٩.

(٧٥) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*، تحقيق إدوارد ساخو (ليبزج: [د. ن.: ١٨٧٨])، ص ٢١٠.

فرض على أصحابه سبع صلوات منها «صلاة في توحيد الله»(٧٦)، بينما الزرادشتية دين ثنوي. وربما كان مبدأ الرجعة(٧٧) (الذي أخذه من الغلاة) أهم مبادئه. وحدّد المهور بأربعمائة درهم، فلعله تأثر بالأوضاع المالية في خراسان(٧٨).

وقد كثر أتباعه، فيروي ابن النديم أنه «استجاب له خلق كثير»(٧٩)، بينما يقول البيروني «فتبعه خلق كثير من المجوس لما تنبأ»(٨٠). وابن النديم يشير إلى وجود البهافريدية في القرن الرابع الهجري(٨١).

ولكن المجوس قاوموا حركته، واعتبروه منشقاً، واجتمع الموابذة والهرابذة (رجال الدين المجوسي) إلى أبي مسلم في نيسابور، وشكوا إليه أن بهافريد «قد أفسد دين الإسلام ودينهم»، فأرسل أبو مسلم من حمله إليه، فقتله ومن ظفر به من قومه(٨٢).

٢ ـ الحركات الدينية الأخرى

أما الحركات الدينية الأخرى، فقد اعتبرها المؤرخون المسلمون كتطورات لمبادئ مزدك. فابن النديم (كتب سنة ٩٨٧م) يعتبر «الخرمية» و«المزدكية» شيئاً واحداً، وكذا «المحمرة» وأتباع بابك الخرمي، وكذا «المسلمية» أتباع أبي مسلم(٨٣). ويقول البيروني عن المقنع أنه شرع لأتباعه «جميع ما أتى به مزدك»(٨٤). ويعتبر الشهرستاني (١١٢٧م) «المزدكية» و«المسلمية» و«الخرمية» و«المبيضة» من أصل واحد(٨٥). ويرى نظام الملك (١٠٩٢م) في كتابه **سياست نامه** أن «خُرّم» زوجة «مزدك» هربت بعد قتله مع اثنين من أتباعه من المدائن إلى الري، واستمرت تبشر بمبادئ زوجها بنجاح في تلك

---

(٧٦) المصدر نفسه.

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٢١١، و Edward Granville Browne, *Literary History of Persia*, 4 vols. (Cambridge [Eng.]: University Press, 1928-1929), vol. 1: *From the Earliest Times until Firdaws!*, p. 310.

(٧٨) البيروني، المصدر نفسه.

(٧٩) أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم، **الفهرست** (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٤٨هـ/ [١٩٢٩م])، ص ٤٨٣.

(٨٠) البيروني، المصدر نفسه، ص ٢١٠.

(٨١) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤٨٣.

(٨٢) البيروني، المصدر نفسه، ص ٢١٠ ـ ٢١١، و W. Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, translated from the original Russian and revised by the author with the assistance of H. A. R. Gibb, E. J. W. Gibb Memorial Series. New Series; V, 2nd ed. (London: Luzac and Co., 1928), p. 194.

(٨٣) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤٧٩ ـ ٤٨٣.

(٨٤) البيروني، المصدر نفسه، ص ٢١٣.

(٨٥) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل** (طبع حجر)، ص ٨٧ و١٤٧.

المنطقة، فسمي متبعوها بـ «المزدكية» تبع اسم زوجها، وبـ «الخرمية» تبع اسمها، واستمر هذا المذهب حياً في أذربيجان وأرمينيا والديلم وهمذان والدينور وأصفهان والأهواز (أي في شمال وغرب إيران) حتى مجيء أبي مسلم، وكانوا من العناصر المتذمرة التي نجح أبو مسلم بضمها إلى دعوة بني العباس[(٨٦)].

ويقول ابن الجوزي (٥٩٧هـ) إن الخرمية «كان لقباً للمزدكية، وهم أهل الإباحة من المجوس الذين نبغوا في أيام قباذ»[(٨٧)].

ويرجع ظهور هذه الحركات (في الدرجة الأولى) إلى دعاية أبي مسلم، فيقول (صديقي): «لا شك أن الخرمية جميعاً اعتبرته كرئيس ديني»[(٨٨)]، واعتقد بعضهم بإمامته وهم «المسلمية»[(٨٩)]. وربما اعتبروه بعض المقدسين له كأحد خلفاء زرادشت الذي انتظروا رجعته ليملأ الأرض عدلاً «ويعيد دولة المجوس»، و«يستولي على الأرض كلها، ويزيل ملك العرب وغيرهم»، كما يقول البيروني[(٩٠)]. ويقول براون (Browne) «إن الثورات التي قامت في إيران والتي قادها مدعو النبوة كل من: سنباذ المجوسي (٧٥٤ ـ ٧٥٥م)، وأستاذ سيز (٧٦٦ ـ ٧٦٨م)، ويوسف البرم، والمقنع (٧٧٧ ـ ٧٨٠م)، وعلي مزدك (٨٣٣م)، وبابك الخرمي (٨١٦ ـ ٨٣٨م)، كانت على (الأغلب) مرتبطة بذكرى أبي مسلم»[(٩١)].

ولكن هذه الحركات لم تكن إلا مظاهر لوعي الأمة الإيرانية متخذة شكلاً دينياً، فابن الجوزي يبيّن أن الثنوية والمجوس أرادوا إرجاع ممالكهم وإبطال الإسلام، ولكنهم رأوا ضرورة إخفاء مقاصدهم بالتستر بالإسلام[(٩٢)]. ولعل المقريزي يوضح هذا حين يقول: «واعلم أن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسها، بحيث إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد، وكانوا يعدّون سائر الناس عبيداً لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، وكانت العرب عند الفرس

---

(٨٦) نقلاً عن: Browne, *Literary History of Persia.*

(٨٧) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ١٠ ج (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧ ـ ١٣٥٨هـ، [١٩٣٨ ـ ١٩٣٩م؟])، ج ٥، ص ١١٣.

(٨٨) G. H. Sadighi, *Les Mouvements religieux iraniens au IIème et au IIIème siécle de l'hégire* (Paris: Les Presses modernes, 1938).

(٨٩) ابن النديم، **الفهرست**، ص ٤٨٣.

(٩٠) البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*، ص ٢١٣.

(٩١) Browne, *Literary History of Persia*, vol. 1: *From the Earliest Times until Firdawsi*, p. 247.

(٩٢) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ١١٠ ـ ١١١.

أقل الأمم خطراً، تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى. . . وكان قائموهم شنفاذ (سنباذ) وأشنيس والمقنع وبابك وغيرهم، وقبل هؤلاء رام ذلك عمار الملقب خداشاً وأبو مسلم. . . فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام»[٩٣].

وهكذا أراد الفرس التحرر من سلطان الإسلام، فوجدوا في أبي مسلم الرجل المنتظر الذي «يعيد دولة المجوس»، فلما قتل أبو مسلم بقي أثر دعايته بعده. ولكن ذلك الأثر اقتصر على بعض نواحي إيران وعلى بعض الطبقات فقط، وهذا عامل مهم في فشل الحركات الفارسية في العصر العباسي الأول.

ولنستعرض الآن هذه الحركات.

أ ـ ثورة سنباذ

أدى قتل أبي مسلم إلى قيام اضطرابات في شرق إيران وفي غربها، فيروي المسعودي «ولما نما مقتل أبي مسلم إلى خراسان وغيرها من الجبال اضطربت «الخرمية»، وهي الطائفة التي تدعى بـ «المسلمية» القائلون بأبي مسلم وإمامته»[٩٤]. ثم ثار سنباذ[٩٥] (سنة ١٣٧هـ/ ٧٥٥م) في خراسان «وكان خروجه غضباً لقتل أبي مسلم في ما قيل وطلباً بأثره»[٩٦]، وأخبر أتباعه بأن أبا مسلم لم يمت، وأنه تلا اسم الله الأعظم قبل أن يقتل، فصار حمامة بيضاء وطار[٩٧].

وكان سنباذ من أهل قرية من قرى نيسابور يقال لها «أهن»، ويعتبره الطبري مجوسياً[٩٨]، ويرى نظام الملك أنه كان مزدكياً[٩٩]، ولكن المسعودي أدق منهما، إذ يعتبره خرمياً[١٠٠]، ويؤيده الطبري بقوله إن سنباذ «كان من صنائع أبي مسلم»[١٠١].

بدأ سنباذ حركته في نيسابور، ودعا الخرمية والغلاة والمزدكية، فالتف حوله عدد

---

(٩٣) أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، **الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها**، ٥ ج (القاهرة: مكتبة المليجي، [١٩٠٦ ـ ١٩٠٨])، ج ٤، ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٩٤) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٣، ص ٢٢٠.

(٩٥) ويرد اسمه أيضاً: شنفاذ، وسنفاذ ويسميه صديقي (Sadighi): Sonpâdh.

(٩٦) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٦٩.

(٩٧) Browne, *Literary History of Persia*, vol. 1: *From the Earliest Times until Firdaws!*, p. 314.

(٩٨) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٦٩.

(٩٩) انظر: Browne, Ibid., vol. 1: *From the Earliest Times until Firdaws!*, p. 314.

(١٠٠) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٣، ص ٢٢٠.

(١٠١) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٦٩.

كبير منهم، كما أنه دعا أهل طبرستان، فأجابه كثير منهم. ولما كانت طبرستان مجوسية حتى آنئذ، نتبينّ أن في الثورة روحاً قومية وجدت في أبي مسلم رمزها[(١٠٢)]. يدلنا على هذا أن سنباذ بشّر أتباعه بنهاية السلطان العربي[(١٠٣)]، وأعلن أنه يريد الذهاب إلى الحجاز وهدم الكعبة[(١٠٤)]. ويقول الطبري إن عامة أصحاب سنباذ كانوا من أهل مقاطعة الجبال (غرب إيران) عش الخرمية[(١٠٥)]، كما إن أكثرهم كانوا من الفلاحين والزراع، فيقول المسعودي: «وأكثر هؤلاء (الخرمية) في القرى والضياع»[(١٠٦)].

احتل سنباذ نيسابور، ثم تغلّب على الري وقبض على ما كان فيها من خزائن أبي مسلم، ثم استولى على قومس وتقدم نحو همذان، فأرسل إليه المنصور جيشاً قوامه عشرة آلاف جندي بقيادة جهور بن مرار العجلي، فقابله بين همذان والري، وانهزم جيش سنباذ وقتل منه ستون ألفاً، ثم قتل سنباذ بين طبرستان وقومس. وهكذا انتهت حركة سنباذ بعد أن دامت سبعين يوماً فقط على رغم جسامتها[(١٠٧)].

ومما يلاحظ في هذه الحركة:

(١) سرعة تقدم سنباذ وكثرة عدد أتباعه الذين بلغوا بين تسعين ألفاً ومائة ألف[(١٠٨)].

(٢) ولاء الخراسانيين لأبي مسلم، ذلك الولاء الذي استمر في الحركات التالية.

(٣) ضخامة عدد المتذمرين من حكم العباسيين مع كثرة من بقي متمسكاً بالتقاليد المزدكية.

ب ـ ثورة إسحاق الترك

كان إسحاق أحد دعاة أبي مسلم وكان أمياً. وسمي إسحاق الترك لأن أبا مسلم أرسله للدعوة إلى بلاد الترك، فلما قتل ثار إسحاق في بلاد ما وراء النهر، وادعى بأن أبا مسلم محبوس وأنه سيخرج في وقت معين. ويذكر ابن النديم رواية أخرى عن

---

(١٠٢) Sadighi, *Les Mouvements religieux iraniens au II^ème et au III^ème siécle de l'hégire.*

(١٠٣) المصدر نفسه.

(١٠٤) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٢٥، و Browne, *Literary History of Persia*, vol. 1: *From the Earliest Times until Firdaws!*, p. 314.

(١٠٥) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٦٩.

(١٠٦) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٣، ص ٢٢٠.

(١٠٧) انظر: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١، والطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٦٩.

(١٠٨) Sadighi, *Les Mouvements religieux iraniens au II^ème et au III^ème siécle de l'hégire.*

رجل «عالم بأمور المسلمية» مضمونها أن إسحاق «زعم أنه نبي أنفذه زرادشت، وادعى أن زرادشت حي لا يموت. . . وأنه يخرج حتى يقيم الدين لهم». ويظهر أن إسحاق جمع حوله المبيضة (حزب أبي مسلم) عندما ثار. فقبض عليه أبو داوود والي خراسان وقتله، ولكن المبيضة استمروا في الخفاء، إذ كان بعضهم يعيش في قرى بلخ في القرن الثاني عشر للميلاد[١٠٩].

ج ـ الراوندية

وهي فرقة ظهرت بتأثير الدعوة العباسية في إيران، ونشأت (كما يظهر) قبل مجيء أبي مسلم. وكانت تعتقد بالحلول والتناسخ، فيروي المدائني (٢١٥هـ) أن أحد الراوندية «زعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في علي بن أبي طالب، ثم في الأمة واحد بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد وأنهم آلهة»[١١٠]. ومن المحتمل أنهم اعتقدوا بمبادئ مزدك في اشتراكية النساء[١١١].

ثم انقسمت الراوندية إلى فرق متعددة. وتتضارب أقوال مؤرخي العرب في الراوندية، فيطلقونها تارة على الكل وطوراً يطلقونها على الفرع. وإلى القارئ مجمل تاريخ الراوندية كما توصل إليه صديقي[١١٢] (وهو آخر من كتب في هذا الموضوع) فقد بيّن أن الراوندية تفرعت إلى فرعين رئيسيين:

(١) جماعة اعتقدت بانتقال الإمامة من أبي هاشم إلى محمد بن علي بالوصاية. وربما كان هؤلاء من أوائل من انضموا إلى الدعوة العباسية، وهم يدعون «راوندية» نسبة إلى قرية «راوند» (Rivand) قرب نيسابور، ثم انقسموا بعد وفاة أبي العباس إلى ثلاث فرق:

(أ) فرقة اعتقدت بإمامة أبي جعفر وبعده المهدي.

(ب) فرقة أنشأها عبد الله الراوندي، وهؤلاء اعتبروا أبا جعفر الإمام القادر

---

(١٠٩) انظر: ابن النديم، **الفهرست**، ص ٤٨٣؛ Browne, *Literary History of Persia*, vol. 1: *From the Earliest Times until Firdaws!*, pp. 314-315, and Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, pp. 198-199.

(١١٠) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧، و Gerlof van Vloten, *Recherches sur la domination arabe, le chiitisme et les croyances messianiques sous le khalifat des Omayades*, verhandelingen der Koninklijke Akademie van Weteschappen te Amsterdam, Afdeeling Letterkunde, Nieuwe reeks, deel 1; no. 3 (Amsterdam: J. Müller, 1898), p. 48.

(١١١) Browne, Ibid., vol. 1: *From the Earliest Times until Firdaws!*, p. 316.

(١١٢) Sadighi, *Les Mouvements religieux iraniens au IIème et au IIIème siécle de l'hégire.*

القدير، واعتقدوا بأنه إله وأن أبا مسلم نبيه ورسوله. وهؤلاء هم الذين ثاروا على المنصور، وبعد وفاته اعتقدوا بإمامة المهدي.

(ج) فرقة نقلت الإمامة من أبي العباس إلى أبي مسلم. وهؤلاء فريقان: فريق دخل بينهم بعض الخرمية وسموا «المسلمية»، وهم يؤكدون بأن أبا مسلم لم يمت، وأنه نبي على قول بعضهم أرسله زرادشت، بينما يقول البعض الآخر بأن جزءاً إلهياً حلّ فيه وأنه فوق الملائكة. وفريق يسمون بـ «الرزامية» وزعيمهم رزام، وينسبون الخوارق والمعجزات إلى أبي مسلم، ولكنهم يعتقدون بموته.

(٢) جماعة تعتقد بأن الرسول أوصى بالإمامة لعمه العباس، ثم ورثها عنه أولاده. وهذه أحدث من الجماعة الأولى وتسمى «العباسية»، ولكنها تطرفت في تقديسها لأبي مسلم، وقد يكون لادعائه بأنه من نسل سليط بن عبد الله بن العباس أثر في نقل الرئاسة الدينية إليه.

ومما يجدر ذكره في هذا المقام هو أن الفرقة الثانية من المجموعة الأولى تحركت ضد المنصور سنة ١٤١هـ/ ٧٥٨م، ويقول الطبري عن أتباعها: «إنهم كانوا من أهل خراسان على رأي أبي مسلم صاحب دعوة بني هاشم، يقولون في ما زعم بتناسخ الأرواح ويزعمون... أن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور...»(١١٣). وجاء بعضهم من خراسان إلى هاشمية الكوفة مقر المنصور آنئذ «وأتوا قصر المنصور فجعلوا يطوفون به ويقولون هذا قصر ربنا»، فدعا زعماءهم «فحبس منهم مائتين»، فثار الباقون وأخرجوا أصحابهم، وهجموا عليه وكان عددهم جميعاً على قول الطبري ستمائة. وكانت حياة الخليفة في خطر أنقذه منه ثباته وتفاني بعض رجاله الذين قضوا على الثوار(١١٤).

ويكتنف مجيء الراوندية إلى الهاشمية بهذه الصورة الغموض. فيرى الدينوري «أن الراوندية تداعوا وخرجوا يطلبون بثأر أبي مسلم(١١٥)»، ولكني أشك في هذا الرأي لتقادم العهد بين حركتهم ومقتل ذلك الزعيم، هذا بالإضافة إلى قلة عددهم. ثم كيف يثور هؤلاء ضد ربهم لأنه سخط على نبيه؟! ولعل الدينوري يشير في هذا النص إلى المسلمية الذين اشتركوا في الثورات الماضية.

---

(١١٣) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

(١١٤) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٧٤، وابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١١٦.

(١١٥) أحمد بن داود أبو حنيفة الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، تصحيح فلاديمير جرجاس (ليدن: بريل، ١٨٨٨)، ص ٣٨٠.

ويرى دوزي (Dozy) أن الراوندية جاؤوا لتقديم الطاعة للمنصور، فلما تنصّل منهم وسجن زعماءهم لم يعد إلهاً في نظرهم، فثاروا عليه، إذ كانت فكرة الحكم الشرعي عندهم متصلة بفكرة الربوبية، فإذا تنصل الإمام من الألوهية لم يعد حاكماً شرعياً في نظرهم[١١٦]. وقد يكون هذا الرأي أقرب إلى المعقول، إذ تسامح العباسيون مع الراوندية واستفادوا منهم حينما حاولوا جمع الناس حولهم بكل الوسائل، ولكن ما إن ظفروا بالحكم حتى تعذر عليهم قبول مبادئ تنافي أسس الإسلام، وبخاصة أن الخليفة كان حامي الدين، فما كان منه إلا أن نكل بهم حينما جهروا بآرائهم. وليس أدل على أن المنصور كان مستعداً لأن يغضّ عن هذه الآراء طرفاً ما دامت مستورة، من رواية أبي بكر الهذلي في الطبري، إذ سمع رجلاً يقول مشيراً إلى باب الخليفة: «هذا رب العزة، هذا الذي يطعمنا ويسقينا»، فأخبر المنصور بما سمع، فأجابه: «يا هذيلي، يدخلهم الله النار في طاعتنا ويقتلهم أحب إلي من أن يدخلهم الجنة بمعصيتنا»[١١٧].

وهذه الاستفادة من دعوة متطرفة، ثم الانقلاب عليها بعد تحقيق الهدف، لم تقتصر على العباسيين، بل ظهرت في دعوة الفاطميين أيضاً. وخاف المنصور على نفسه بعد هجوم الراوندية عليه، فأنشأ نظام «فرس النوبة»، وهو أن تعد فرس أصيلة مسرجة ملجمة (أمام القصر دائماً) كي تكون جاهزة لاستعمالها عند الضرورة[١١٨].

د ـ دعوة أشناس

قامت في باذغيس (سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م) حركة فارسية دينية أخرى تزعمها أشناس، وغرضها تنفيذ مبادئ بهافريد[١١٩].

هـ ـ ثورة أستاذسير

وفي سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م ثار أستاذسيز في خراسان، وادعى النبوة، فالتف حوله ثلاثمائة ألف، واستطاع أن يبسط نفوذه على خراسان وأزعج الدولة كثيراً، فوجه إليه المنصور قائده القدير خازم بن خزيمة، فانتصر على الثوار بعد جهد

---

(١١٦) نقلاً عن: Browne, *Literary History of Persia*, vol. 1: *From the Earliest Times until Firdaws!*, pp. 316-317.

(١١٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٧٤ ـ ١٧٥. عن موقف العباسيين من الراوندية، انظر: يوليوس فلهاوزن، **الدولة العربية وسقوطها**، نقله إلى العربية يوسف العش (دمشق: مطبعة الجامعة السورية، ١٩٥٦)، ص ٥٦٣ ـ ٥٦٤.

(١١٨) Browne, Ibid., vol. 1: *From the Earliest Times until Firdaws!*, pp. 316-317.

(١١٩) Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, p. 198.

كبير، وقتل منهم سبعين ألفاً في أثناء المعركة، وأربعة عشر ألفاً بعدها. ثم سلم أستاذسيز مع ثلاثين ألفاً من أتباعه، فأرسل إلى بغداد حيث قتل وأطلق سراح أتباعه(١٢٠).

رابعاً: العلاقات الخارجية

ورث العباسيون النزاع مع البيزنطيين، وهو تتمة النضال القديم بين الشرق والغرب منذ حروب الفرس مع اليونان. ونزاعهما أمر لا بد منه لوجود الحدود المشتركة بين الدولتين في الأناضول وأرمينية من جهة، ولوجود مصالح اقتصادية متعارضة ناتجة من الإشراف على التجارة من الشرق إلى الغرب من جهة أخرى. فهناك طريقان بين الهند والصين وآسيا الوسطى من جهة، وأوروبا الشرقية من جهة أخرى، أحدهما بري يمر بإيران والقفقاس، والآخر (وهو جنوبي) بحري ويمر بالبصرة وبغداد والموصل، فكان على التجارة أن تمر بأراض إسلامية وأن تدفع مكوساً للخليفة قبل أن تصل إلى القسطنطينية التي ظلت مركزاً للأسواق التجارية في أوروبا الشرقية.

وقد أدى نقل العاصمة إلى العراق إلى إهمال الأسطول في البحر الأبيض المتوسط، كما أنه أبعد المركز عن الحدود البيزنطية، وأصبحت فكرة الاستيلاء على القسطنطينية حلماً بعيداً لا هدفاً توجه إليه القوى والجهود بصورة منظمة ومستمرة، كما كانت الحالة في العصر الأموي.

لذا استمرت الحروب بين الدولتين على شكل غزوات من دون أن يكون لها هدف معيّن. فكان الخلفاء يرسلون الحملات إلى الأراضي البيزنطية في الصيف كوسيلة لتمرين الجنود على الأعمال العسكرية، ولإشغالهم وتأمين الغنائم اللازمة لهم، وكذلك لنيل مجد الانتصار، ولتأييد فكرة ضرورة مجاهدة خليفة المسلمين للكفار لإظهار دينه، وكانت تلك الغزوات تدعى بـ «الصوائف».

استغل البيزنطيون الفوضى السائدة في أواخر أيام الأمويين، فاسترجعوا جزيرة قبرص سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٦م. وفي السنة ١٣٣هـ/ ٧٥١م تقدم الامبراطور قسطنطين الخامس لحصار ملطية (Miletene) ففتحها وخربها، ثم فتح بولي (كلوديوس) (Claudius) ونقل سكانها إلى أراضي بيزنطية، وارسل قائده الأرمني كوشان (Kushan)

---

(١٢٠) انظر: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٨؛ اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١١٥، و Browne, Ibid., vol. 1: *From the Earliest Times until Firdawsi*, p. 317.

ضد كاماشا (Camacha)، فاحتلها ثم تقدم إلى أرض الروم (Theodosiopolis)، ففتحها وخربها وأسر الحامية، وحمل سكانها إلى الأراضي البيزنطية.

ثم استرجع العرب ملطية وعمروا سورها. وفي سنة ٧٥٩م استرجعوا مدينة الحدث وحصنوها ووضعوا فيها حامية. وفي السنة التالية شغل قسطنطين بالحرب مع البلغار، فدحر العرب القائد الأرمني «بول» وقتلوه وأسروا اثنين وأربعين من قواده. ثم كان تبادل الأسرى في السنة ٧٦٦م. ثم حصن العرب «سميساط» (Assamosata) ونقلوا أهلها إلى فلسطين لاتهامهم بالتآمر مع العدو. وفعلوا مثل ذلك مع أهل مرعش وحصنوها ووضعوا فيها حامية عام ٧٦٩م. وفي سنة ٧٧٠م أخذوا «لوديكا كومباستا» (Loadicae Combusta).

وبعد خمس سنوات سارت حملة عربية برية بحرية وحاصرت «سايس» (Syce)، ولكنها لم تنجح، ورجعت مع كثير من الأسرى، ثم قدم الامبراطور اقتراحات للسلم، فرفضها العباسيون[(١٢١)].

وعني المنصور بتحصين حدوده، وبخاصة تلك التي كانت تواجه البيزنطيين. ويذكر البلاذري أنه «تتبع حصون السواحل ومدنها، فعمرها وحصنها وبنى ما احتاج إلى البناء منها. وفعل مثل ذلك بمدن الثغور»[(١٢٢)].

وبنى المنصور مرعش[(١٢٣)] والمصيصة (Mopsuestia)، ثم حصن أهم ثغور الجزيرة وهي مدينة ملطية. ويروي البلاذري أن المنصور أمر ببنائها سنة ١٣٩هـ/ ٧٥٧م وجمع الصناع من كل بلد للاشتغال فيها، فتم البناء في ستة أشهر. ثم يصف لنا ترتيب سكنى المقاتلة فيها قائلاً: «وبنى للجند الذين أسكنوها لكل عرافة بيتان سفليان وعليتان فوقهما واصطبل»، «والعرافة عشرة نفر إلى خمسة عشر رجلاً»، ثم يستطرد: «وأسكن المنصور ملطية أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لأنها من ثغورهم... ووضع فيها شحنتها من السلاح وأقطع الجند المزارع»[(١٢٤)].

---

(١٢١) انظر: E. W. Brooks, «The Struggle with the Saracens,» in: *Cambridge Medieval History*, planned by J. B. Bury; edited by H. M. Gwatkin [and] J. P. Whitney, 8 vols. (Cambridge, MA: [University Press], 1911-1936), vol. 4: *The Eastern Roman Empire (717-1453)*, edited by J. R. Tanner, C.W. Previté- Orton, and Z. N. Brooke, pp. 121 ff.

(١٢٢) أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٩٠١)، ص ١٦٨.

(١٢٣) المصدر نفسه، ص ١٩٧.

(١٢٤) المصدر نفسه، ص ١٩٥ - ١٩٦.

واهتم المنصور بحرب البيزنطيين، فبنى مدينة الرافقة على الفرات سنة ١٥٥هـ/ ٧٧٢م على طرز مدينة بغداد، ورتب فيها الجند من أهل خراسان، وذلك لتكون مركزه العسكري في غزواته الشمالية(١٢٥).

ولم يكتف المنصور بتحصين الحدود البيزنطية، بل اهتم بحدوده المواجهة للخزر (وهم على شمال غرب بحر قزوين)، فبنى مدينة «كمخ» و«المحمدية» ومدينة «باب واق»، «وجعلها درءاً للمسلمين وأنزلها المقاتلة»، وذلك بعد تحرش الخزر واعتدائهم على أراضي المسلمين(١٢٦).

والتفت المنصور إلى شمال أفريقية، فوجده مشتعلاً بثورات الخوارج والبربر، فوجه إليه يزيد بن حاتم المهلبي سنة ١٥٤هـ/ ٧٧١م في خمسين ألفاً، فاستمر يناضل الثوار حتى سنة ١٥٥هـ (آذار/ مارس ٧٧٢م)، فانتصر عليهم ودخل القيروان وأعاد النظام(١٢٧).

وحاول استرجاع الأندلس، فشجع العلاء بن مغيث اليحصبي أحد وجوه باجة على الثورة، وأمده بقوات في أفريقية، وولاه الأندلس سنة ١٤٦هـ/ ٧٦٣م، فعبر العلاء إلى الأندلس في قوة كبيرة، ونزل ثغر باجة. وانضم إليه خصوم عبد الرحمن، وبخاصة الفهرية واليمانية، واتسعت الثورة، ولكن عبد الرحمن فاجأه ومزق جيشه وقتله، وبذلك انتهت أهم محاولة لاسترجاع الأندلس(١٢٨).

وهناك أخبار لا نعرف مدى دقتها عن تبادل وفود بين المنصور وملك الإفرنج الميروفنجيين (Merovingians)، ففي سنة ٧٦٥م أرسل «ببين» القصير وفداً إلى الخليفة، فرد المنصور بإرسال سفراء وصلوا إلى البلاط الإفرنجي بعد ثلاث سنوات(١٢٩).

---

(١٢٥) المصدر نفسه، ص ١٨٧؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٢٨٨، وقد احتج سكان المحل على المنصور قائلين: «تعطل علينا أسواقنا وتذهب بمعايشنا وتضيق منازلنا».

(١٢٦) انظر: اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٠٧.

(١٢٧) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦، و**دائرة المعارف الإسلامية**، «مادة المنصور، (أبو جعفر)».

(١٢٨) محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس**، ٤ ج (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٣ ـ ١٩٦٠)، ص ١٦٦ ـ ١٧٦.

(١٢٩) M. Reinaud, *Invasions des Sarrazins en France et de France en Savoie, en Piémont et dans la Suisse, pendant les 8ème, 9ème et 10ème siècles de notre ère, d'après les auteurs chrétiens et mahométans* (Paris: Vve Dondey-Dupré, 1836), pp. 89 et 92.

خامساً: الإداريات

١ ـ العاصمة

تنقّل أبو العباس بين ثلاث مَحالَ ولم يضع حلاً مرضياً لمشكلة العاصمة، فلما خلفه المنصور اهتم باختيار مركز لدولته، ولم يرتح إلى هاشمية الكوفة لأنها لم تكن منيعة كما أوضحت فتنة الراوندية. ثم إنها كانت قريبة من الكوفة العلوية التي كان المنصور يخشى أهلها حتى قال عنهم: «أهل الشقاق والنفاق والإغراق في الفتن. . . (وأشار إلى الكوفة) فوالله ما هي بحرب فأحاربها، ولا هي بسلم فأسالمها، فرق الله بيني وبينها. . .»[١٣٠]. ويظهر أن الخليفة أراد أن ينشئ مدينة محصنة لتكون معسكراً لجيشه ومقراً لملكه في آن واحد.

وأخيراً وقع اختيار المنصور على موقع بغداد لأسباب متعددة، منها أنها على دجلة حيث العمارة على جانبي النهر، بينما كانت العمارة على الفرات تقتصر على ضفته الشرقية[١٣١]. ويروي المقدسي أن المنصور استشار بعض سكان منطقة بغداد فقالوا له: «نرى أن تنزل أربع طساسيج (مناطق زراعية)، في الجانب الشرقي بوق وكلواذي، وفي الغربي قطربل وبادوريا، فتكون بين نخل وقرب ماء، فإن أجدب طسوج وتأخرت عمارته كان في الآخر فرج»[١٣٢].

ثم لاحظ وقوعها في وسط العراق «وأنت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله وأنت قريب من البر والبحر والجبل»[١٣٣].

وانتبه لأهمية وقوعها على الطرق التجارية لأن ذلك يكفل تموينها ويسهل الاتصال بينها وبين أنحاء المملكة ويشجع التجارة. فعلى حد تعبير أهل المحل يخاطبون المنصور «تجيك الميرة في السفن الفراتية والقوافل من مصر والشام في البادية وتجيك الآلات من الصين في البحر ومن الروم والموصل في دجلة»[١٣٤]. ويقول اليعقوبي: إن المنصور وصف بغداد بأنها «مشرعة للدنيا، كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة والإبلة والأهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين وما يتصل بذلك فإليها ترقى وبها ترسي،

---

(١٣٠) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٣، ص ٢٢٦.

(١٣١) انظر: كي لسترنج، **بغداد في عهد الخلافة العباسية**، تعريب بشير فرنسيس (بغداد: [د. ن.]، ١٩٣٦)، ص ١٤.

(١٣٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، حققه ميخائيل جان دوغويه (ليدن: [مطبعة بريل]، ١٨٧٦)، ص ١١٩ ـ ١٢٠.

(١٣٣) المصدر نفسه، ص ١٢٠، والطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٢٤٠.

(١٣٤) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٢٠.

وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة وأذربيجان وارمينية مما يحمل في السفن في دجلة، وما يأتي من ديار مضر والرقة والشام والثغر ومصر والمغرب مما يحمل في السفن في الفرات فيها يحط وينزل، ومدرجة أهل الجبل وكورخراسان»(١٣٥).

واهتم بحصانة موقعها، فقد قيل له: «وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر وأخربت القناطر لم يصل إليك عدوك...»(١٣٦). وعنى بتحصينها، فأحاطها بسورين يدور حولهما خندق، وجعل على كل من أبوابها الأربعة برجاً للحرس، ووضع لها أبواباً حديدية محكمة، وزاد في حذره بأن أحاط قصره ودواوينه بسور داخلي ثالث ليكون بمأمن من شغب الرعية(١٣٧).

وأعجب المنصور بطيب هواء المحل وبجودة مناخه(١٣٨) ولاحظ أنه «قليل البق»(١٣٩).

وكان محل بغداد مأهولاً منذ الدور البابلي(١٤٠). وفي الدور الساساني كانت هناك قرية «تقوم بها للفرس في كل سنة سوق عظيمة ويجتمع بها في ذلك الموسم التجار»(١٤١). ولعل هجوم المسلمين على تلك السوق سنة ١٣هـ أدى إلى تدهورها(١٤٢). ولما جاء المنصور وجد ديراً للرهبان النساطرة(١٤٣).

وتختلف الروايات في اشتقاق اسم بغداد، وإن كانت تتفق في أنه فارسي. ويرجح لسترنج أنه يتشكل من كلمتين «بغ»، أي «الله»، و«داذ»، أي «تأسست» أو «تأسيس»، فيكون معنى بغداد «أسسها الله»(١٤٤).

---

(١٣٥) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **البلدان** (النجف: المطبعة الحيدرية، ١٩٣٩)، ص ٦.

(١٣٦) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٢٤٠.

(١٣٧) اليعقوبي، المصدر نفسه، ص ٧ ـ ٩، وأبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، باعتناء سالمون (باريس: [د. ن.]، ١٩٠٤)، ج ١، ص ١٣ ـ ١٤.

(١٣٨) المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص ١١٩.

(١٣٩) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٢٤١.

(١٤٠) لسترنج، **بغداد في عهد الخلافة العباسية**، ص ١٧.

(١٤١) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، **مناقب بغداد**، عني بتصحيحه محمد بهجة الأثري (بغداد: مطبعة دار السلام، ١٣٤٢هـ/[١٩٢٣م؟])، ص ٦ ـ ٧. وهنا رواية أخرى تقول بأن السوق كانت تقوم مرة في الشهر. انظر في: لسترنج، المصدر نفسه، ص ١٩.

(١٤٢) المصدران نفسهما، ص ٩ و١٩ على التوالي.

(١٤٣) اليعقوبي، **البلدان**، ص ٦.

(١٤٤) انظر: لسترنج، المصدر نفسه، ص ١٧ ـ ١٨؛ ابن الجوزي، **مناقب بغداد**، ص ٦، وشهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، [تحقيق] محمد أمين الخانجي، ٨ ج (القاهرة: جمالي وخانجي، ١٩٠٦)، «مادة بغداد».

ولكن فؤاد أفرام البستاني يبيّن أنه ورد في الآثار المسمارية الراجعة إلى الألف الثاني عشر قبل الميلاد اسم «بغددو» أو «بكددو»، ولعل ذلك يشير إلى بغداد[١٤٥]. ويفهم من المسعودي أن الاسم آرامي، لعله يتكون من كلمتين: «ب» مقتضبة عن (بيت)، و«كداد» بمعنى غنم أو قطيع، فيكون معناها بيت الغنم أو الحظيرة. ومما يؤيد هذا التفسير أن البقعة نزلها الآراميون قديماً، كما تدل أسماء عدة أماكن في جوار بغداد كـ «الكرخ» و«الشماسية»[١٤٦]. ويؤيد هذا أيضاً قول الطبري: «وكان في قرن الصراة مما يلي الخلد من الجانب الشرقي قرية ودير كبير كانت تسمى سوق البقر»[١٤٧].

أما تخطيط المدينة على شكل دائري، فهو اتجاه جديد في فن بناء المدن الإسلامية، كما لاحظ مؤرخو العرب. ويرى الخطيب البغدادي أن مزية الاستدارة هي كون المركز على مسافات متساوية من أجزاء الدائرة[١٤٨]. ولعل المنصور تاثر بهندسة العواصم الآسيوية القديمة كمدينة أكبتان ـ محل همدان الحالية ـ عاصمة الميديين، فإنها كانت محاطة بسبعة أسوار لا ترتفع عن بعضها إلا بمقدار المشارف، وكان محل قصر الملك وبيت ماله في وسط السور الداخلي، بينما تقع بيوت الرعية بين الأسوار[١٤٩].

ويظهر الأثر الفارسي في تخطيط المدينة، إذ فصل الخليفة عن الرعية وجعل له مقاماً سامياً يصعب الوصول إليه، كما إن ضخامة القصر والإيوان تظهر روعة الملك. ثم إن فكرة الاستدارة، وحصر بيوت السكان في أحياء منفصلة، يمكن غلقها ليلاً وحراستها بصورة دقيقة، يشير إلى السلطة المطلقة المقتبسة من الفرس، والتي تتعارض مع أرستقراطية العرب الأمويين ومع الديمقراطية الإسلامية على حد سواء.

وليس غرضنا التحدث عن كيفية بناء المدينة، فإن المعلومات عن ذلك متوافرة[١٥٠]، ولكننا نذكر بعض الملاحظات المفيدة.

لقد استغرق بناء المدينة المدورة ما بين عامي ١٤٥ و١٤٩هـ (٧٦٢ و٧٦٦م).

---

(١٤٥) انظر مقالة فؤاد أفرام البستاني في: **المشرق** (بغداد) (١٩٣٤)، ص ٦٦ ـ ٦٩.

(١٤٦) المصدر نفسه، ولسترنج، المصدر نفسه، ص ١٨.

(١٤٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٢٤١.

(١٤٨) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، ج ١، ص ١٠.

(١٤٩) البستاني، في: **المشرق** (١٩٣٤)، ص ٧٦ ـ ٧٨.

(١٥٠) انظر: لسترنج، **بغداد في عهد الخلافة العباسية**؛ اليعقوبي، **البلدان**؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ابن الجوزي، **مناقب بغداد**؛ الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، والطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٢٤٠ وبعدها.

وقبل تخطيطها «وجه المنصور في إحضار المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين»(١٥١)، وجلب إليها الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل (غرب إيران) والكوفة وواسط والبصرة(١٥٢). ثم اختار أربعة من ذوي الفضل والأمانة والمعرفة بالهندسة للإشراف على العمل، ومنهم أبو حنيفة وكان «يتولى القيام بضرب لبن المدينة وعده»، وقد اخترع طريقة عد اللبن بالقصب(١٥٣).

واشتغل في بناء المدينة مائة ألف «من أصناف المهن والصناعات»(١٥٤)، وأنفق عليها أربعة ملايين وثمانمائة وثلاث وثلاثون ألف درهم(١٥٥)، هذا مع رخص الأجور والأسعار، إذ كان «الأستاذ من الصناع يعمل يومه بقيراط (١/٦ درهم) إلى خمس حبات، والعامل البسيط بحبتين إلى ثلاث حبات، وسعر التمر ستين رطلاً بدرهم، والسمن ثمانية أرطال بدرهم، ولحم البقر تسعين رطلاً بدرهم، ولحم الغنم ستين رطلاً بدرهم»(١٥٦).

٢ ـ السياسة الإدارية

قال المنصور: «ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على باب أعف منهم.. هم أركان الملك، **فقاض** لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر **صاحب شرطة** ينصف الضعيف من القوي، والثالث **صاحب خراج** يستقصي ولا يظلم الرعية، فإني عن ظلمها غني، والرابع [ثم عضّ على إصبعه السبابة ثلاث مرات في كل مرة يقول: آه].. صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة»(١٥٧).

ولعل هذا القول يوضح لنا أسس الإدارة الصحيحة في نظر الخليفة، وهو يبيّن اهتمام الخليفة بالعدل قبل كل شيء. ويروي الجهشياري أن المنصور كان يقول: «إن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى، والسلطان لا يصلحه إلا العدل»(١٥٨). ونلاحظ شدة ميله إلى العدل في الحكم من قصة يرويها الجهشياري مؤداها أن الجمالين الذين نقلوا أحمال المنصور في طريق الحج اشتكوا إلى عامل المدينة عليه لأنه لم يعطهم أجوراً

---

(١٥١) اليعقوبي، المصدر نفسه، ص ٦٠٧.

(١٥٢) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١، وابن الجوزي، المصدر نفسه، ص ٨.

(١٥٣) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، ج ١، ص ٨.

(١٥٤) اليعقوبي، **البلدان**، ص ٧.

(١٥٥) نقلاً عن وثيقة رسمية: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٢٦٣، والخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٦ ـ ٧.

(١٥٦) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٦ ـ ٧.

(١٥٧) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٧٩.

(١٥٨) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٣٦.

ترضيهم، فحكم العامل لهم على الخليفة وطلب منه إنصافهم، ففرح المنصور وقال لعامله: «جزاك الله عن دينك وعن بيتك وعن حسبك وعن خليفتك أحسن الجزاء»، وأمر له بعشرة آلاف دينار[١٥٩].

وكان المنصور يشرف بنفسه على كل شيء، فلم تكن لوزرائه سلطة فعلية. ويقول الفخري: «فلم تكن للوزراء في أيامه طائلة لاستبداده برأيه وكفاءته . . . وكانوا (الوزراء) لا يزالون على وجل منه وخوف»[١٦٠]. ويظهر أنه استغنى عن الوزير في سنيه الأخيرة، فيذكر المسعودي أنه بعد أن استوزر وزيرين هما أبان بن عطية الباهلي وأبو أيوب المورياني الخوزي «ثم **استكتب** أبان بن صدقة إلى أن مات»[١٦١].

وهذا الإشراف العام على كل صغيرة وكبيرة أدى بالخليفة إلى كثرة العمل ومواصلته ليل نهار، فكان يشتغل بصورة منتظمة موزعاً أوقاته بين مختلف الشؤون، «فكان شغله في صدر نهاره بالأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر في الخراج ومصلحة معاش الرعية لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم وهدوئهم، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره، فإذا صلى العشاء الآخرة نظر في ما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره في ذلك، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه»[١٦٢].

واهتم باختيار عماله، وكان بعضهم من أهل بيته، فولى إسماعيل بن علي فارس، وسليمان بن علي البصرة، وعيسى بن موسى الكوفة، وصالح بن علي قنسرين والعواصم، والعباس بن محمد الجزيرة، وجعفر بن سليمان المدينة[١٦٣]. وكان بعض عماله عرباً، ومن مشاهيرهم يزيد بن حاتم المهلبي والي أفريقية، ومعن بن زائدة الشيباني والي اليمن، وخازم بن خزيمة والي أرمينية، ومنهم المسيب بن زهير الضبي والحسن بن قحطبة الطائي. كما أنه أكثر من استخدام الموالي وقربهم، فيبيّن السيوطي أن المنصور أول من استعمل مواليه على الأعمال وقدمهم[١٦٤]. ومن هذا يتضح أنه استخدم العرب والفرس في ولاياته[١٦٥].

---

(١٥٩) المصدر نفسه، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

(١٦٠) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٢٨.

(١٦١) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٣، ص ٢١٤.

(١٦٢) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٢٩٩.

(١٦٣) انظر: اليعقوبي، **البلدان**، ج ٣، ص ١١٧ ـ ١١٨.

(١٦٤) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **تاريخ الخلفاء** (القاهرة: [د. ن.]، ١٢٥٧هـ/ [١٨٤١م])، ص ١٣٩.

(١٦٥) انظر: اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١٨.

وكان المنصور شديد المحاسبة لعماله، حتى ثقل عليهم «تفقده العمال ومراعاته لها»(١٦٦). كما أنه فصل القضاء عن سلطتهم «فكان أول من ولى القضاة الأمصار من قبله»(١٦٧). وزاد في كفاءة البريد ليطلع على أحوال الولايات، إذ كان من واجب عمال البريد إضافة إلى نقل الرسائل، التجسس على أعمال كبار الموظفين في مختلف أنحاء الامبراطورية، فكان يطلب من عمال البريد أن يكتبوا إليه يومياً «بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول (ليتلافى المجاعات)، وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم، وبما يعمل به الوالي، وبما يرد بيت المال من المال وكل حدث»(١٦٨). وزاد ارتباط عمال البريد بالعاصمة رأساً في كفاءة هذه المراقبة، فلم يخضعوا لنفوذ الولاة، ولذلك لا نستغرب إذا سمعنا أن المهدي نفسه كان خاضعاً لرقابتهم حينما عيّن والياً على غرب إيران(١٦٩).

أما جيش المنصور، فكانت فيه فرق عربية وأخرى خراسانية، وبين الفرق العربية المضرية واليمانية. وحاول الخليفة أن يحفظ التوازن بين القسمين العربي والخراساني وإن كان جلّ اعتماده على الخراسانيين. واتخذ سياسة تفريق الجيش إلى أحزاب لئلا يجتمعوا عليه، وقد نجح بذلك حتى قال له أحد جلسائه: «قد فرقت بين جندك وجعلتهم أحزاباً، كل حزب منهم يخاف أن يحدث عليك حدثاً فتضربه بالحزب الآخر»(١٧٠). ويظهر أنه أخذ هذه الفكرة في نظر الاعتبار حينما بنى بغداد(١٧١).

ولم يكتف بذلك، بل بنى الرصافة لتكون معسكراً لجيش ابنه المهدي بعد رجوعه من إيران، وليكون لديه في وقت واحد معسكران على جانبي دجلة، فإن فسد عليه أهل جانب ضربهم بالجانب الآخر، كما قال له قثم بن العباس(١٧٢).

وكان المنصور يستعرض جيوشه من حين إلى آخر ليتأكد من كفاءتهم وأهبتهم، وكان أحد عروضه الشهيرة سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٤م(١٧٣).

---

(١٦٦) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٣٩.

(١٦٧) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٢٣.

(١٦٨) انظر: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

(١٦٩) انظر: Theodor Nöldeke, *Sketches from Eastern History*, tr. by John Sutherland Black (London; Edinburgh: A. and C. Black, 1892), p. 131.

(١٧٠) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٩٢.

(١٧١) انظر اليعقوبي، **البلدان**، ص ١٠ ـ ١٣.

(١٧٢) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٩٢.

(١٧٣) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٨٨.

٣ ـ السياسة المالية

يرى الماوردي أن المنصور قام بإصلاح مهم يتعلق بضرائب الأرض في السواد، وذلك أن الخراج كان يؤخذ بالنقد وعلى مساحة الأرض أزرعت أم لم تزرع بحسب النظام الذي سنّه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه). وقد جعل تغيّر الظروف ذلك النظام مضراً بأحوال الزراع «لأن السعر نقص، فلم تف الغلات بخراجها»، كما إن إهمال الأمويين وضغطهم المالي أدى إلى خراب السواد، فوضع المنصور نظام المقاسمة ومضمونه أن يدفع الزارع جزءاً معيناً من محصوله كضريبة(١٧٤)، وبذلك يبقى له ما يكفيه. ويبين البلاذري أن المنصور توفي قبل أن يتم هذا الإصلاح، فقام به المهدي(١٧٥).

وكان المنصور لا يقبل من دافعي الضريبة إلا النقود الجيدة، فيقول ابن الأثير: «وكانت الهبيرية والخالدية واليوسفية أجمل نقود بني أمية، ولم يكن المنصور يقبل في الخراج غيرها»(١٧٦)، وقد جعل جباة الضرائب تحت رقابة دقيقة لئلا يظلموا أو يستأثروا بأموال الدولة.

ولجأ إلى مصادرة العمال الخائنين ليسترجع ما احتجنوه من أموال الدولة، كما فعل بخالد بن برمك بعد أن ولاه مقاطعة فارس، إذ «ألزمه ثلاثة آلاف ألف درهم»(١٧٧).

وكان المنصور قديراً في القضايا المالية يقتصد في النفقات، حتى أشرف على حساب بناء بغداد إلى أصغر التفاصيل. ويصفه بعض المؤرخين بالبخل ويلقبونه «أبا الدوانيق»، ولكن هذا جهل وتحايف منهم، وقد لا يبعد أن يكون هذا من دعايات رجال الحاشية التي تؤثر أن يكون الخليفة مبذراً لكي تستفيد منه(١٧٨).

والحق أنه كان يجود إذا دعت الضرورة، ولكنه لا يعطي إلا إذا اقتضت

---

(١٧٤) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، **الأحكام السلطانية** (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٠٩)، ص ١٧٠، ومحمد بن الحسين أبو يعلى الفراء، **الأحكام السلطانية**، صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي (القاهرة: البابي، ١٣٥٧هـ/[١٩٣٨م])، ص ١٦٩.

(١٧٥) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

(١٧٦) نقلاً عن: أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، **تاريخ الكامل**، ١٢ ج في ٦ (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٠٣هـ/[١٨٨٥م])، وذلك في حوادث سنة ٧٦هـ.

(١٧٧) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٩٩.

(١٧٨) انظر: Nöldeke, *Sketches from Eastern History*, p. 133.

ذلك مصلحة الدولة. وقد يكون المسعودي أدق من غيره حين قال: «كان [المنصور] يعطي الجزيل والخطير ما كان عطاؤه حزماً ويمنع الحقير اليسير ما كان عطاؤه تضييعاً»(١٧٩)، فأكرم أهل الحجاز في إحدى حججه حتى «كانوا يسمون عامه عام الخصب»(١٨٠)، وأعطى عمومته في يوم واحد عشرة آلاف ألف درهم(١٨١)، ولكن يظهر أنه «كان المنع عليه أغلب»(١٨٢). وعلى الرغم من النفقات الكثيرة التي صرفها في بناء بغداد والرافقة، وفي القضاء على الثورات، فقد خلف في بيت المال عند وفاته ستمائة مليون درهم وأربعة عشر مليوناً من الدنانير(١٨٣).

٤ ـ ولاية العهد

واهتم المنصور بأن يجعل ولاية العهد من بعده لابنه المهدي، فاستطاع أن يقدمه على عيسى بن موسى في سنة ١٤٧هـ بعد أن استعمل أساليب الترغيب والإرهاب مع عيسى، فصار العهد للمهدي أولاً، ولعيسى بن موسى من بعده(١٨٤).

ثم توفي المنصور ولم ينس أن يرسم لابنه أسس السياسة الرشيدة في وصية مهمة نقتطف في ما يلي شذرات منها تلقي ضوءاً على سياسة المنصور نفسه.

قال الخليفة لابنه: «. . . وانظر هذه المدينة (أي بغداد)، فإياك أن تستبدل بها فإنها بيتك وعزك. . . قد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وإعطاء الذرية ومصلحة الثغور، فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً.

«وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم وتقدمهم وتكثر الإحسان إليهم وتعظم أمرهم وتوطئ الناس أعقابهم وتوليهم المنابر، فإن عزك عزهم».

«وأوصيك بأهل خراسان خيراً، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن إليهم وتتجاوز

---

(١٧٩) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٢، ص ٢٣٢.

(١٨٠) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١١٦.

(١٨١) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٣٢.

(١٨٢) ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ١١٦.

(١٨٣) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٣٢. ويقول الجهشياري إنه خلف تسعمائة وستين مليوناً من الدراهم.

(١٨٤) انظر: ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

عن مسيئهم وتكافئهم على ما كان منهم وتخلف من مات منهم في أهله وولده.»

«وإياك أن تدخل النساء في مشورتك. . .»[١٨٥].

وقال له: «وانظر إلى مواليك، فأحسن إليهم وقربهم، واستكثر منهم، فإنهم مادتك لشدة إن نزلت بك»[١٨٦]. وأوصاه أن يسيء الظن بالعمال[١٨٧].

سادساً: تقدير

قال ابن الطقطقى عن المنصور بحق أنه «هو الذي أصل الدولة وضبط المملكة ورتب القواعد»[١٨٨]، فأصبح قدوة للخلفاء من بعده. ولم يبالغ الفضل بن سهل وزير المأمون حين قال: «إن هذه الدولة لم تكن قط أعز منها في أيام أبي جعفر»[١٨٩].

ولا شك في أن المنصور ثبت أركان الدولة، ووطد الأمن فيها، وأكد العدل في الأحكام، وقد رجع رفاه البلاد في عهدي المهدي والرشيد بالدرجة الأولى إليه.

وكان موفقاً في انتخاب العاصمة التي أصبحت مدار الحركة السياسية والتجارية ومركزاً للثقافة في الشرق الإسلامي.

ويقول نولدكه إنه ندر أن رأى الشرق من جمع مثل المنصور دهاء إلى تفكير لامع إلى أثر قوي مفيد في تطور الدولة[١٩٠].

ولعل عبقرية المنصور تتضح في مقدرته على ابتكار السياسة المناسبة التي تتطلبها الظروف الخاصة، فبينما اتبع سياسة معينة، نجده يوصي ابنه بأن يدخل فيها بعض تعديلات لأنه اعتقد أن الظروف الجديدة كانت تتطلب ذلك. ولعل العباسيين لم يروا مثل المنصور في بقية حكمهم.

---

(١٨٥) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ١٣٩.

(١٨٦) عبد الرحمن سنبط الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك** (بيروت؛ القدس: مطبعة القديس جاورجيوس، ١٨٨٥)، ص ٦٥.

(١٨٧) جميل نخلة المدور، **حضارة الإسلام في دار السلام**، ط ٢ (القاهرة: مطبعة المؤيد، ١٩٠٥)، ص ٦٨.

(١٨٨) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١١٦.

(١٨٩) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٧٧.

(١٩٠) Nöldeke, *Sketches from Eastern History*, p. 145.

ويمكننا أن نقول إن دور البناء ـ وهو الدور الأول ـ انتهى بوفاة المنصور، فتقررت (بصورة تقريبية) سعة الدولة العباسية وأهمية المناطق التي تشكل منها بالنسبة إلى بعضها. كما رسمت خطوط السياسة العباسية العامة، فصار من خلف من العباسيين يقلد آثار سلفه. ووضع مبدأ اعتماد الخلفاء على القوة والدهاء في توطيد أركان الدولة، وأصبحت سلطة الخليفة مطلقة. وما استخدامه للموالي في وظائف الدولة إلا رمزاً لاستنادهم إلى شخصه في النفوذ، إضافة إلى أنه يشير إلى اشتراك العناصر غير العربية في إدارة شؤون الدولة.

الفصل الخامس

المهـــدي والهــــادي

تمهيد

اهتم المنصور بإعداد ابنه للمنصب الخطير، وقد اعتنى بتدريبه على الحرب والإدارة، فأرسله وعمره خمس عشرة سنة إلى خراسان بصحبة القائد الخبير خازم بن خزيمة لإخماد ثورة الوالي عبد الجبار بن عبد الرحمن سنة ١٤١هـ/ ٧٥٨م، ثم أرسله على رأس حملة إلى طبرستان. وعينه والياً على خراسان والجبال (ومقره الري) بين عامي ١٤٨هـ/ ٧٦٥م و١٥١هـ/ ٧٦٨م، ولما رجع إلى بغداد سنة ١٥١ هـ/ ٧٦٨م على رأس جيش خراساني بنى له الرصافة لتكون معسكراً لجنده.

وكان المهدي على حدّ قول المسعودي: «كريماً . . . بذول الأموال، حسن العفو، كريم الظفر، لا يدخله غفلة عند مخوفة، ولا يتكل في الأمور على غير ثقة وصولاً لأرحامه براً بأهله، فيه لين جانب»[١]. ويصفه الفخري بأنه «كان شهماً فطناً كريماً»[٢]، ويقول الأربلي: «وكان جواداً حليماً»[٣]. وكان حسن الوجه والجسم أسمر طويلاً معتدل القامة جعد الشعر، على عينه اليمنى نكتة بياض[٤].

أولاً: سياسة المهدي
ذو الحجة ١٥٨هـ ـ ٢٢ محرم ١٦٩هـ/ تشرين الأول/ أكتوبر ٧٧٥ ـ ٤ آب/ أغسطس ٧٨٥م

جاء المهدي إلى الحكم بعد انتهاء دور عنيف، ضرب فيه الخصوم من دون رحمة وأريقت فيه الدماء، ونكل بالناس على التهمة، والأمة منهوكة والهدوء سائد على

---

(١) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **التنبيه والإشراف**، عني بتحقيقه ومراجعته عبد الله اسماعيل الصاوي (القاهرة: مكتبة الشرق الإسلامية، ١٩٣٨)، ص ٢٩٧.

(٢) محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ/[١٨٩٩م])، ص ١٣١.

(٣) عبد الرحمن سنبط الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك** (بيروت؛ القدس: مطبعة القديس جاورجيوس، ١٨٨٥)، ص ٦٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٥، والمسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

مضض. وكان الناس كما وصفهم المنصور مخاطباً ابنه: «إني تركت الناس ثلاثة أصناف: فقيراً لا يرجو إلا غناك، وخائفاً لا يرجو إلا أمنك، ومسجوناً لا يرجو الفرج إلا منك»[٥]، فكان من الضروري اتخاذ سياسة تداوي الجروح وتضم ما تفرق، فاتبع المهدي سياسة رشيدة رسمها له أبوه في وصيته. ولعل العبارات التالية من تلك الوصية تلخص بفصاحة هذه السياسة. قال المنصور: «وليتسع إنصافك وينبسط عدلك ويؤمن ظلمك، وواس بين الرعية في الاحتكام... وأهل الدين فليكونوا أعضادك. واعط حظ المسلمين من أموالهم... وتابع أعطياتهم عليهم وعجل بنفقاتهم إليهم سنة سنة وشهراً شهراً. وعليك بعمارة البلاد بتخفيف الخراج واستصلح الناس بالسيرة الحسنة والسياسة الجميلة. وليكن أهم أمورك إليك حفظ أطرافك وسد ثغورك وإكمال بعوثك، وارغب إلى الله عز وجل في الجهاد والمحاماة عن دينه وإهلاك عدوه»[٦].

حاول المهدي قبل كل شيء استرضاء الناس، فنظر في «دفتر القبوض» حيث سجل المنصور ما أخذه من أموال الناس بالمصادرة لجنايات مختلفة، فأحضر كل من أخذ منه مالاً وأرجعه إليه[٧]. ويبيّن الفخري أن المهدي فعل ذلك بوصية من أبيه، إذ قال له: «يا بني، إني قد أفردت كل شيء أخذته من الناس على وجه الجناية والمصادرة وكتبت عليه أسماء أصحابه، فإذا وليت أنت فأعده على أربابه ليدعو لك الناس ويحبوك»[٨].

ثم أمر بإطلاق جميع المسجونين «إلا من كان قبله تباعة من دم أو قتل ومن كان معروفاً بالسعي في الأرض بالفساد أو من كان لأحد قبله مظلمة أو حق»[٩]، أي أنه أطلق المجرمين السياسيين، ولم يكتف بذلك، بل كسى ووصل كل من أطلقه[١٠].

وحاول استرضاء العلويين، فأخرج من كان منهم في السجن «وأمر لهم بجوائز

---

(٥) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ٣ ج في ١ (النجف: المكتبة المرتضوية، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، ج ٣، ص ١٢٨.

(٦) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٧) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٢٧.

(٨) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١١٥.

(٩) أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، **تاريخ الكامل**، ١٢ ج في ٦ (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٠٣هـ/ [١٨٨٥م])، ج ٦، ص ١٥، وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٣ ج في ٥ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م)، ج ٩، ص ٣٢٧.

(١٠) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٢٧.

وصلات وأرزاق دارة»[١١]، كما ساعد استيزاره يعقوب بن داوود على زيادة التفاهم معهم، فرضي عن الحسن بن إبراهيم الذي هرب من السجن واستخدم عدداً لا بأس به من الزيدية[١٢].

واسترضى أهل الحجاز عندما حج سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٧م، فوزع عليهم أموالاً طائلة (ثلاثين مليوناً من الدراهم، ونصف مليون دينار، ومائة وخمسين ألف ثوب)[١٣]. وارجع جرايات الحبوب من مصر إلى الحجاز بعد أن قطعها المنصور عقب ثورة محمد ذي النفس الزكية[١٤]، ووسع المسجد الحرام حتى توسطته الكعبة بعد أن كانت في جانب منه، وحمل إليه الأساطين من مصر، ووسع مسجد الرسول في المدينة[١٥].

ثم اصطفى لنفسه خمسمئة رجل من الأنصار، وأجرى عليهم الأرزاق الواسعة، وجعلهم حرسه الخاص[١٦]. ولعله أراد بهذا إضافة إلى استرضاء الحجازيين حفظ التوازن بين العرب والخراسانيين في الجيش.

وأراد أن يهدئ أهل الشام، فزار دمشق وبيت المقدس، وحاول تسوية الخلاف بين القبائل في بادية الشام وفرق المال بينهم[١٧].

ووصل أقرباءه وبر أهله ومواليه، وقرر لكل واحد من أهل بيته في كل سنة ستة آلاف درهم[١٨]. وأكرم عامة أولاد المهاجرين والأنصار سنة ١٦٤هـ/ ٧٨٠م وفرق فيهم ثلاثة ملايين درهم[١٩].

واهتم بإقامة العدل، فكان يجلس في كل وقت لرد المظالم[٢٠]، وأنصف الناس حتى من نفسه، فيروي الطبري أن رجلاً شكى إلى القاضي (سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م)

---

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣.

(١٣) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣٣٧.

(١٤) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ١٩.

(١٥) انظر: اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(١٦) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٩.

(١٧) جميل نخلة المدور، **حضارة الإسلام في دار السلام**، ط ٢ (القاهرة: مطبعة المؤيد، ١٩٠٥)، ص ١٠٥.

(١٨) الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك**، ص ٦٥.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٧١.

(٢٠) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٣١، وأبو طالب علي بن أنجب بن الساعي، **مختصر أخبار الخلفاء العباسيين** (بولاق: المطبعة الأميرية، ١٣٠٩هـ/ [١٨٩١م])، ص ٢٣.

وكيلاً للمهدي اغتصب ضيعته، فحكم القاضي للرجل، فرد المهدي الضيعة إليه[(٢١)]. وكان يشرك القضاة معه عند النظر في المظالم، ويقول: «لو لم يكن ردي للمظالم الأحياء منهم لكفى»[(٢٢)]، وأراد بذلك إضافة إلى حفظ العدل إحاطة الخلافة بجلال الدين. وبلغ به الاهتمام بالعدل أنه اتخذ بيتاً له شباك حديد تطرح فيه القصص (عرائض الشكايات) وتجمع بعد ذلك لئلا يبقى مجال للتقديم والتأخير في سماع الظلامات[(٢٣)].

ثانياً: المشاكل الداخلية

١ ـ مطاردة الزندقة

يذكر الفخري أن المهدي كان شديداً على أهل **الإلحاد والزندقة**، «لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم»[(٢٤)]. ويبيّن الطبري[(٢٥)] وابن الأثير[(٢٦)] أن الخليفة «جدّ (سنة ١٦٧هـ/ ٧٨٣م) في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق، وقتلهم»، وأنه عيّن عمر الكلواذي لتعقبهم. ويضيف الجهشياري أن الكلواذي «طلبهم فظفر بجماعة منهم»[(٢٧)].

وقبل توضيح ما يقصد بالزندقة نبيّن أصل الاسم.

يقول براون (Browne) إن التفسير الاعتيادي هو أن «زنديق» صفة فارسية معناها «متبع الزند» أو الشروح القديمة للآفستا (كتاب زرادشت) وتفضيلها على النص المقدس، وإن المانوية سموا بالزنادقة لميلهم إلى تأويل وشرح الكتب المقدسة للديانات الأخرى بحسب آرائهم بطريقة تشبه التأويل عند الإسماعيلية في ما بعد[(٢٨)].

ويعطي بيفن (Bevan) تفسيراً أقرب للقبول، وهو أن أبرار المانوية وزهادهم «الذين يفرضون على أنفسهم إيثار المسكنة وقمع الحرص والشهوة ورفض الدنيا والزهد فيها ومواصلة الصوم والتصدق بما أمكن وتحريم اقتناء شيء خلا قوت يوم واحد

---

(٢١) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ١٣.

(٢٢) ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ١٢١، ابن الساعي، المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٢٣) محمد الخضري، **محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية**، ٣ ج (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٢١)، ج ٣: **الدولة العباسية**، ص ٩٩.

(٢٤) ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ١٢١.

(٢٥) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٩.

(٢٦) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ٥١.

(٢٧) أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، عني بتصحيحه وتحقيقه عبد الله اسماعيل الصاوي (القاهرة: عبد الحميد أحمد حنفي، ١٩٣٨)، ص ١٥٦.

(٢٨) انظر: Edward Granville Browne, *Literary History of Persia*, 4 vols. (Cambridge [Eng.]: University Press, 1928-1929), vol. 1: *From the Earliest Times until Firdawsī*, p. 159.

ولباس سنة، وإدامة التطواف في الدنيا للدعوة والإرشاد»[٢٩] كانوا يدعون بالعربية «الصدّيقون»، وواحدهم «صدّيق». ولعل الأصل الآرامي لهذه الكلمة «Saddiquai»، فصارت بالفارسية «زنديك»، ثم عربت إلى «زنديق». وهكذا أطلقت كلمة «زنديق» على المانوي أول الأمر، ثم صارت تستعمل بمعنى ملحد في ما بعد[٣٠].

ويبيّن فون كريمر أن الزنادقة كانوا يعتقدون بالثنوية، وانهم اتبعوا تعاليم ماني. ويثبت بمقارنة وصف الجاحظ لكتب الزنادقة من حيث المحتويات والاعتناء بالورق والخط والتزيين[٣١]، ووصف ابن النديم لكتب المانوية[٣٢]، أن كتب الزنادقة هي كتب المانوية نفسها، ثم يذكر أن ابنة الشاعر الزنديق مطيع بن أياس اعترفت للرشيد بأنها تعلمت مبادئ ماني وقرأت كتاب المانوية المقدس[٣٣].

ويشير ابن النديم إلى رؤساء المانوية المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة[٣٤]. ويتحدث المسعودي عن «عشرة من الزنادقة ممن يذهب إلى قول ماني»[٣٥].

وهكذا نرى أن الزندقة أطلقت على المانوية. ومما ساعد على الاشتباه في أمر المانوية هو أن بعض شعائرها تشبه الشعائر الإسلامية كثيراً، فكان على أتباعها أن يصلوا سبع أو أربع صلوات يومياً، وفي كل صلاة عدة ركعات، وأن يتوضأوا قبل الصلاة. وكان عليهم أن يصوموا أيضاً[٣٦]. ومن جهة أخرى، كانت المانوية تجمع آراء مسيحية وزرادشتية، فكان لها قابلية كبيرة على جلب المسيحيين والزرادشتية إلى صفوفها[٣٧].

ولكن يجب أن نلاحظ أن الزنادقة لم يكونوا جميعاً مانوية، وأن الاسم تدرج

---

(٢٩) انظر: أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*، تحقيق إدوارد ساخو (ليبزج: [د. ن.: ١٨٧٨])، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٣٠) Browne, Ibid., vol. 1: *From the Earliest Times until Firdaws!*, p. 160.

(٣١) انظر: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **الحيوان**، بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ٧ ج (القاهرة: البابي، [١٩٣٨ ـ ١٩٤٥])، ج ١، ص ٥٥.

(٣٢) انظر: أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم، **الفهرست** (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٤٨هـ/[١٩٢٩م])، ص ٤٦٨ ـ ٤٧٠.

(٣٣) انظر: S. Khuda Bukhsh, *Contributions to the History of Islamic Civilization*, 2 vols. (Calcutta: [n. pb.], 1929-1930), vol. 1, pp. 100 ff.

(٣٤) انظر: ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤٦٨ ـ ٤٧٠.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٤٧٣.

(٣٦) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٣، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤.

(٣٧) انظر: ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦.

معناه، فشمل جميع أتباع الديانات الفارسية الذين يظهرون الإسلام، ثم صار يشمل الملحدين أو المتشككين في الدين[٣٨]. ويهمنا في هذا البحث بيان غايات الزنادقة أتباع الديانات القديمة ونظرة الدولة إليهم.

يظهر من المسعودي أن الزندقة أطلقت على ديانات أخرى تقرب من المانوية، وأن دعايات الزنادقة قويت واشتدت في أوائل الدولة العباسية، وظهر أثرها بصورة خاصة في خلافة المهدي. ويروى عن المهدي «أنه أمضى في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه وإعلانهم اعتقاداتهم في خلافته لما انتشر من كتب ماني وابن ديصان ومرقيون مما نقله ابن المقفع وغيره وترجمه من الفارسية والفهلوية إلى العربية، وما صنف في ذلك ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن أياس من تأييد المذاهب المانوية والديصانية والمرقونية، فكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس»[٣٩]. ويتضح من هذا أن الزنادقة كان يقصد بهم بصورة خاصة أتباع ابن ديصان ومرقيون، بالإضافة إلى أتباع ماني.

وقد أصاب المسعودي في إشارته إلى وجود صلة بين تلك المذاهب الثلاثة، ففي الديصانية والمرقونية آراء غنوصية[٤٠] تأثر بها ماني، وبصورة خاصة بآراء ابن ديصان، حتى أن كرستنسن (Christensen) يعتبر ماني تلميذ ابن ديصان في الغنوصية[٤١]. كما إن كلاً من ابن ديصان ومرقيون سبق ماني في المزج بين الزرادشتية والمسيحية وتكوين مذهب خاص من الاثنتين، فيقول البيروني: «وكان ابن ديصان ومرقيون ممن استجاب وسمعا كلام عيسى وأخذا منه طرفاً، ومما سمعا من جهة زرادشت طرفاً، واستنبط كل واحد من كلا القولين مذهباً يتضمن القول بقدم الأصلين، وأخرج كل واحد منهما إنجيلاً نسبه إلى المسيح وكذب ما عداه»[٤٢].

---

(٣٨) Bukhsh, *Contributions to the History of Islamic Civilization,* vol. 1, pp. 105-106.

(٣٩) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٤.

(٤٠) يبيّن بارتولد أن الغنوصية فلسفة وثنية. ويعرف محمد فؤاد كوبريلي «الغنوس» بـ«المعرفة العليا» ذات الأسرار، وتسمى العقائد الدينية والفلسفية المختلفة التي تتصل بـ«غنوس» «الغنوسية». ويذكر أن مذاهب غنوسية مختلفة نشأت من الوثنية والمسيحية واليهودية، واختلطت عقائدها بعضها ببعض. ثم بيّن أن الغنوسية تسعى لإيصال الروح إلى العلاء بإنقاذها من تضييقات العالم الجسماني. انظر: ف. بارتولد، **تاريخ الحضارة الإسلامية**، نقله من التركية إلى اللغة العربية حمزة طاهر؛ قدم له عبد الوهاب عزام (القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٢)، ص ١١ ـ ١٢.

(٤١) Arthur Christensen, *L'Iran sous les Sassanides* (Copenhague: Levin et Munksgaard, 1936), p. 144.

(٤٢) البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*، ص ٢٣ و٢٠٧.

وكانت مذاهب ابن ديصان ومرقيون ثنوية كما يفهم البيروني، ويؤيده المقدسي[٤٣] في ذلك.

وقد لاحظ ابن النديم القرابة بين المانوية من جهة، والديصانية والمرقونية من جهة أخرى، ويبيّن أن العالمين المتقابلين (النور والظلمة) عند ماني جسمانيان، بينما يرى ابن ديصان أن عالم النور معنوي حساس، وعالم الظلمة جسماني غير حساس. ثم يذكر أن المرقونية أقرب المذاهب الثلاثة إلى النصرانية، وأنها تزعم «أن الأصلين النور والظلمة، وأن هاهنا أصلاً ثالثاً مزجها وخالطها»[٤٤]. ويضيف المقدسي أن مرقيون يقول إن الأصل الثالث «يخلق من هذا (أي النور) أو من هذا (أي الظلمة) ليس من جنسهما ولولاه لم يكن من طبعهما إلا التنافر»[٤٥].

هذه نبذة موجزة عن علاقة المانوية بالديصانية والمرقونية، ومن أحب التفصيل فليراجع **الفهرست**، والبيروني، والمقدسي، و**الحضارة الإسلامية** لبارتولد، وكرستنسن.

ولنبيّن الآن مفهوم الزندقة عند المهدي، كما يظهر هذا من قوله لابنه الهادي: «يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة (يعني أصحاب ماني)، فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور، وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقلهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور»[٤٦]. وهذا الوصف ينطبق بصورة عامة على المانوية[٤٧].

وقد اهتم المهدي بأمر الزنادقة، وعين موظفاً خاصاً يدعى «صاحب الزنادقة»[٤٨] لمطاردتهم، ولم يكتف بذلك، بل «أمر الجدليين من أهل البحث من

(٤٣) انظر: المطهر بن طاهر المقدسي، **البدء والتاريخ (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي** = *Le Livre de la creation et de l'histoire de Motahhar ben Tahir el-Maqdisi*، اعتنى بنشره وترجمته من العربية إلى الفرانسوية كلمان هوار، ٦ ج (باريس: ارنست لورو، ١٨٩٩)، ج ٤، ص ٢٤.

(٤٤) ابن النديم، **الفهرست**، ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥.

(٤٥) المقدسي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٥.

(٤٦) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٤٢.

(٤٧) عن المانوية، انظر: Christensen, *L'Iran sous les Sassanides*, pp. 184-192, et Browne, *Literary History of Persia*, vol. 1: *From the Earliest Times until Firdaws!*, pp. 154-166.

(٤٨) علي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني** (القاهرة: الساسي، [د. ت.])، ج ٣، ص ٧٢.

المتكلمين» بتصنيف الكتب في الرد عليهم[٤٩]، فكانت محاربته الزندقة من أظهر أمور حكمه. فهل كان ذلك لمجرد دافع ديني، وهو القضاء على الحركات التي تهدد الدين بصفته خليفة المسلمين، ليرضي بذلك الناس والفقهاء، أم كان لذلك مغزى آخر؟

لا شك في أنه كان للعامل الديني أثره، ولكن هناك سبب سياسي مهم أدى الدور الأول في هذه السياسة، فمع أن القلائل من الزنادقة كانوا عرباً، مثل صالح بن عبد القدوس ومطيع بن أياس، إلا أن عامتهم كانوا فرساً[٥٠]. وقد رأى هؤلاء أن السلطة ما زالت في يد عائلة عربية، وأنهم خاضعون لنفوذ أجنبي، بينما هم يريدون أن تكون الدولة فارسية في كل شيء. وهذا لا يتحقق والإسلام على قوته، فحاولوا إضعافه بنشر الديانات الفارسية القديمة، وسعوا من وراء ذلك لقلب النظام القائم، لأن أساس الخلافة ديني، ولأن اتحاد الدين بالسياسة وتناصرهما كان ركن الدولة العباسية، فالزندقة بإضعافها الدين الإسلامي تضعف سلطان الخليفة وتهدم أساس الدولة وتفسخ مقومات المجتمع[٥١].

وقد أدرك الجاحظ أن الكره للسلطان العربي وللإسلام هو الدافع الأساسي لحركة الزندقة حين قال: «فإنما عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف»[٥٢].

وتتضح نيات هذا الصنف من الزنادقة من التهم الموجهة إلى الأفشين قائد المعتصم بأنه حاول قلب الخلافة والقضاء على سلطان العرب وإعادة الملك الفارسي والدين المجوسي[٥٣].

---

(٤٩) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٤، ص ٢٤٢.

(٥٠) انظر: Bukhsh, *Contributions to the History of Islamic Civilization,* vol. 1, p. 107

(٥١) انظر: أحمد أمين، **ضحى الإسلام**، ٣ ج (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٤)، ج ١، ص ١٣٩ ـ ١٤٤، و Syed Ameer Ali, *A Short History of the Saracens; Being a Concise Account of the Rise and Decline of the Saracenic Power and of the Economic, Social and Intellectual Development of the Arab Nation from the Earliest Times to the Destruction of Bagdad, and the Expulsion of the Moors from Spain* (London: Macmillan, 1934), p. 222.

(٥٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **البيان والتبيين**، حققه وشرحه حسن السندوبي، ط ٢ (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٢)، ج ٣، ص ١٤.

(٥٣) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٧.

ولكن يجب ألا ننسى أن الاتهام بالزندقة كان يستخدم أحياناً كوسيلة للقضاء على الخصوم، كما في حالة ابن المقفع وأبي عبيد الله بن يسار وزير المهدي[٥٤].

وأخيراً نقول إن حركة الزندقة لم تكن منظمة، كما إن مطاردتها في خلافة المهدي كانت نتيجة طبيعية لتطور العلاقات بين العباسيين والعناصر الفارسية المتطرفة، فبعد أن أخمد المنصور الحركات الثورية العلنية، انفسح المجال في خلافة المهدي الهادئة نسبياً لمطاردة العناصر الخطرة التي كانت أكثر تستراً وهدوءاً.

٢ ـ ثورة المقنع (١٥٩ ـ ١٦٣هـ/ ٧٧٦ ـ ٧٨٠م)

اسمه هاشم بن حكيم[٥٥]، وقيل عطاء[٥٦]، وقيل حكيم[٥٧]، من قرية من قرى مرو تدعى «كاوه كيمردان»[٥٨]، وكان في بدء أمره قصاراً في مرو[٥٩]، وقد لقب بـ «المقنع» لأنه تبرقع بحرير أخضر على بعض الروايات[٦٠]، أو لأنه اتخذ وجهاً من ذهب على وجهه لئلا يرى، كما تذكر روايات أخرى[٦١]. وكان سبب تبرقعه في زعمه هو أن الأحياء لا يستطيعون تحمل نوره، بينما يرى المؤرخون

---

(٥٤) انظر: الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٠٤ ـ ١١٠، وابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٥٥) البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*؛ ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، وأبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، **الفرق بين الفرق**، حقق أصوله، وفصله، وضبط مشكله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة: مكتبة المعارف، ١٩١٠)، ص ٢٤٤.

(٥٦) ابن الساعي، **مختصر أخبار الخلفاء العباسيين**، ص ٢٣؛ شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ٢ ج (القاهرة: الحلبي، ١٣١٠هـ/ [١٨٩٢م])، ج ١، ص ٣١٩، وجمال الدين محمد بن ابراهيم الوطواط، **غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة** (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٩٩هـ/ [١٨٨١م])، ص ١٦٩.

(٥٧) وجيه فارس الكيلاني، **الدعاة من المتألهين والمتنبئين والمتمهدين** (القاهرة: المطبعة العربية، ١٩٢٣)، ص ١٢.

(٥٨) البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*، ص ٢١١، والبغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٤٣.

(٥٩) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ١، ص ٣١٩؛ الوطواط، **غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة**، ص ١٦٩، والبغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٤٣.

(٦٠) البيروني، المصدر نفسه، والبغدادي، المصدر نفسه.

(٦١) الوطواط، المصدر نفسه؛ ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ١٣؛ ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٣٢؛ ابن الساعي، **مختصر أخبار الخلفاء العباسيين**، ص ٢٣، وابن خلكان، المصدر نفسه.

المسلمون أنه كان أعور مشوّه الخلقة، فأراد إخفاء نقائصه الجسمية[٦٢].

وكان أصل معتقده الحلول والتناسخ[٦٣]، وادعى الربوبية، فيقول البيروني: «وادعى (المقنع) الإلهية وأنه تجسد، إذ ليس لأحد أن ينظر إليه قبل التجسد»، ولكنه لم يظهر ذلك لجميع أتباعه[٦٤]. وكان يقول: «إن الله خلق آدم فتحول في صورته، ثم في صورة نوح وهلم جراً (يقصد بذلك إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد) إلى أبي مسلم الخراساني، ثم تحول إلى هاشم، وهاشم في دعواه هو المقنع»[٦٥].

واشتهر المقنّع بقمر أظهره للناس، فكانوا يرونه من مسافة شهر من محله[٦٦]. وقد وصفه لنا القزويني في حديثه عن مدينة نخشب، إذ يقول: «نخشب مدينة مشهورة بأرض خراسان. . . وينسب إليها الحكيم بن المقنع (كذا) الذي أنشأ بنخشب بئراً يصعد منها قمراً يراه الناس مثل القمر، واشتهر ذلك في الآفاق والناس يقصدون نخشب لرؤيته ويتعجبون منه. وعوام الناس يحسبونه سحراً، وما كان إلا بطريق الهندسة وانعكاس شعاع القمر لأنهم وجدوا في قعر البير طاساً كبيراً مملوءاً زئبقاً. وفي الجملة قد اهتدى إلى أمر عجيب سار في الآفاق واشتهر حتى ذكره الناس في الأشعار والأمثال وبقي ذكره بين الناس»[٦٧].

والآن لنرى من أين جاء المقنع بآرائه، وما هو سرّ انتشار دعوته؟

يظهر أن حركة المقنع متصلة بدعوة أبي مسلم، فقد كان المقنع من الرزامية، كما يقول البغدادي[٦٨] والشهرستاني، والرزامية، كما بيّنا سابقاً، فرقة من الراوندية «ظهروا بخراسان في أيام أبي مسلم» وبتأثير دعوته، وتطرفوا في تقديسهم له لأنهم اعتقدوا بإمامته، وكانوا يقولون بالحلول والتناسخ، فيذكر الشهرستاني أنهم «ساقوا

---

(٦٢) انظر: البغدادي، المصدر نفسه، ص ٢٢٤، و Browne, *Literary History of Persia*, vol. 1: *From the Earliest Times until Firdawsi*, p. 319.

(٦٣) الوطواط، المصدر نفسه، ص ١٦٩.

(٦٤) البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*، ص ٢١١، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ١٣.

(٦٥) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٣٢، وابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٣.

(٦٦) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ١، ص ٣١٩.

(٦٧) أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، تحقيق وستنفلد عن مخطوطات برلين، غوطا وليدن (ليدن: غوتنجن، ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩)، ص ٣١٢.

(٦٨) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٤٣.

الإمامة إلى أبي مسلم، فقالوا له حظ في الإمامة، وادعوا حلول روح الإله فيه، وقالوا بتناسخ الأرواح»[٦٩].

كما إن المبادئ الخرمية التي كان لها أثر في الحركات الدينية السابقة ظهرت في تعاليم المقنع. ويقول البيروني أن المقنع أباح لأتباعه «الأموال والفروج . . . وشرع لهم جميع ما أتى به مزدك»[٧٠]. ويقول البغدادي: «وكان المقنع قد أباح لأتباعه المحرمات وحرم عليهم القول بالتحريم وأسقط عنهم الصلاة والصيام وسائر العبادات»[٧١].

إذاً كانت مبادئ المقنع في أساسها خرمية فارسية، وصبغتها قومية لأن الرزامية نقلت الإمامة من العباسيين إلى الزعيم الفارسي أبي مسلم، فهي بذلك لا تعترف بإمامة العباسيين أو بسلطتهم. ولهذا نجد أتباع أبي مسلم يؤيدون المقنع ويساهمون في ثورته. ويظهر هذا من قول ابن الأثير: «وظهرت **المبيّضة** ببخارى والصغد معاونين له»[٧٢]، وقول البيروني: «واجتمع إليه المبيضة»[٧٣]، وقول الشهرستاني: «وتابعه مبيضة ما وراء النهر»[٧٤]. وقد كان المعنى الأول العام لكلمة «مبيضة» كل مناوئ للعباسيين، ولكنها اقتصرت في خراسان وما وراء النهر على أنصار أبي مسلم وحزبه الذي ظل يذكر فقد زعيم قومي مقدس[٧٥]. ومما يؤيد هذا الرأي قول الشهرستاني «مبيضة ما وراء النهر . . . من الخرمية دانوا بترك الفرائض وقالوا: الدين معرفة الإمام فقط»[٧٦].

وهكذا اجتمعت المبيضة حول المقنع رغبة في التخلص من سلطان العباسيين. ومما يبيّن أن أساس الحركة سياسي هو اشتراك جميع العناصر الساخطة على العباسيين لأسباب سياسية مختلفة في هذه الثورة، فكان أمير بخارى المحلي (بخارى خدات) يؤيد الثوار، ولهذا السبب قتل بعد فشل الثورة[٧٧]. واستنجد المقنع

---

(٦٩) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل** (طبع حجر)، ج ١، ص ٢٠٦.

(٧٠) البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*، ص ٢١١.

(٧١) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٤٣.

(٧٢) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ١٣.

(٧٣) البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*، ص ٢١١.

(٧٤) الشهرستاني، **الملل والنحل**، ج ١، ص ٢٠٦.

(٧٥) انظر: فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد، **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي**، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، قسم التراث العربي، ١٩٨١)، ص ١٩٨.

(٧٦) الشهرستاني، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٦.

(٧٧) انظر: بارتولد، المصدر نفسه، ص ٩٩ ـ ٢٠٠.

بخاقان الترك، وفعلاً «أعانه كفار الأتراك»، كما يذكر ابن الأثير[٧٨]، بينما يذكر البغدادي أن «الأتراك الخليجية» كانوا معه[٧٩]. ولا شك في أن سبب عداء الأتراك للعباسيين كان سياسياً.

والظاهر أن أتباع المقنع كانوا كثيرين، فيذكر الفخري وابن الأثير «أنه تابعه خلق من ضلال الناس وكانوا يقولون في الحرب: يا أبا هاشم أعنا»[٨٠]. ولما ضيق القائد العباسي سعيد الحرشي عليه الحصار، تخلى عنه ثلاثون ألفاً من أتباعه، واستأمنوا إلى العباسيين، وبقي معه ألفان[٨١].

وعلى رغم أن الثورة بدأت في خراسان، إلا أن المقنع عبر نهر جيحون إلى نواحي كش ونسف، وهناك لاقى نجاحاً كبيراً، وكان مركز المبيضة في منطقة بخارى في مدينة «نرشخ». واعتصم المقنع في أواخر أيامه في قلعة «بسباب» في جوار «كش»[٨٢]، وقد كانت قلعة حصينة محاطة بخندق عظيم[٨٣].

ثم قضي على ثورة المقنع، ولكن نهاية حياته يحوطها بعض الغموض، والأرجح أنه أحرق نفسه في اللحظة الأخيرة، فكان لذلك أثر مهم لأنه «زاد في افتتان من بقي من أصحابه الذين يسمون المبيضة بما وراء النهر»[٨٤] حتى زعموا أنه صعد إلى السماء[٨٥]. ويقول ابن العبري إن المقنع وعد أصحابه «أن تتحول روحه إلى قالب رجل أشمط على برذون أشهب، وأنه يعود إليهم بعد كذا سنة ويملكهم الأرض، فهم بعد ينتظرونه[٨٦].

ولم يقض على مبادئ المقنع بإخماد ثورته، بل بقي كثير من المتمسكين بها. ويشير

---

(٧٨) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ١٣.

(٧٩) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٤٤.

(٨٠) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٣٢، وابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٣.

(٨١) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٧، والبغدادي، المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

(٨٢) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ١، ص ٣١٩، وابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٧.

(٨٣) البغدادي، المصدر نفسه، ص ٢٤٤، حيث يصف تحصينات هذه القلعة.

(٨٤) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٨.

(٨٥) أبو الفرج يوحنا غريغوريوس بن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، وقف على طبعه الأب انطون صالحاني (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٠)، ص ٢١٨.

(٨٦) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٤٤.

الجغرافي العظيم المقدسي (كتب بين عامي ٩٨٥ و٩٩٧م) إلى المبيضة قائلاً: «وبرساتيق هيطل (قرب بخارى) أقوام لهم بيض الثياب، مذاهبهم تقارب مذاهب الزندقة»(٨٧). ويتكلم البغدادي (المتوفى سنة ١٠٣٧م) عن المقنعية، إذ يقول «وأتباعه «المقنع» اليوم في جبال إيلاق (في ما وراء النهر) أكرة أهلها»(٨٨). ويبيّن البيروني (المتوفى سنة ١٠٤٨م) أن أتباع المقنع «بما وراء النهر يدينون بدينه (أي المقنع) مستخفين منتحلين في الظاهر الإسلام»(٨٩). ويفهم من ابن العبري (المتوفى سنة ١٢٨٦م) أن المبيضة كانوا موجودين في بلاد ما وراء النهر في القرن الثالث عشر، وأنهم ينتظرون عودة المقنع(٩٠).

ثالثاً: المهدي والبيزنطيون

وسار المهدي على خطة والده في الاهتمام بتحصين الحدود، ويقول البلاذري: «لما استخلف المهدي استتم ما كان بقي من المدن والحصون وزاد في شحنها»(٩١)، وأبدى نشاطاً في إرسال الحملات ضد البيزنطيين.

وفي سنة ١٥٩هـ/ ٧٧٦م أرسل ليون الرابع حملة ضد سميساط، فأسرت كثيراً من الأسرى، فبعث الخليفة حملة قوية تغلغلت في الأراضي البيزنطية حتى وصلت إلى أنقرة ولكنها لم تفتحها(٩٢).

وفي سنة ١٦٢هـ/ ٧٧٩م تقدم البيزنطيون على الحدث وخربوا سورها واستمروا في التخريب حتى قرب الحدود السورية، فغزا الصائفة الحسن بن قحطبة في السنة نفسها بجيش من ثلاثين ألف مرتزق من العراق والحجاز، وسار من جهة طرسوس، فأكثر التخريب والتدمير في بلاد الروم من دون أن يفتح حصناً(٩٣). وفي السنة

(٨٧) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، حققه ميخائيل جان دوغويه (ليدن: [مطبعة بريل]، ١٨٧٦)، ص ٣٢٣.

(٨٨) البغدادي، المصدر نفسه، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(٨٩) البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*، ص ٢١١.

(٩٠) ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص ٢١٨.

(٩١) أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٩٠١)، ص ١٧٦.

(٩٢) *Cambridge Medieval History*, planned by J. B. Bury; edited by H. M. Gwatkin [and] J. P. Whitney, 8 vols. (Cambridge, MA: [University Press], 1911-1936), vol. 2: *The Rise of the Saracens and the Foundation of the Western Empire*, p. 123.

(٩٣) البلاذري، المصدر نفسه، ص ١٧٦؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣٤٢، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ٣٩.

١٦٣هـ/ ٧٨٠م قرر الخليفة أن يسير بنفسه، فجهز حملة جمع فيها الجند من مختلف أنحاء الامبراطورية، واقام نحواً من شهرين يتهيأ. ثم سار بصحبة ابنه هارون إلى الحدث عن طريق حلب. وكان الحسن بن قحطبة قد أشار عليه بتحصين طرسوس وشحنها بالمقاتلة لأهميتها العسكرية في الحرب مع البيزنطيين، ولكن الخليفة أمره أن يبدأ بمدينة الحدث، فبنيت (وتم بناؤها سنة ٧٨٥م). وتقدم المهدي إلى «البستان» (Arabissus)، ثم رجع تاركاً القيادة لابنه هارون، فسار الأمير إلى حصن «سمالو» وحاصره ثماني وثلاثين ليلة سلمت بعدها الحامية. وبعد هذه الحملة احتل العرب طرسوس وحصنوها بأمر الخليفة[٩٤].

وفي هذه السنة توفي ليون، فحكمت زوجته أغسطة (أيرين) (Irene) كوصية على ابنها الصغير قسطنطين. وفي سنة ١٦٤هـ/ ٧٨١م قاد الصائفة عبد الكبير فردته الجيوش البيزنطية بقيادة ميخائيل لاشيندوراكو (M. Lachandoraco)، فغضب الخليفة على عبد الكبير لجبنه وسجنه. وجهز في السنة التالية (١٦٥هـ/ ٧٨٢م) حملة قوية (من ٩٥,٧٩٣ جندياً) بقيادة الأمير هارون يصحبه الربيع بن يونس، وكانت في الجيش فرق من الشام والجزيرة وخراسان وبلاد العرب.

افتتح هارون حصن «ماجدة»، وتقدم حتى البوسفور، فاضطرت الامبراطورة أغسطة إلى طلب الصلح. وقد عقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات على أن تدفع الإمبراطورة جزية سنوية مقدارها تسعون ألفاً أو سبعون ألف دينار، وأن تجهز الجيش بالأدلاء وتسهل له التموين في طريق الرجعة. ثم حصّن هارون المصيصة وزاد في حاميتها.

وكانت غنائم المسلمين من هذه الغزوة عظيمة حتى بيع البغل بأقل من عشرة دراهم، والدرع بأقل من درهم، والعشرون سيفاً بدرهم. وقد قال مروان بن أبي حفصة يخاطب الرشيد:

أطفت بقسطنطينة الروم مسنداً ... إليها القنى حتى اكتسى الذل سورها

وما رمتها حتى أتتك ملوكها ... بجزيتها والحرب تغلي قدورها[٩٥]

ويظهر أن البيزنطيين نقضوا الصلح سنة ١٦٨هـ/ ٧٨٥م، فاستمرت الحرب من دون جدوى حتى وفاة المهدي.

---

(٩٤) المصادر نفسها، ص ١٧٦؛ ج ١٠، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٥، وج ٦، ص ٤٠ ـ ٤١ على التوالي.

(٩٥) المصادر نفسها، ص ١٧٦؛ ج ١٠، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٥، وج ٦، ص ٤٠ ـ ٤١ على التوالي.

رابعاً: الإداريات

١ ـ الاستقرار السياسي والإداري

كان عهد المهدي عهد استقرار سياسي وإداري، وقد أصاب ابن الطقطقى في قوله: «وفي أيامه ظهرت أبهة الوزارة»[٩٦]، إذ كان الخليفة يعطي وزراءه سلطة واسعة. لقد استوزر أبا عبيد الله بن يسار (١٥٩ ـ ١٦٣هـ) الذي كان كاتبه ونائبه قبل الخلافة[٩٧]، «وفوّض إليه تدبير المملكة وسلم إليه الدواوين»[٩٨]. ثم استوزر بعده يعقوب بن داوود، فسماه (أخاً في الله ووزيراً، وأخرج بذلك توقيعات تثبت في الدواوين»[٩٩]، وفوض الأمور إليه[١٠٠]. ويقول الجهشياري: «وتفرد يعقوب بتدبير الأمور كلها»، ثم يقول في محل آخر: «وغلب (يعقوب) على أمره (أي المهدي) كله ووزارته»[١٠١]، وفيه يقول بشار: «إن الخليفة يعقوب بن داوود»[١٠٢].

ثم نلاحظ بادرة أخرى، وهي أن الدسائس والسعايات أدت دوراً مهماً في تعيين وعزل الوزراء، فعزل إبن أبي يسار لكره الربيع بن يونس له ولدسائسه عليه. وكان ذلك لأسباب شخصية[١٠٣]إذ اعترف الربيع بأن الوزير «ليس بجاهل في صناعته، وأنه لأحذق الناس، وما هو بظنين في ما يتقلده لأنه أعفّ الناس، وليس بمتهم بانحراف عن هذه الدولة لأنه ليس يؤتى من ذلك وليس يتهم في دينه لأن عقده وثيق»[١٠٤]، وكان للربيع أثر كبير في استيزار يعقوب بن داوود[١٠٥].

ثم نكب يعقوب حوالى سنة ١٦٦هـ/ ٧٨٢م[١٠٦]، وهناك رأيان في سبب نكبته: فالرأي السائد يعزو ذلك إلى ميله إلى الطالبيين[١٠٧]، والثاني ينفرد به

---

(٩٦) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٣٣.

(٩٧) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٤٦.

(٩٨) ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ١٣٤.

(٩٩) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٥٥.

(١٠٠) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٧، ص ١٣٦.

(١٠١) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(١٠٢) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٣٦.

(١٠٣) انظر التفاصيل في: المصدر نفسه، ١٣٤ ـ ١٣٥، والجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٥٠ وما بعدها.

(١٠٤) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٥٣.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص ١٥٥، وابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(١٠٦) انظر: الجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٦١.

(١٠٧) المصدر نفسه، ص ٦٠؛ ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ٣٦ ـ ٣٧، والطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٤ ـ ٦.

المسعودي، وهو «أنه كان يرى الإمامة في الأكبر من ولد العباس، وأن غير المهدي من عمومته كان أحق بها»[١٠٨]، ومهما كان الأمر فإن سبب النكبة سياسي يتعلق بسلامة الدولة.

وأخيراً، نجد أن تعيين هؤلاء الوزراء لم يكن كمكافأة على خدمات مهمة سابقة، أو لنفوذ قوي في الدولة، بل لمقدرتهم الكتابية والإدارية.

٢ ـ المالية

يقول الجهشياري: «كان أبو عبيد الله يضبط أمور المهدي، ويشير عليه بالاقتصاد وحفظ الأموال، فلما وزر يعقوب زين له هواه، فأنفق المال وأكب على اللذات»[١٠٩]. وكان المهدي بطبعه مبذراً فـ «بسط يده في إعطاء الأموال»، فكانت النتيجة أن «أذهب جميع ما خلفه المنصور. . . سوى ما جباه في أيامه»[١١٠]، حتى كان بيت المال أحياناً عرضة للإفلاس التام.

ومع هذا، فلم يرهق المهدي رعيته في الجباية، بل حاول أن يرفه عنها، وبخاصة في سنيه الأولى. وإليه ينسب البلاذري إبدال الخراج النقدي على المساحة في الغلات والزروع بنظام المقاسمة[١١١]. ويبيّن الفخري أن ذلك كان بإشارة من وزيره أبي عبيد الله[١١٢]، كما إن ذلك الوزير أشار عليه بتحديد نسبة المقاسمة، فقلل بذلك من عسف الجباة، فجعلت النسبة النصف على ما سقي سيحاً، والثلث على ما سقي بالدوالي (مثل الكرود)، والربع على ما سقي بالدواليب (كالنواعير)[١١٣]. وأما خراج الكرم والنخل والشجر، فإنه بقي على النظام القديم، ولكنه روعي فيه القرب من الأسواق والموانئ، بالإضافة إلى جودة الحاصل أو رداءته[١١٤].

ولما أرسل المهدي خالداً البرمكي والياً على فارس «قسط الخراج على أهلها

---

(١٠٨) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٣، ص ٢٣٦.

(١٠٩) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٥٩.

(١١٠) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٧٦.

(١١١) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

(١١٢) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٣٤.

(١١٣) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، **الأحكام السلطانية** (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٠٩)، ص ١٧٠، ومحمد بن الحسين أبو يعلى الفراء، **الأحكام السلطانية**، صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي (القاهرة: البابي، ١٣٥٧هـ/[١٩٣٨م])، ص ١٦٩.

(١١٤) المصدران نفسهما.

ووضع عنهم خراج الشجر وكانوا يلزمون له خراجاً ثقيلاً»[115].

وحاول الخليفة أن يخفف من مساوئ طرق الجباية، فكتب إلى جميع العمال «برفع العذاب عن أهل الخراج»[116].

ولكن المهدي زاد في أواخر أيامه على ما يظهر نسبة المقاسمة، فجعلها ٦٠ في المئة، كما أنه أحدث ضريبة على الأسواق. ويروي اليعقوبي: «وأمر المهدي بجباية أسواق بغداد، وجعل عليها الأجرة، فكان أول ما جبيت أسواق بغداد للمهدي»[117]. وربما كان لإفلاس الخزينة في سني حكمه الأخيرة أثر في ذلك.

٣ ـ التنظيمات الإدارية

توسعت الدواوين على ما يظهر وكثر عددها في الفترة المنصرمة من تأسيس الدولة إلى أيام المهدي، فأدى ذلك إلى إنشاء دواوين «الأزمة»، وهي دواوين صغيرة للإشراف على دواوين الدولة. ويذكر الطبري: «وأول من عمل ديوان الزمام عمر بن بزيغ في خلافة المهدي، وذلك أنه لما جمعت له الدواوين تفكر، فإذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان، فاتخذ دواوين الأزمة وولي كل ديوان رجلاً»[118]، وكان ذلك سنة ١٦٢هـ/ ٧٧٨م[119].

ويقول الجهشياري: «وقلد (المهدي) عمر بن بزيغ دواوين الأزمة في سنة اثنتين وستين ومئة، وقد قيل إن المهدي أول من أحدثها»[120]. ثم يبيّن الجهشياري أن المهدي أنشأ في سنة ١٦٨هـ/ ٧٨٤م ديوان «زمام الأزمة»[121]. وهذه التنظيمات تتمشى مع تطور الدولة العباسية واتجاهها نحو المركزية القوية في الإدارة.

وأراد المهدي أن يتأكد من وصول رسائله إلى العمال بصورة منتظمة، فأمر يعقوب بن داوود سنة ١٦١هـ/ ٧٧٧م «بتوجيه الأمناء في جميع الآفاق، فعمل به، فكان لا ينفذ للمهدي كتاب إلى عامل، فيجوز حتى يكتب يعقوب بن داوود إلى أمينه وثقته بإنفاذ ذلك»[122].

---

(١١٥) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٥٦.

(١١٦) المصدر نفسه، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(١١٧) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٣٤.

(١١٨) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ١٠١.

(١١٩) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣٤٢.

(١٢٠) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٤٦.

(١٢١) المصدر نفسه، ص ١٦٦ ثم يضيف: «احسب أن من ذكر أن المهدي أول من أحدث الأزمة إنما أراد أزمة الأزم»، ولكننا لا نجد أية إشارة إلى وجود دواوين الأزمة في خلافة المنصور.

(١٢٢) الطبري، المصدر نفسه، ص ٣٢٩.

ثم جعل يوم الخميس يوم عطلة للكتّاب لقضاء شؤونهم وللراحة، بينما كانت الجمعة عطلة للعبادة والصلاة. وقد استمر هذا الوضع حتى خلافة المعتصم[١٢٣].

واقام البريد بين مكة والمدينة واليمن سنة ١٦٦هـ/ ٧٨٢م، وكان أول من وضع ذلك واستعمل البغال والإبل فيه[١٢٤].

وفي سنة ١٦١هـ/ ٧٧٧م أتم بناء المحطات والبرك بين القادسية ومكة، وكان أبو العباس بدأ ذلك، فبنى المحطات بين القادسية وزبالة، وهي على بعد ثلاثمئة ميل إلى الغرب، كما بنى أبو جعفر بعض المنازل. وأمر المهدي «ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان أبو العباس بناها من القادسية إلى زبالة، وأمر بالزيادة في قصور ابي العباس وترك منازل أبي جعفر التي كان بناها على حالها، وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل وبتحديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع»[١٢٥].

ونظم المهدي أمر النظر في المظالم، فأنشأ مجلساً خاصاً لرد المظالم، وذلك ليحمي الرعية من تعدّي الولاة وجورهم، وبخاصة في قضايا الضرائب والأراضي[١٢٦].

وعني بأمر المرضى والمسجونين، فأمر سنة ١٦٣هـ/ ٧٧٩م «أن يجري على المجذمين وأهل السجون في جميع الآفاق»[١٢٧]. ويذكر المقدسي أنه «وضع دور المرضى وأجرى على العميان والمجذمين والضعفى»[١٢٨].

والخلاصة أن الهدوء الداخلي ساعد الخليفة على تنظيم الإدارة، وعلى الاهتمام بخير الرعية وبشؤونها الداخلية.

٤ ـ ولاية العهد

واستعمل المهدي طريقة الإرهاب والترغيب مع عيسى بن موسى ليخلع نفسه

---

(١٢٣) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٦٦.

(١٢٤) الطبري، المصدر نفسه، ج ١، ص ٨، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ٣٤.

(١٢٥) المصدران نفسهما، ج ٩، ص ٣٣٨، وج ٦، ص ١٩ على التوالي.

(١٢٦) المدور، **حضارة الإسلام في دار السلام**، ص ٦٥ ـ ٦٦.

(١٢٧) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣٤٢.

(١٢٨) المقدسي، **البدء والتاريخ (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي** = *Le Livre de la creation et de l'histoire de Motahhar ben Tahir el-Maqdisi*، ج ٦، ص ٩٦.

من ولاية العهد، والظاهر أنه حرك الشيعة العباسية في خراسان إلى المطالبة بخلع عيسى والبيعة لموسى (الهادي).

فلما طلبت الشيعة العباسية ذلك، كتب المهدي إلى عيسى (وكان في الكوفة) يأمره بالمجيء إلى بغداد، ولكنه أدرك ما أريد به فرفض، فأمر المهدي والي الكوفة بالتضييق عليه، فلم يفد ذلك. وأخيراً «ألح المهدي على عيسى، فقال إنك إن لم تجبني إلى أن تنخلع منها حتى أبايع لموسى وهارون استحللت منك بمعصيتك ما يستحل به العاصي، وإن أجبتني عوضتك منها ما هو أجدى عليك وأعجل نفعاً، فأجابه: فبايع لهما، وأمر له بعشرة آلاف ألف درهم، ويقال عشرين ألف ألف وقطائع كثيرة»[١٢٩]. وينسب الجهشياري هذا التهديد إلى عبيد الله وزير المهدي[١٣٠]. وعلى كل، فقد خلع عيسى نفسه، وبايع المهدي لابنه موسى سنة ١٥٩هـ/ ٧٧٥م، ثم بايع لابنه هارون سنة ١٦٦هـ/ ٧٨٢م وسماه الرشيد[١٣١].

٥ ـ كلمة ختامية

كان عصر المهدي عصر استقرار ذاقت فيه الرعية شيئاً من الهدوء والرفاه، وكان فاتحة لتسرب الترف في المجتمع، وفيه نمت المؤسسات الإدارية ورسخ النظام الوزاري في الدولة. ولكن هذا العصر ترك آثاراً هدامة في جسم الدولة أهمها:

أ ـ ظهور الميل إلى البذخ والإسراف في الكماليات، فكان ذلك بادرة هدامة أدت دورها في تحطيم كيان الدولة في ما بعد. ولعل هذا الاتجاه نتيجة طبيعية لنمو الدولة، ولكن المهدي أفرط فيه.

ب ـ كان المهدي عرضة لأن يقع تحت تأثير حاشيته، وكان يصغي بصورة خاصة لرغبات حاجبه الربيع بن يونس. وبذلك أوسع المجال للدسائس الشخصية أن تؤدي دورها في شؤون الدولة. كما أنه كان تحت نفوذ زوجته الخيزران، فيذكر الجاحظ أنها «كانت ذات نفوذ في الدولة وقيام بقضاء حوائج الناس عند المهدي»[١٣٢]، فأصبح الحرم يتدخل في شؤون الدولة، وقد ظهرت النتائج السيئة لهذا التدخل في ما بعد.

(١٢٩) الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.
(١٣٠) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.
(١٣١) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢.
(١٣٢) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج ٢، ص ٢١٢.

ج ـ وأكد المهدي أخطاء نظام ولاية العهد، فإنه بعد أن خلع عيسى بن موسى بايع لابنيه من بعده. ونحن لا نلوم أبا العباس لمبايعته لاثنين لأن الدولة كانت في بدئها مهددة بالأخطار، فكان من المفيد التأكد من وجود ولي عهد، ولكننا لا نرى مسوغاً لعمل المهدي بعد أن استقرت الدولة وتوطدت قواعدها. ومما يلاحظ أن المهدي كان أول من بايع لأكثر من واحد من أولاده بين خلفاء بني العباس. ولا حاجة إلى الإشارة إلى مآسي هذا النظام، لأنها ستذكر في حينها.

خامساً: سياسة موسى الهادي
محرم ١٦٩هـ/ ٧٨٥م ـ ربيع الأول ١٧٠هـ/ ٧٨٦م

بويع الهادي بالخلافة وله خمس وعشرون سنة «ولم يل الخلافة قبله أصغر سناً منه»[١٣٣]، وكان طويلاً جسيماً أبيض الشعر، أفوه، بشفته العليا بياض[١٣٤].

ويصفه الفخري بأنه كان «متيقظاً غيوراً... شديد البطش... جريء القلب، ذا إقدام وعزم وحزم»[١٣٥]. ويقول عنه المسعودي في **مروج الذهب**: «كان موسى قاسي القلب، شرس الأخلاق، صعب المرام، كثير الأدب محباً له، وكان شديداً شجاعاً جواداً سخياً»[١٣٦]. ويقول عنه في **التنبيه والإشراف** إنه كان «شجاعاً، بطلاً، أشد الناس بدناً، وأجرأه، مقدماً في تسرع وجبرية ينسب بهما إلى الهوج»[١٣٧].

وإذاً كان في الهادي قوة وشدة بطش، ولكن المدور أصاب حين قال عنه: «وإنه من توقاه وعرف أخلاقه دخل في رضاه»[١٣٨]. وقد نشأ الهادي في محيط مترف، فظهر أثر ذلك في أخلاقه، فكان كثير الميل إلى الأدب وله فيه ثقافة واسعة كما يظهر[١٣٩]. وقد أكرم ابن دأب بثلاثين ألف دينار لأنه أنشد أبياتاً

(١٣٣) الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك**، ص ٧٥.

(١٣٤) المصدر نفسه، ص ٧٥، والمسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٢٩٧.

(١٣٥) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٤٠.

(١٣٦) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، راجع أصوله، ورقمه، وضبط مبهمه، وعلق عليه محمد محي الدين عبد الحميد، ٤ ج (القاهرة: دار الرجاء، ١٩٣٨)، ج ٣، ص ٢٤٦.

(١٣٧) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٢٩٧.

(١٣٨) المدور، **حضارة الإسلام في دار السلام**، ص ٤٣.

(١٣٩) انظر: الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك**، ص ٧٥ ـ ٧٦.

استحسنها[١٤٠] وأعطى سلم الخاسر ثلاثمئة ألف درهم لأنه قال قصيدة أعجبه منها البيت التالي:

لـولا هـداكـم وفـضـل أولـكـم | لم تـدر مـا أصـل ديـنـهـا الـعـرب

وكان يحب الغناء، فقرب إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، وقد أعطى إبراهيم الموصلي خمسين ألف دينار لأنه غناه ثلاثة أبيات أطربته[١٤١]. ويروى عن إسحاق أنه قال: «والله لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان دورنا بالذهب»[١٤٢].

ومن أثر تربيته ميله إلى الأبهة والجبروت، فكان إذا ركب مشت الرجال بين يديه بالسيوف المشهرة والأعمدة والقسي الموتورة[١٤٣]، والأحاديث عن كرمه كثيرة. كما أننا نلاحظ أثر تسرب الترف في المجتمع وكثرة الجواري في غيرة الهادي على النساء إلى درجة قوية[١٤٤].

وكان الهادي شهماً، كما يتضح من بعض الروايات عنه[١٤٥].

حكم الهادي مدة قصيرة، ولذلك لا نستطيع تقدير أثره في الدولة العباسية، ولكننا نرى بعض البوادر في حكمه وبعض الاتجاهات في سياسته.

نلاحظ لأول مرة أن الجند عند سماعهم بوفاة المهدي يشاغبون ويطلبون أرزاقاً إضافية بشكل هبة، فيقول الطبري إنهم «ساروا إلى باب الربيع بن يونس (الوزير) فأحرقوه وطالبوا بالأرزاق وضجوا... وجمعت الأموال حتى أعطي الجند لسنتين (أي ما يعادل أرزاق سنتين) فسكتوا»[١٤٦]. وهذه بادرة خطرة، فهي بدء سلسلة مشاغبات الجند وتدخلهم في أمور الدولة بشكل مضر. ولا شك في أن المسؤول عن هذا هو حكم المهدي الذي كان هادئاً مترفاً، ما شجع الجند على المشاغبة وعلى الرغبة في السير مع تيار الترف الذي اكتسب قوة في ذلك العهد كما لاحظنا.

---

(١٤٠) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٧٢.

(١٤١) المصدر نفسه، ص ١٧٣.

(١٤٢) أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، ج ٥، ص ٦.

(١٤٣) المدور، **حضارة الإسلام في دار السلام**، ص ٨٤.

(١٤٤) عن وفاة الربيع بن يونس، انظر: ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٣١ و١٤٢ حيث يقول «وكان شديد الغيرة».

(١٤٥) انظر: المصدر نفسه، ص ١٤٥ ـ ١٤٦، والجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٧٦.

(١٤٦) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢٢.

ويكفي أن نشير إلى اتجاهات سياسة الهادي، فنقول إنه اقتدى بسياسة أبيه في تتبع الزنادقة، فوكل بمطاردتهم رجلاً يقال له عبد الجبار، واشتد سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م في طلبهم، فقتل جماعة كبيرة منهم(١٤٧)، ومن بينهم جماعة كانوا يهزأون بالناس في الطواف(١٤٨). ولهذا الاهتمام معناه السياسي في تثبيت مركز الخلافة.

ثم اتبع مع العلويين سياسة شديدة قاسية، فيروي اليعقوبي «أن موسى جدّ في طلب الطالبيين وأخافهم خوفاً شديداً، وقطع ما كان المهدي يجري لهم من الأرزاق والعطية، وكتب إلى الآفاق في طلبهم وحملهم»(١٤٩). وربما كانت هذه السياسة نتيجة فشل سياسة المهدي في خطب ودّ العلويين باللين، ولكن التطرف فيها يدل على شيء من الهوج. وقد اضطر العلويون إلى القيام ضده برئاسة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن وقت الحج سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م، فضربهم ونكّل بهم في واقعة «فخ» (بين مكة والمدينة). وكانت تلك الواقعة مهمة بنتائجها، إذ هرب منها إدريس بن عبد الله بن الحسن إلى المغرب، كما أنها قضت على أثر سياسة اللين التي اتبعها المهدي مع العلويين(١٥٠).

وحاول الهادي وضع حدّ لتدخل الحرم في سياسة الدولة. ويروي الطبري أن الخيزران «كانت . . . في أول خلافة موسى تفتات عليه في أموره وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالأمر والنهي، فأرسل إليها ألا تخرجي من خفر الكفاءة إلى بذاءة التبذل، **فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك**»، ولكن الخيزران على ما يظهر استمرت في تدخلها مدة أربعة شهور بعد هذا الطلب، «فكانت المواكب تغدو إلى بابها»، فثار الهادي وهدد بضرب عنق من يرد بابها، وهددها قائلاً: «ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؟ **أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك! إياك ثم إياك ما فتحت بابك لملي أو لذمي**»، ولم تتدخل بعدها للبقية الباقية من أيامه(١٥١). وهذه ولا شك سياسة

---

(١٤٧) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٣.

(١٤٨) ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص ٢٢٢، والأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك**، ص ٧٥.

(١٤٩) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

(١٥٠) انظر: المصدر نفسه؛ ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٤١؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢٤ ـ ٣٢، وعلي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين** (النجف: [د. ن.]، ١٣٥٣هـ/[١٩٣٤م])، ص ٢٩٠ وبعدها.

(١٥١) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٣؛ ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ١٤٢، والجاحظ، **البيان والتبيين**، ج ٢، ص ٢١٢.

رشيدة، وكم كان للحرم من يد سوداء على الدولة في العصر العباسي الثاني.

وأراد الهادي خلع أخيه هارون والمبايعة لابنه موسى، وهو طفل. وقد حاول أول الأمر إقناعه وبذل له «الهني والمري»، وتقول بعض الروايات إن هارون مال إلى إجابة طلبه، فأشار عليه يحيى البرمكي بالرفض وثبته[١٥٢]. وعندئذ عمد الهادي إلى استعمال الشدة، وكان القواد يشجعونه، حتى إن بعضهم خلع هارون وبايع لموسى «ودسوا إلى الشيعة (العباسية)، فتكلموا في أمر هارون وتنقصوه في مجلس الجماعة وقالوا لا نرضى به. . . وأمر الهادي أن لا يسار قدام الرشيد بحربة، فاجتنبه الناس وتركوه، فلم يكن أحد يجترئ أن يسلم عليه»[١٥٣]. وأدرك الهادي أثر يحيى في القضية، فدعاه وناظره في خلع هارون، فاحتج يحيى بشكل يظهر دهاءه قائلاً: «يا أمير المؤمنين، إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وجرأتهم على حل العقود التي تعقد عليهم، ولو تركت الأمر في بيعة أخيك بحاله وبويع لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته»، فوافقه الهادي على رأيه، ثم إنه لم يرتح لذلك الحل وحبس يحيى وأراد معاقبته، فتلطف هذا للخليفة وحذره العاقبة إن توفي وابنه «لم يبلغ الحلم» وقال له: «إنك إن فعلت هذا وحدث ما نعوذ منه (أي وفاة الخليفة) وثب على هذا الأمر أكابر أهلك، وخرج الأمر من ولد أبيك». ثم قال للهادي: «فدع هذا الأمر حتى يبلغ جعفر، فإذا بلغنا الله ذلك، فعليّ أن آخذ بيد هارون حتى يبايعه عفواً، والله والله يا أمير المؤمنين»[١٥٤]. وأطلق الهادي يحيى وسكت موقتاً، ولكنه رجع إلى رأيه، وألحّ عليه بعض رجال الحاشية والقواد بخلع هارون ومبايعة جعفر «تقرباً إليه ورغبة في ما يصل إليهم من الإعطاء»[١٥٥]. واشتدت الأزمة، فنصح يحيى هارون بالابتعاد عن الهادي، وبقي يعلل ويدافع، وأخيراً قبض الهادي على يحيى وقرر قتله، ولكن الخليفة توفي تلك الليلة[١٥٦].

أما وفاة الهادي، فيحيط بها بعض الغموض، وفيها روايتان: **الأولى** ترد في الطبري، ومجملها أن الهادي اعتل ومات من قرحة كانت في جوفه[١٥٧]، وهي رواية ضعيفة لأن الطبري لا يعلق عليها أية أهمية، ولأنها أسطورية في شكلها، حتى إن

---

(١٥٢) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٦٩ ـ ١٧٠، والطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٥.

(١٥٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٤.

(١٥٤) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٥ ـ ٣٦، والجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٧١.

(١٥٥) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٧٤.

(١٥٦) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(١٥٧) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٣ و٣٧، والمسعودي، **التنبيه والإشراف**، ج ٣، ص ٢٥٤.

راويها لم يتورع عن أن ينسب إلى الخيزران العلم بالمستقبل(١٥٨)، كما إن المصادر الأخرى لا تؤيدها.

أما الرواية **الثانية**، فترد في أكثر المصادر(١٥٩)، وتقول بأن الخيزران غضبت لقطع نفوذها، وخافت على هارون الذي كان «أحب إليها من الدنيا بجميع ما فيها»(١٦٠) من الهادي، فقررت قتله، وأوعزت إلى جواريها بخنقه وهو نائم، ففعلن ذلك، كما إن تصرفات الخيزران في تلك الليلة تؤيد اشتراكها في تلك الجريمة(١٦١).

---

(١٥٨) الطبري، المصدر نفسه، ص ٣٧.

(١٥٩) المصدر نفسه، ص ٣٣ ـ ٣٤؛ ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٤٢، وابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص ٢٢٢.

(١٦٠) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٦، وابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ١٤٢.

(١٦١) انظر: الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٧٥؛ اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٣٨، والطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٧. ويستبعد ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) أن تكون الخيزران أمرت بقتل الهادي ويخالف بذلك رواية الطبري، انظر: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ١٠ ج (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧ ـ ١٣٥٨هـ/[١٩٣٨ ـ ١٩٣٩م؟])، ج ٨، ص ٣٣٤.

الفصل السادس

هـــارون الرشيــــد(*)

(*) ١٤ ربيع الأول ١٧٠هـ - ١٣ جمادى الآخرة ١٩٣هـ/ ١٤ أيلول/ سبتمبر سنة ٧٨٦م - ٢٤ آذار/ مارس سنة ٨٠٨م.

مقدمة

الرشيد أوسع الخلفاء العباسيين شهرة وأعظمهم رونقاً وأشدهم في الخيال تأثيراً، فقد امتزجت في أخباره حقائق التاريخ بروعة الخيال ومبالغة الأقاصيص، فأصبح رمز العصر الذهبي في الإسلام، واكتسى بمجموعة من الصفات البعيدة الاختلاف التي يندر أن تجتمع في شخص واحد.

إنه يصوّر حيناً بصورة الخليفة الباذخ المسرف في الترف، ويصور أحياناً أخرى بصورة الخليفة المحارب القوي الفعال الذي أذل أعداء الإسلام وفرض الجزية على الروم. وهو يظهر بمظهر الخليفة الحذر الذي يبث شبكة من الجواسيس ليعرف أمور الناس وأحوالهم، ولا يكتفي بذلك، بل يطوف الأسواق ويزور المجالس متنكراً ليعرف بنفسه ما يدور.

ويتمثل لنا بشكل الخليفة الورع الناسك الذي تسقط الموعظة عبراته، فهو أول من حجّ ماشياً من الخلفاء، يصلي «في اليوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا»، ويتصدق من صلب ماله بألف درهم في كل يوم[(١)]، ويحجّ ثماني حجج، ويغزو ثماني غزوات[(٢)]. إنه بين حجّ وغزو يحجّ عاماً ويغزو عاماً طوال أيامه، ثم يخلو بنفسه، فينهمك بالملذات والمجون، فيرقص في حضرته مئة من الجواري مرة واحدة في أحسن هيئة، ويتمتع بشرب النبيذ، ولا يهمل الحياة العائلية، فيتزوج ست زوجات، ويتسرى بعشرين أمة، ويخلف عدداً كبيراً من الأولاد[(٣)].

وبعد هذا، فهو سياسي ماهر، فيه حزم المنصور وعنفه وأساليبه، مع مرونة

---

(١) عبد الرحمن سنبط الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك** (بيروت؛ القدس: مطبعة القديس جاورجيوس، ١٨٨٥)، ص ٨٠.

(٢) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **التنبيه والإشراف**، عني بتحقيقه ومراجعته عبد الله اسماعيل الصاوي (القاهرة: مكتبة الشرق الإسلامية، ١٩٣٨)، ص ٢٩٩.

(٣) انظر: أبو عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **المعارف** (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٣٥)، ص ١٦٧، وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٣ ج في ٥ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م)، ج ١٠، ص ١٢١.

وسخاء بالمال لاصطفاء الناس. ثم نراه صديق العلماء والشعراء يقربهم ويكرمهم، ويشجع حركة الترجمة بسخاء عظيم[٤].

وهذه الصور حقيقية في أساسها، فالطبري يطنب في وصف تديّن الرشيد، ثم يذكر أنه «كان يقتفي آثار المنصور إلا في بذل المال، فإنه لم ير خليفة قط قبله أعطى منه للمال»[٥].

ويصفه المسعودي بأنه «كان كامل الأخلاق، سمحاً شجاعاً، كثير الحج»[٦]. ويقول عنه الفخري: «كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم، وكان يحب الشعر والشعراء والفقه ويكره المراء في الدين. وكان يحب المديح، ولا سيما من شاعر فصيح، ويجزل العطاء عليه»[٧]. ويصفه المدور بالرقة واللطافة والانصباب على المطالعة وتتبع أقوال الحكماء عند تأديبه[٨].

وعلى الرغم من اعتزازه بسلطته المطلقة، فإنه كان شديد الاهتمام بشؤون الرعية، فلما ألح عليه الثلج في بعض غزواته قال له بعض أصحابه: «أما ترى يا أمير المؤمنين ما نحن فيه من الجهد والرعية والدعة؟»، فأجاب: «أسكت، على الرعية المنام وعلينا القيام، ولا بد للراعي من حراسة رعيته»[٩].

أما حبه الغناء وتقريبه المغنين فمشهور، ومجالس طربه موصوفة بتفصيل في الأغاني[١٠]. ويظهر أنه كان ذا ملكة أدبية وشعرية. وكانت للرشيد اليد الطولى في تشجيع حركة الترجمة.

---

(٤) انظر: أحمد فريد رفاعي، **عصر المأمون**، ٣ ج (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٧)، ج ١، ص ١١٥ ـ ١١٨، وقد تجاوزت شهرة الرشيد إلى الغرب، فيقول عنه دنيسن روس إنه «أشهر خلفاء بغداد». انظر: *Times*, -/8/1933.

ويقول فلبي (Philby) إنه صار رمز كل ما هو عظيم وجميل في تاريخ الإسلام. انظر: H. St. J. B. Philby, *Harun al Rashid*, with a frontispiece ([London]: P. Davies, Limited, 1933), p. 10.

(٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١١٣.

(٦) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٢٩٩.

(٧) محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ/[١٨٩٩م])، ص ١٤٣.

(٨) جميل نخلة المدور، **حضارة الإسلام في دار السلام**، ط ٢ (القاهرة: مطبعة المؤيد، ١٩٠٥)، ص ٤٤.

(٩) الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك**، ص ٨٠.

(١٠) انظر: علي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني** (القاهرة: الساسي، [د. ت.])، ج ١، ص ٤٢ ـ ٤٣، وأحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر**، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين (القاهرة: عالم الكتب، [١٩ ـ ؟])، ص ٣٦ ـ ٣٧.

ومما تجب ملاحظته هو أن هذه الصور المتباينة للرشيد كانت نتيجة طبيعته، وتربيته والعصر الذي عاش فيه. فقد كان عصره عصر بذخ وإمعان في الحضارة، وكان هو حازماً دُرِّب في الحرب والإدارة في خلافة والده، فكانت فيه قوة الخلفاء الأولين واهتمامهم بالسياسة ونظرهم إلى الدين كأساس للملك والدولة، يضاف إلى ذلك ميله إلى الكرم مع وفرة الأموال. ومما يقرب تصرفاته إلى أذهاننا أنه كان دقيق الإحساس، حاد المزاج، سريع التاثر إلى درجة تفقده موازنته أحياناً، فقد يثور غضباً ويفرط في الانتقام، وقد ترق عواطفه فيبكي ويظهر رحمة متناهية وعطفاً عظيماً. وهكذا كانت تصرفاته تعكس هذه التيارات المختلفة، شخصية واجتماعية، وتمثلها خير تمثيل.

ولكني أرى أن مواهبه على العموم لا تقارن بمواهب المنصور في السياسة وبعد النظر، فكان المنصور مبتكراً، وكان الرشيد مقلداً.

ولما بويع الرشيد بالخلافة، أعلن يوسف بن القاسم بن صبيح مجيئه إلى العالم الإسلامي بكتاب ورد فيه:

«. . . إن الله عز وجل استأثر بخليفته موسى الهادي الإمام فقبضه إليه، وولى بعده رشيداً مرضياً، أمير المؤمنين بكم رؤوفاً رحيماً من محسنكم قبولاً وعلى مسيئكم بالعفو عطوفاً. وهو ـ أمتعه الله بالنعمة وحفظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة، وتولاه بما تولى أولياءه وأهل طاعته ـ يعدكم من نفسه الرأفة بكم والرحمة بكم من الجائزة مما أفاء الله على الخلفاء مما في بيوت الأموال ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً، غير مقاص لكم بذلك في ما تستقبلون من أعطياتكم، وحاملاً باقي ذلك للذبّ عن حريمكم، وما لعله أن يحدث في النواحي والأقطار من العصاة المارقين إلى بيوت الأموال حتى تعود الأموال إلى جمامها وكثرتها والحال التي كانت عليها. فاحمدوا الله وجددوا شكراً يوجب لكم المزيد في إحسانه إليكم بما جدد لكم من رأي أمير المؤمنين وتفضل به عليكم، أيده الله بطاعته، وارغبوا إلى الله له في البقاء ولكم في إدامة النعماء لعلكم ترحمون»(١١).

ونلاحظ في هذا المنشور أن الرشيد أكد على سلطته المطلقة، وأنه وعد الرعية أن يعاملهم بالرأفة، وأن يتشدد في حفظ الأمن الداخلي وصيانة الحدود، ثم إنه أحدث سنة جديدة، وهي توزيع عطايا إضافية للجند عند البيعة.

---

(١١) انظر: رفاعي، **عصر المأمون**، ج ١، ص ١١٤ ـ ١١٥.

وهكذا سمع العالم الإسلامي عن الرشيد. ثم عرف في ما بعد أنه استخدم البرامكة واعتمد عليهم، فقال ليحيى بن خالد حينما تقلد الخلافة: «يا أبت. . . قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واعزل من رأيت، وافرض من رأيت وأسقط من رأيت، فإني غير ناظر معك في شيء»(١٢). وسيرد تفصيل دور البرامكة في ما بعد.

أولاً: المشاكل الداخلية

نتجت المشاكل الداخلية في عهد الرشيد من مصدرين: عدم إساءة الظن بالعمال وإطلاق أيديهم في الأمور، ومن خلافات حزبية مثل الخلافات مع العلويين والخوارج.

ومع أن الرشيد (كما يجمع المؤرخون) اقتفى آثار جده المنصور في السياسة، فإنه أهمل اتهام العمال في تصرفاتهم، فخالف بذلك ركناً مهماً من أركان سياسة سلفه. وقد ظهرت نتيجة هذا الإهمال بصورة قوية في خراسان.

١ ـ خراسان

لقد اهتم أكثر ولاة خراسان بمصالحهم وإثرائهم من دون أن يهتموا برفاه الرعية، حتى إن بعضهم (كعبد الجبار بن عبد الرحمن والمسيب بن زهير) زاد في الضرائب من دون مسوّغ، ولم يكن هذا التصرف مقتصراً على زمان الرشيد، ولكن وصل إلى حد بعيد آنذاك. ولعل الوحيدين من ولاة خراسان اللذين سعيا لخيرها كانا الفضل بن سليمان الطوسي (١٦٧هـ ـ ١٧١ هـ / ٧٨٣م ـ ٧٨٧م) والفضل بن يحيى البرمكي (١٧٨هـ ـ ٧٩٥م)، وقد وليها الأخير في خلافة الرشيد(١٣).

يقول الجهشياري: «لما صار الفضل إلى خراسان أزال سيرة الجور وبنى الحياض والمساجد والرباطات، وأحرق دفاتر البقايا(١٤)، وزاد الجند والقواد (في

---

(١٢) أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، عني بتصحيحه وتحقيقه عبد الله اسماعيل الصاوي (القاهرة: عبد الحميد أحمد حنفي، ١٩٣٨)، ص ١٧٧.

(١٣) انظر: فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد، **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي**، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، قسم التراث العربي، ١٩٨١)، ص ٢٠٣.

(١٤) يقصد بالبقايا ما لم يدفعه الزراع من خراج السنين الماضية لأسباب مختلفة كحصول مواسم زراعية رديئة وكانت البقايا تصل حداً مريعاً.

العطاء)»[١٥]. ولكن نتيجة هذه السياسة كانت قلة الوارد من خراسان إلى الخزينة، ويظهر أن ذلك لم يرض الرشيد[١٦].

ثم ولى الرشيد بعد الفضل علي بن عيسى بن ماهان، وكان من أقسى الولاة، «فظلم الناس وعسر عليهم»[١٧]، واعتدى على أموال الناس، و«جمع أموالاً جليلة، فحمل إلى الرشيد ألف بدرة معمولة من ألوان الحرير وفيها عشرة آلاف ألف درهم»، فلما وصلت إلى الرشيد سر بذلك[١٨]، فثبت علي بن عيسى مركزه وزاد حظوته عند الرشيد بهذه الوسيلة، واستمر على ظلمه. يقول الطبري: «فلما عاث علي بن عيسى بخراسان ووتر أشرافها وأخذ أموالهم واستخف برجالهم، كتب رجال من كبرائها ووجوهها إلى الرشيد، وكتب جماعة من كورها إلى قراباتها وأصحابه تشكو سوء سيرته... وتسأل أمير المؤمنين أن يبدلها به». ولكن الظاهر أن هذه الشكاوى لم تقنع الرشيد حتى أقنعه بعض رجال الحاشية أن علي بن عيسى ينوي الثورة عليه، وعندئذ توجه صوب خراسان سنة ١٨٩هـ/ ٨٠٤م. ولعل علي بن عيسى شعر بالوشاية، فقدم على الرشيد «بالأموال والهدايا والطرف من المتاع والمسك والجوهر وآنية الذهب والفضة والسلاح والدواب، وأهدى بعد ذلك إلى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم»[١٩]. وبهذه الواسطة قضى على آثار الدسائس وأرضى الرشيد والحاشية. وعلى كل فقد استمر علي في ولايته عشر سنين (٧٩٦ ـ ٨٠٦م).

ولم تنكشف حقيقة علي بن عيسى للرشيد حتى افتضح أمره سنة ١٩١هـ/ ٨٠٦م بعد ثورة أهل خراسان مع رافع بن الليث، إذ إنه انسحب من بلخ إلى مرو خوفاً من رافع أن يستولي عليها، وكان إبنه قد دفن في بستان له هناك ثلاثين مليوناً من الدراهم، فوجدها أهل بلخ، فلما بلغ الخبر الرشيد عزله «واستصفى أمواله فبلغت ثمانين مليوناً من الدراهم»[٢٠]. ووصف تصرفاته في كتاب العزل كما يلي: «خالفت عهدي ونبذت وراء ظهرك أمري... حتى ظلمت الرعية وأسخطت الله وخليفته لسوء سيرتك». وهذا الكتاب، مع توصية هرثمة بن أعين (الذي خلف علياً في الولاية) ـ باستخراج أموال الخراج التي اغتصبها علي، وبإنصاف المسلمين والمعاهدين منه ورد حقوقهم

---

(١٥) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢٢٨.
(١٦) انظر: المصدر نفسه، ص ٢٢٨ وبعدها.
(١٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٩٥.
(١٨) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢٢٨.
(١٩) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٩٥ ـ ٩٦.
(٢٠) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٠٠.

ومعاملتهم بالحسنى، وأن يتقي الله ويهتدي بكتابه[٢١] - تدل على أن الرشيد استنكر تصرفات علي بن عيسى ولم يرض عنها، ولعله تظاهر بذلك، ولكن المهم هو أنه لم يكن مطلعاً الاطلاع الكافي على الوضع في خراسان، ولم يكن شاعراً بأثر سياسة واليه.

وقبل عزل علي بن عيسى ثار رافع بن الليث، وهو حفيد نصر بن سيار، ولم تكن هناك أحقاد قديمة بين العباسيين وآل نصر، فالطبري يسمي الليث والد رافع مولى المهدي[٢٢]. ويبيّن الطبري أن سبب الثورة شخصي ومباشر، وذلك نتيجة جلد رافع لاتهامه بجريمة الزنا[٢٣]. أما الدينوري، فيجعل سبب خروجه «أن علي بن عيسى بن ماهان لما ولي خراسان أساء السيرة وتحامل على من كان بها من العرب وأظهر الجور، فخرج عليه رافع»[٢٤].

ولا يهمنا اختلاف المؤرخين في الأسباب التي دفعت رافع نفسه إلى الخروج، ولكن المهم هو كيف استطاع رافع أن يجمع السكان تحت لوائه ويحصل على تأييدهم، فيستطيع أن يقتل والي سمرقند ويستولي عليها، ثم يضطر علي بن عيسى إلى الانسحاب من بلخ، فيحتلها أتباعه[٢٥]. لا شك في أنه كان لظلم علي بن عيسى، ولتذمر أهل خراسان منه، أثر كبير في تأييدهم رافع. ففي سنة ١٩١هـ/ ٨٠٦م كتب أهالي نسف إلى رافع «يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل علي بن عيسى»[٢٦]. ثم كان لكره الخراسانيين بعامة سياسة العباسيين أثر، فيبيّن اليعقوبي أن أهالي فرغانة وأشر وسنة وصغانيان وبخارى وخوارزم والختل كانوا من أنصار رافع[٢٧]، ولا يخفى أن بين أهالي بعض هذه الولايات ثار المقنع.

وأخيراً، تحالف مع رافع بعض أعداء العباسيين وساعدوه عسكرياً، فكان حاكم «الشاش والترك» مع رافع، وأرسل التغزغز والقارلوق (وهم ترك) وأهل التبت نجدات لمساعدته[٢٨].

---

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(٢٢) بارتولد، **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي**، ص ٢٠٠.

(٢٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٩٨.

(٢٤) أحمد بن داود أبو حنيفة الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، تصحيح فلاديمير جرجاس (ليدن: بريل، ١٨٨٨)، ص ٣٨٧.

(٢٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٩٨ - ١٠٠.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٢٧) بارتولد، **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي**، ص ٢٠٠، وأحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ٣ ج في ١ (النجف: المكتبة المرتضوية، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، ج ٣، ص ١٦٥.

(٢٨) المصدران نفسهما، ص ٢٠٠، وج ٣ ص ١٦٥ على التوالي.

والخلاصة أن جميع العناصر المعادية للعباسيين اجتمعت حول رافع، ولم تنته الثورة حتى سنة ١٩٥هـ/ ٨١٠م عندما كان المأمون في خراسان، وذلك لأن الترك تخلّوا عن رافع سنة ١٩٤هـ/ ٨٠٩م، ولأن المأمون حاول بكل وسيلة أن يسترضي أهل خراسان. وعندئذ ضعف موقف رافع، فسلم للمأمون عندما سمع بعدالته (كما تقول بعض المصادر)، فعفا عنه[٢٩].

٢ ـ شمال أفريقية واليمن

أنشأ إدريس بن عبد الله العلوي الهارب من وقعة «فخ» مملكة مستقلة في المغرب الأقصى (مراكش) سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨م، وأعلن نفسه خليفة، فكانت هذه أول خلافة للعلويين، وأول مرة نرى خليفتين في العالم الإسلامي. ولم يتمكن الرشيد من القضاء على هذه المملكة مع أنه نجح بسم إدريس سنة ١٧٧هـ/ ٧٩٣م بحسب مشورة يحيى البرمكي[٣٠]، فانفصل المغرب الأقصى نظرياً وعملياً بصورة نهائية عن الدولة العباسية[٣١].

وفي أول خلافة الرشيد (سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م) توفي القائد القدير يزيد بن حاتم المهلبي، وكان المنصور قد ولاه أفريقية (أي تونس)، فلم يستطع من خلفه من الولاة ضبط الوضع، فثارت الفتن، وكان يقودها الخوارج، وتوالى تعيين الولاة وعزلهم أو إخراجهم من قبل الثوار حتى أرسل الرشيد قائده المشهور هرثمة بن أعين سنة ١٧٨هـ/ ٧٩٤م لقمع الثورات ولتوطيد الوضع، فنجح هرثمة في مهمته، ثم عزل سنة ١٨٠هـ/ ٧٩٦م[٣٢]. وقد انتفضت الحالة من جديد حتى هدأها إبراهيم بن الأغلب، وكان صاحب شرطة الوالي قبله. ويفهم من اليعقوبي وابن الأثير أن أهل أفريقية حملوه على أن يكتب إلى الرشيد طالباً الولاية، فكتب إلى الرشيد يعده بتهدئة الوضع، وأنه يستغني عن الإعانة المالية السنوية من مصر ومقدارها مائة ألف دينار، ويتعهد بأن يدفع سنوياً أربعين ألف دينار لبيت المال على أن تكون الولاية وراثية في أحفاده. وقد استشار الرشيد ثقاته في الأمر، فنصحه هرثمة الذي عرف طبيعة القطر وصعوبة إدارته بقبول هذا الطلب، وأثنى على مقدرة إبراهيم وكفايته، فرضي الرشيد

---

(٢٩) انظر: الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٧٩، واليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٦٥.

(٣٠) علي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين** (النجف: [د. ن.]، ١٣٥٣هـ/ [١٩٣٤م])، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٧.

(٣١) عن الأدارسة، انظر: Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (London: Macmillan, 1937), pp. 450-451, and Stanley Lane-Poole, *The Mohammedan Dynasties: Chronological and Genealogical Tables with Historical Introductions* (Westminster: A. Constable and Company, 1894), p. 35.

(٣٢) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٦٢ و٦٨.

بتلك التسوية وولى إبراهيم سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م، وبذلك انفصل الجزء الثاني من شمال أفريقية فعلاً عن العباسيين(٣٣).

وقامت ثورة في اليمن سنة ١٧٩هـ/ ٧٩٥م ضد الوالي حماد البربري الذي كان شديد الجور، واستمرت المعارك بينه وبين الثوار لمدة تسع سنين استطاع في نهايتها أن يقبض على الهيصم بن عبد المجيد الهمداني زعيم الثورة، ولكن الحالة لم تهدأ إلا بعد عزل حماد(٣٤).

٣ ـ الرشيد والعلويون

رأى الرشيد أن يرفق بالعلويين، وأن يزيل أثر سياسة الهادي العنيفة، فعند مجيئه إلى الحكم «بذل الآمان للطالبيين»(٣٥)، ورفع الحجر عمن كان منهم في بغداد سنة ١٧١هـ/ ٧٨٧م وسيّرهم إلى المدينة ما عدا العباس بن الحسن بن عبد الله(٣٦). ويروي الفضل بن الربيع أن الرشيد كانت له ميول علوية(٣٧)، فإن صحّ ذلك فإن ميوله لم تكن تتجاوز حدود العاطفة.

ولكن الصفاء لم يدم، فقد خرج يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن سنة ١٧٦هـ/ ٧٩٢م في بلاد الديلم وادعى الإمامة. وكان يحيى ممن هرب من وقعة «فخ»، كما يقول الأصفهاني(٣٨)، ويخطئ الفخري في قوله إن يحيى خاف مما جرى على أخويه النفس الزكية وإبراهيم، فمضى إلى هناك. وعلى كل، فقد كثر أتباعه واشتدت شوكته واجتمع إليه الناس من الأمصار والكور(٣٩)، فاضطرب الرشيد لهذا الخبر وذلك لبعد المنطقة ولمناعتها، فندب إليه الفضل بن يحيى في خمسين ألف رجل، ومعه صناديد القواد، وولاه «جميع كور المشرق وخراسان

---

(٣٣) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٤٢ ـ ١٤٣؛ أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، **تاريخ الكامل**، ١٢ ج في ٦ (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٠٣هـ/ [١٨٨٥م])، ج ٦، ص ٥١؛ و Hitti, Ibid., p. 451, and Lane-Poole, Ibid., pp. 36-37.

(٣٤) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٣٥) المطهر بن طاهر المقدسي، **البدء والتاريخ (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي** = *Le Livre de la creation et de l'histoire de Motahhar ben Tahir el-Maqdisi*، اعتنى بنشره وترجمته من العربية إلى الفرانسوية كلمان هوار، ٦ ج (باريس: ارنست لورو، ١٨٩٩)، ج ٦، ص ١٠٦.

(٣٦) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٥١.

(٣٧) أبو الفضل أحمد الخراساني بن طيفور، **كتاب بغداد**، باعتناء كيلر (ليبزج: [د. ن.]، ١٩٠٨)، ج ٦، ص ١٧.

(٣٨) أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص ٣١١.

(٣٩) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٥٤، وابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٧٦.

وأمره بقصد يحيى والجدّ به وبذل له الأمان والصلة إن قبل ذلك»[٤٠].

واستعمل الفضل أساليب السياسة، وحاول إقناع يحيى بقبول الصلح، ولعله اتبع هذه الطريقة حقناً للدماء ورفقاً بالعلويين[٤١]. وفي الوقت نفسه استمال صاحب الديلم بتقديم كميات كبيرة من المال (ألف ألف درهم)[٤٢]، فأجاب يحيى إلى الصلح لانحراف صاحب الديلم عنه، «ولما رأى من تفرق أصحابه وسوء رأيهم فيه وكثرة خلافهم عليه»[٤٣]، ولكنه اشترط أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه، وأن يشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم ومشايخهم، فرضي الرشيد بذلك وكتب الأمان على ما رسم يحيى، وجعل منه نسختين: الأولى أرسلها إلى يحيى، وحفظ الأخرى معه[٤٤].

ثم قدم يحيى على الرشيد، فسرّ بذلك «وأجازه بجوائز سنية»[٤٥]، وبلغ الغاية في إكرام الفضل، فقال مروان بن أبي حفصة في ذلك:

ظفرت فلا شلت يد برمكية ... رتقت بها الفتق الذي بين هاشم

على حين أعيا الراتقين التئامه ... فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم[٤٦]

ولكن الرشيد لم يكن ليطمئن إلى نيات يحيى، فوضعه تحت إشراف الفضل «وفي نفسه الحيلة على يحيى والتتبع له وطلب العلل عليه»[٤٧]. ولعل يحيى شعر بذلك، فأثر في الفضل البرمكي، فأطلقه هذا وذهب إلى الحجاز من دون معرفة الرشيد. ثم أخبر الرشيد بذلك ودسّ إليه بأن يحيي «يدعو إلى نفسه»، فأمر بحمله إلى بغداد وسجنه في سرداب حتى مات. وكان يناظره بين حين وآخر، ثم احضر الفقهاء ليناقشوا مشروعية الأمان، فلم يجرؤ أحد على نقضه إلا أبو البختري القاضي، فإنه أفتى بعدم مشروعيته، وأحلّ للخليفة قتل يحيى، فقال له الرشيد: «أنت قاضي القضاة وأنت أعلم بذلك». وكانت خاتمة حياة يحيى (التي يحوطها الغموض) بعد هذه الحادثة بحوالى شهر[٤٨].

---

(٤٠) أبو الفرج الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ٣١٢.
(٤١) انظر: المصدر نفسه، ص ٣١٠ ـ ٣١٢.
(٤٢) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٥٤.
(٤٣) أبو الفرج الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ٣١٣.
(٤٤) المصدر نفسه، ص ٣١٣، والطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٥٤.
(٤٥) أبو الفرج الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ٣١٤.
(٤٦) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٥٥.
(٤٧) أبو الفرج الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ٣١٤.
(٤٨) المصدر نفسه، ص ٣١٩ ـ ٣٢٢، والطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٥٧.

أما القضية الأخرى، فهي قضية الإمام موسى الكاظم، وخلاصتها أن الرشيد كان يراقب العلويين في الحجاز، فدسّ إليه جواسيسه أن الناس يعتقدون بإمامة موسى بن جعفر، وأنهم يحملون إليه خمس أموالهم، فاضطرب الرشيد. ولما حج لاحظ كثرة احتفاء الناس بموسى، فجاء به إلى العراق وسجنه، وكانت خاتمة حياته في السجن سنة ١٨٣هـ/ ٧٩٩م حينما كان الرشيد في الرقة. وهنا تضطرب الآراء في نهايته. والراجح أنه قتل، وأن ذلك كان بحسب رغبة الرشيد وبإغضائه، وأن المنفذ لرغبة الرشيد كان السندي بن شاهك. كما إن الأصبهاني يعطي يحيى بن خالد البرمكي دوراً رئيسياً في قتل الإمام موسى[٤٩]. ويبينّ اليعقوبي أن السندي أحضر بعض العدول والقواد والكتاب ومن حضر في بغداد من الطالبيين، فكشف عن الجثة وسئلوا: «أترون به أثراً وما يدل على اغتيال؟ فقالوا: لا»[٥٠]. وهذا السؤال في ذاته يؤكد الشكوك في مقتل الإمام.

ومن هاتين الحادثتين يظهر أن الرشيد استعمل أساليب الخداع في علاقاته مع العلويين، ولم يتجنب الغدر للقضاء عليهم، فحفظ بذلك التقاليد المكيافيللية التي خلفها المنصور.

٤ ـ الخوارج

لثورات الخوارج أساس نظري، وهو العمل بكتاب الله وسنة النبي، وهم يمثلون النزعة البدوية التي تكره الخضوع لأية سلطة.

ولم تقم لهم قائمة في الشرق منذ سقوط الأمويين، وهذه ظاهرة تجلب الانتباه، ولعل الضربات الشديدة التي أصابتهم من مروان الثاني ومن أبي مسلم في خراسان أضعفتهم، فلم يستجمعوا قواهم حتى ذلك الوقت.

وفي سنة ١٧٨هـ/ ٧٩٥م خرج الوليد بن طريف الشاري على الرشيد في الجزيرة وجعل مركزه نصيبين، ففتك بعامل الرشيد هناك[٥١]، وهزم عدة جيوش، وامتد سلطانه على أرمينية وأذربيجان، وصار يهدد السواد. وقد أرسل الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني (وهو ابن أخي معد بن زائدة) ضده. وكان يزيد يعرف شجاعة الخوارج وهجماتهم العنيفة، فاتبع معهم سياسة المخاتلة والتأني لينهكهم. ولكن البرامكة الذين

---

(٤٩) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٤٥ ـ ١٤٦، وأبو الفرج الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٦.

(٥٠) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٤٥.

(٥١) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٦٢.

كانوا يسعون لإبعاد العرب عن مناصب الدولة وجدوا فرصة للوشاية بيزيد، وقالوا للرشيد إن يزيداً يتحاشى قتال الوليد للقرابة بينهما، إذ إن كلاهما من بني تغلب وبني شيبان من وائل. وتأثر الرشيد بهذه الوشاية وهدد يزيد بن مزيد بالنكال إن لم يسرع، فدارت الحرب على أشدها، ثم قتل الوليد سنة ١٧٩هـ/ ٧٩٥م في مبارزة فردية مع يزيد، فتضعضع شأن الخوارج، وتولت القيادة ليلى أخت الوليد، ولكن مقاومتها كانت قصيرة، إذ استطاع يزيد أن يقنعها بنزع السلاح والخلود إلى السكينة، وذلك بأن قال لها وهي تحارب «إعزبي عزب الله عليك، فقد فضحت العشيرة، فاستحيت وانصرفت»[٥٢].

٥ ـ الشام

لم تخمد العصبية القبلية في الشام بعد سقوط الأمويين، وكان في وجودها فائدة للعباسيين لأنها تضعف كيان أعدائهم أهل الشام. ولكنهم من جهة أخرى لم يرتاحوا إليها تماماً لأنها تخل بسلطة الدولة وتهدد الأمن والمواصلات.

وقد ثارت العصبية بين المضرية واليمانية بقوة سنة ١٧٦هـ/ ٧٩٣م، فأرسل الرشيد موسى بن يحيى بن خالد إلى الشام، فهدأها وأصلح بين أهلها[٥٣]. ولكن الاضطراب تكرر، ولعل الرشيد أهمله مدة ليضعف شأوة الخصوم، ولكنه بلغ درجة عنيفة سنة ١٨٠هـ/ ٧٩٦م، فأرسل جعفراً البرمكي ليهدئه، ما يدل على خطورته. واستعمل جعفر الترغيب والإرهاب[٥٤] «فأصلح بينهم وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم، ولم يدع بها رمحاً ولا فرساً، فعادوا إلى الأمن والطمأنينة»[٥٥].

ثانياً: السياسة الخارجية

١ ـ علاقة الرشيد بالبيزنطيين

أضفت حروب الرشيد مع البيزنطيين بهاء خاصاً على عصره، فهي من مآثر حكمه ورمز بطولته كجندي مجاهد. وقد أعارها الخليفة أهمية خاصة لا لفائدتها المادية، لأن الخسائر في النفوس والأموال كانت تتجاوز كل نفع، بل للعظمة التي تلقيها على حكمه، ولأنها تظهر سطوة الإسلام وعناية خليفته بحرب أعدائه.

---

(٥٢) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ٤٧، وهنا يعطي ابن الأثير تفاصيل لم ترد في الطبري.
(٥٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٦٠.
(٥٤) انظر خطاب جعفر في: الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.
(٥٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٦٦.

ولم تكن هذه الحرب تسير لهدف معيّن، ولا تتبع خطة رشيدة، بل كانت غزوات انتهت من دون أن تغيّر موقف الطرفين، ومن يستقرئها لا يرى فيها خطة لفتح منظم أو استيلاء دائم، بل كان الخليفة يكتفي بأخذ الجزية. وكل ما نستنتجه منها هو أنها أثبتت تفوق العرب الحربي، ثم قصر نظر قوادهم في عدم متابعة الضغط على البيزنطيين وعدم إدراكهم ظروف أعدائهم الحرجة.

ومع ذلك، فقد اهتم الرشيد بتنظيم حدوده المواجهة للبيزنطيين وبتحصينها. ففي سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م فصل الثغور الشامية عن الجزيرة وسماها «العواصم»، وجعلها منطقة عسكرية خاصة قاعدتها منبج، واهتم بتحصينها، وعمر مدينة طرسوس الشهيرة[٥٦]. وكان قصده من ذلك خلق وحدة عسكرية قوية من حدود سورية الشمالية. ويقول البلاذري: «قال معاوية بن عمرو: وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هارون في الغزو ونفاذ بصيرته في الجهاد أمراً عظيماً. أقام من الصناعة ما لم يقم قبله، وقسم الأموال في الثغور والسواحل»[٥٧]. ولعل الرشيد اعتنى بالأسطول أكثر من أسلافه، ويتضح هذا من الحركات البحرية في خلافته.

كانت المناوشات مع البيزنطيين تحدث في كل عام تقريباً، ولم تكن متساوية في الأهمية، ولذا فسنكتفي بالإشارة إلى المهم منها.

ففي سنة ١٧٤هـ/ ٧٩٠م أسر الروم بعض الجند الذين أبحروا من مصر إلى سورية، فتحرك أسطول عربي من مصر إلى قبرص، ومنها إلى آسيا الصغرى، والتقى بالأسطول البيزنطي في خليج «أطاليا» (Attalia)، فهزمه وأسر أمير البحر البيزنطي[٥٨].

وفي سنة ١٨١ ـ ٢هـ/ ٧٩٧م غزا الرشيد بنفسه أرض البيزنطيين، فسار قسطنطين السادس (ابن أيرين) ضده، ولكن استوراكيوس (Stauracius) حليف أيرين خاف أن يقوى مركز قسطنطين إن انتصر، فأشاع أن المسلمين تراجعوا، فرجع قسطنطين إلى عاصمته، وكانت النتيجة أن خلع وسملت عيناه، واعتلت أمه أيرين العرش (يسميها المؤرخون العرب ريني) باسم أغسطة. وفي الوقت نفسه، فتح

---

(٥٦) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٥٠.

(٥٧) أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٩٠١)، ص ١٦٨.

(٥٨) *Cambridge Medieval History*, planned by J. B. Bury; edited by H. M. Gwatkin [and] J. P. Whitney, 8 vols. (Cambridge, MA: [University Press], 1911-1936), vol. 4: *The Eastern Roman Empire (717-1453)*, edited by J. R. Tanner, C.W. Previté- Orton, and Z.N. Brooke, p. 125.

الرشيد حصن الصفصاف، وتقدم عبد الملك بن صالح فبلغ أنقرة وافتتح «مطمورة»، ورفض طلب أيرين للصلح[٥٩].

وفي سنة ١٨١هـ/ ٧٩٨م حصل أول فداء في العصر العباسي بين المسلمين والروم، وكان المتولي له القاسم بن الرشيد، أما عدد الأسرى المسلمين فبلغ حوالى ثلاثة آلاف وسبعمائة[٦٠].

وبعد سنتين هجم الخزر على أرمينيا، فقبل الرشيد طلب أيرين للصلح ودفع الجزية، واستمر الوضع على ذلك حتى أوائل سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٢م حين دبرت مؤامرة ضد أيرين، فخلعت واعتلى نقفور العرش[٦١].

وبينما كان نقفور منشغلاً بثورة داخلية (١٨٧هـ/ ٨٠٢م) تقدم القاسم بن الرشيد الذي عيّن تلك السنة أميراً للعواصم، فحاصر حصن قرة (Corum)، وحاصرت إحدى فرقه حصن سنان، ولكن قلة الماء والزاد جعلته يرضى بالتراجع مقابل إطلاق البيزنطيين ثلاثمائة وعشرين أسيراً[٦٢].

ولم يكتف نقفور[٦٣] بقطع الجزية، بل أرسل رسالة إلى الرشيد جاء فيها: «من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها، لكن ضعف النساء وحمقهن . . . . فإذا قرأت كتابي، فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك». لذلك غضب الرشيد جداً، وكان جوابه يدل على اعتزازه بقوته وعلى نظرته إلى البيزنطيين، إذ إنه دعا بدواة، فكتب على ظهر تلك الرسالة: «بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام».

وتقدم الرشيد بنفسه سنة ١٨٩هـ (نيسان/ أبريل ٨٠٤م) إلى هرقلة واحتلت بعض فرق جيشه حصن الصفصاف ودبسة وأخذت مقدمته أنقرة، فجاء نقفور لصده فدحر. ولعل تأخر الموسم جعل الرشيد يقبل الهدنة والجزية، وعلى ألا يبني نقفور

(٥٩) المصدر نفسه، والطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٦٩ ـ ٧٠.

(٦٠) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ١٠، ص ٣٥.

(٦١) *Cambridge Medieval History*, vol. 4: *The Eastern Roman Empire (717-1453)*, p.126.

(٦٢) المصدر نفسه، وابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٦٠.

(٦٣) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٩٤.

الحصون المهدومة[٦٤]. وكان مقدار الجزية ديناراً عن كل حالم من الروم سوى نقفور وابنه[٦٥]. ولما رجع الرشيد، استغل نقفور شدة البرد فنقض الصلح، فرجع إليه الرشيد وقمعه واتفقا على تبادل الأسرى. ويظهر أن ذلك وقع في أوائل سنة ١٨٩هـ/ ٨٠٤م، «فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودي به»[٦٦].

وفي سنة ١٨٩هـ/ ٨٠٥م استغل نقفور انشغال الخليفة بشؤون إيران، فخالف بنود الصلح وبنى أنقرة ودبسة والصفصاف، وأرسل جيشاً فتح طرسوس وخرب عين زربة، ولكن حامية المصيصة هاجمته واسترجعت معظم الأسرى والأسلاب[٦٧].

وجاء الرشيد سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٦م بجيش ضخم يقدره الطبري بـ «مائة وخمسة وثلاثين ألف مرتزق سوى الأتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوان له»، وكانت فيه فرق من مختلف ولايات المملكة، فعبر الحدود البيزنطية في (١١ حزيران/ يونيو) وأخذ هرقلة (بعد حصار شهر) والطوانة (Tyana)، حيث أمر ببناء مسجد. وقد افتتح قواده حصن الصقالبة ودبسة وحصن الصفصاف وملقوبية وسنان وصملة وحصن ذي الكلاع (Sideropolis). وكان نقفور آنئذ مهدداً من جانب البلغار، فأرسل وفداً يلتمس الصلح، فرضي الرشيد على أن يدفع نقفور جزية قدرها ثلاثمئة ألف دينار، وأن يدفع جزية شخصية عنه (٤ دنانير سنوياً) وعن ابنه (دينارين سنوياً)، وبذلك اعترف بأنه تحت ذمة الخليفة. واشترط الرشيد عليه ألا يبني حصناً، كما تعهد أن يرجع صملة وذا الكلاع وحصن سنان سالمة[٦٨].

وكان الرشيد قد ولى حميد بن معيوف سواحل البحر الأبيض، فأبحر حميد بأسطوله سنة ١٨٩هـ/ ٨٠٥م إلى قبرص فدمر فيها وسبى أهلها ستة عشر ألفاً بينهم الأسقف وأقدمهم الرافقة، ولكنهم أرجعوا إلى قبرص بعد تجديد الصلح سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٦م. كما قام حميد بغارة بحرية على رودس في السنة التالية. ولكن نقفور نقض الصلح على عادته مستغلاً انشغال الرشيد بخراسان، فتجددت الحرب من دون نتيجة تذكر.

وفي سنة ١٩٢هـ/ ٨٠٨م كان الفداء في البدندون (Padandus)[٦٩].

---

(٦٤) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٩٤، و *Cambridge Medieval History*, vol. 4: *The Eastern Roman Empire (717-1453)*, p.126.

(٦٥) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٠٧.

(٦٦) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٩٧.

(٦٧) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٩٩، و *Cambridge Medieval History*, vol. 4: *The Eastern Roman Empire (717-1453)*, p. 126.

(٦٨) المصدران نفسهما.

(٦٩) المصدران نفسهما، ج ١٠، ص ١٠٠ و١٠٩، وج ٤، ص ١٢٧ على التوالي.

٢ ـ الصلات بين الرشيد والهند والصين

كان العرب على اتصال بالصين والهند، وقد زاد ذلك في عصر الرشيد لتفشي الترف في المجتمع وتوسع حركة التجارة، فساعد ذلك على توسع شهرة العرب وإعلاء اسم خليفتهم. ولعل هذا يفسر لنا ما نسمع به من صلات سياسية بين الرشيد والهند والصين.

يحدثنا ابن عبد ربه[٧٠] عن وفد من أحد ملوك الهند إلى الرشيد يحمل هدايا من «سيوف قلعية وكلاب سيورية وثياب من الهند، وأن الرشيد لم تعجبه إلا الكلاب السيورية. أما بقية الهدايا، فلم تكن إلا عادية بنظره»، وأن الرشيد أكرم وفادتهم «ثم أمر بتحف كثيرة وأحسن جائزتهم به». وقد تصحّ هذه الرواية، ولكن فيها نص يثبت ضعفها، وهو أن الرشيد «لما أتته الرسل بالهدية أمر الأتراك، فصفوا صفين ولبسوا الحديد حتى لا يرى منهم إلا الحدق، وأذن للرسل فدخلوا عليه»، ونحن نعرف أن اصطناع الأتراك بهذه الدرجة لم يحصل إلا في خلافة المعتصم.

وتشير التواريخ الصينية إلى ذهاب عدة سفارات عربية إلى البلاط الصيني في القرن السابع والثامن للميلاد مرسلة من (Han - Mi Mo - Mini)، أي أمير المؤمنين أبي العباس (A-bu-lo-ba) ومن أبي جعفر المنصور (A-pu Cha'-fo) ومن هارون الرشيد (A-lun)، وهي تذكر ثلاثة وفود أرسلها الرشيد وصل أحدها سنة ١٨٢هـ/ ٧٩٨م[٧١].

ولكني أرى أن هذه الوفود كان يرسلها تجار العرب مع هدايا طريفة إلى البلاط لرفع مكانتهم. ويحدثنا المسعودي عن حصول سفارة من هذا القبيل في القرن التاسع الميلادي. ويجب أن نتذكر أنه كانت في بعض موانىء الصين الكبيرة، مثل كانتون، جاليات تجارية عربية ـ فارسية تدير شؤونها بنفسها تحت إشراف السلطات الصينية[٧٢].

---

(٧٠) المصدران نفسهما، ج ١٠، ص ١٠٠ و١٠٩، وج ٤، ص ١٢٧ على التوالي.

(٧١) عن علاقة العرب بالصينيين، انظر: *Chau Ju-Kua: His Work on the Chinese and Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries* (St. Petersburg: Print. Off. of the Imperial Academy of Sciences, 1911), and E. Bretschneider, *Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources: Fragments towards the Knowledge of the Geography and History of Central and Western Asia from the 13th to the 17th Century*, Trübner's Oriental Series, 2 vols. (London: K. Paul, Trench, Trübner and Co., Ltd., 1937), vol. 1, pp. 264-265.

ويسمي الصينيون العرب «Ta-shi»، وهي عن الفارسية القديمة «Tazi» محرفة عن طائي.

(٧٢) انظر قصة سليمان التاجر في: *Chau Ju-Kua: His Work on the Chinese and Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries*, and

أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، طبعة باربيه دو مينار وبافيه دو كورتيي، عني بتنقيحها وتصحيحها شارل بلا، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية؛ ١٠ (بيروت: الجامعة اللبنانية، ١٩٦٦)، ج ١، ص ١٦٦ وما بعدها.

٣ ـ الصلات بين هارون الرشيد وشارلمان

تخلو المصادر الشرقية، إسلامية ومسيحية، من الإشارة إلى أية صلة بين الرشيد وشارلمان، وتنفرد المصادر اللاتينية بذلك، ولكنها مضطربة وغامضة، فلا غرابة إن وجدنا تبلبل الكتّاب الغربيين ولجوءهم إلى الخيال لتفسير تلك الصلات. ولكنهم جميعاً (عدا بارتولد) يقررون صحتها، ثم يختلفون في تفسير نتائجها.

تذكر المصادر اللاتينية (وهي **حياة شارلمان** لاينهارد، و**الأخبار الملكية** ورواية الراهب سنت كول) أن شارلمان أرسل وفدين إلى الرشيد (سنة ١٨١هـ/ ٧٩٧م، وسنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢م) ورسولاً إلى بطريق القدس (سنة ١٨٣هـ/ ٧٩٩م)، فأجاب الرشيد بإرسال وفدين (سنة ١٨٥هـ/ ٨٠١م وسنة ١٩١هـ/ ٨٠٧م)، بينما أرسل بطارقة القدس أربع سفارات على الأقل إلى شارلمان (سنة ١٨٣هـ/ ٧٩٩م، وسنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م، وسنة ١٨٧هـ/ ٨٠٣م، وسنة ٨٠٧م/ ١٩١هـ)، وكان شارلمان هو البادئ بالمراسلة مع الرشيد.

وفي سنة ١٨١هـ/ ٧٩٧م أوفد شارلمان وفداً من ثلاثة أشخاص: لانتفريد وسجسموند يصحبهما يهودي اسمه إسحق مترجماً، وقضى الوفد في مهمته ثلاث سنوات توفي أثناءها الممثلان الأولان، ورجع إسحق وحده مع فيل في سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢م.

وفي سنة ١٨٥هـ/ ٨٠١م (أي قبل وصول إسحق) جاء وفد إسلامي إلى بلاط شارلمان، وكان يتألف من اثنين أحدهما فارسي عن الخليفة، والثاني مغربي عن إبراهيم بن الأغلب، وأخبرا شارلمان برجوع إسحق مع فيل وهدايا.

وبينما كانت سفارة سنة ١٨١هـ/ ٧٩٧م في الشرق حصل تبادل هدايا وصلات ودية بين بطريق القدس وشارلمان، وكان البادئ بها هو البطريق، إذ أرسل إلى شارلمان راهباً يحمل هدايا رمزية، ولما رجع ذلك الراهب أرسل شارلمان معه القسيس زكريا يحمل هبات إلى الأراضي المقدسة. وفي سنة ١٨٤هـ/ كانون الأول عام ٨٠٠م رجع زكريا إلى المغرب يصحبه راهبان عن بطريق القدس يحملان إلى شارلمان مفاتيح كنيسة القيامة ومفاتيح مدينة القدس وراية.

وفي سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢م أرسل شارلمان وفده الثاني إلى الخليفة، وتشير الأخبار الملكية إلى هذا الوفد من دون بيان مهمته. بينما يذكر إينهارد (Einhard) في كتابه **حياة شارلمان** *(Vita Caroli)* أن السفراء أخذوا هبات إلى كنيسة القيامة، ثم ذهبوا إلى الرشيد، «وعندما عرض السفراء رغبات سيدهم على الرشيد أجابها، وفضلاً عن

ذلك أوكل (الخليفة) إليه (شارلمان) أمر الأماكن المقدسة»[٧٣]. ولكن هلفن (Halphen) محقق كتاب أينهارد يرى أنه لا يمكن الوثوق بمعلومات ذلك المؤرخ الذي كان همه تفخيم اسم سيده. وعلى كل، فقد رجع هذا الوفد سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٦م. وفي خلال غيابه أرسل بطريق القدس جرجيس راهبين إلى شارلمان وصلا سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٣م، ولكن مهمتهما غير معروفة، ولا دليل على أن شارلمان ردّ على رسالتهما.

وفي أوائل سنة ١٩١هـ/ ٨٠٧م وصل إلى بلاط شارلمان رسول عن الخليفة (يدعى عبد الله) وراهبان عن البطريق توماس. وكان مع رسول الخليفة هدايا نفيسة (صيوان ملون بديع وأقمشة حريرية وعطور وبلسم وساعة مائية عجيبة وأوانٍ نحاسية. ويرى جورنسن (Joranson) أنه لا دليل على أن ممثل الخليفة والراهبين أرسلوا للمهمة نفسها، إذ إن المصادر اللاتينية تميّز بين البعثتين.

أما العوامل التي دعت إلى إنشاء العلاقات (كما يراها الغربيون)، فهي متعددة، منها رغبة شارلمان في فتح الأندلس وحاجته إلى تأييد الخليفة المعنوي لئلا يقف عرب الأندلس في وجهه كعدو للإسلام، كما فعلوا سنة ١٦١هـ/ ٧٧٨م حين هاجم شمال الأندلس وفشل. ثم هناك الخلاف بين شارلمان والبيزنطيين حول وراثة تاج الدولة الرومانية، ويزيد الأمر تعقيداً العداء بين البابا وبطريق القسطنطينية على السيادة الروحية للعالم المسيحي، ورغبة البابا (حليف شارلمان) بتقوية صلاته مع بطارقة الاسكندرية وأنطاكية والقدس ليقفوا إلى جانبه، ثم رغبة شارلمان في تسهيل الحج إلى الأراضي المقدسة وفي تكوين نفوذ معنوي له في تلك البقاع.

أما مصالح الرشيد، فهي ناتجة في زعمهم من خصومته مع البيزنطيين ورغبته في القضاء على نفوذهم المعنوي بين مسيحيي الشام والجزيرة بتقوية صلاتهم بالغرب، ثم عدائه لأمويي الأندلس ورغبته في بسط سيادته عليهم[٧٤].

وقبل أن نذكر تأويلات الغربيين لنتائج هذه الوفود، وهي تأويلات بنوها على التخمين غالباً، نذكر بعض الشكوك التي تساورنا في التفاصيل المذكورة، والتي تجعلنا نميل إلى نفي وجود صلات سياسية.

---

(٧٣) انظر: *Two Lives of Charlemagne*, translated with an introd. by Lewis Thorpe, Penguin Classics; L213 (Baltimore, MA: Penguin Books, 1969).

(٧٤) انظر: مجيد خدوري، **الصلات الدبلوماطيقية بين الرشيد وشارلمان** (بغداد: مطبعة التفيض الأهلية، ١٩٣٩)، ص ٢٣ وما بعدها؛ F. W. Buckler, *Harunu'l-Rashid and Charles the Great* (Massachusetts: [n. pb.], 1931), p. 170 ff; Einar Joranson, «The Alleged Frankish Protectorate in Palestine,» *American Historical Review*, vol. 32 (1927), pp. 241-246, and Steven Runciman, «Charlemagne and Palestine,» *English Historical Review*, vol. 50 (1935), pp. 606 ff.

قبل كل شيء يكتنف المصادر اللاتينية الأولية غموض واضطراب، فالمصدر الأول المعاصر، وهو **الأخبار الملكية** *(Annales Regni Francorum)* مقتضب لا يساعد على تعيين الصلات، بينما قصد أينهارد في كتابه **سيرة شارلمان** تفخيم سيده ورفع اسمه. وفي الكتاب أخطاء كثيرة ولا يعتمد عليه. أما الراهب سنت غول (St. Gall)، فهو من كتّاب الأساطير(٧٥). وقد اعتبر الأستاذ بارتولد هذه النقطة مع سكوت المصادر العربية حجة كافية لنفي وجود الصلات(٧٦).

ثم يظهر لي أن الباحثين فهموا ظروف شارلمان، ولم يفهموا وضع الرشيد، وهل كان يستوجب فتح صلات من هذا القبيل؟ فقد كان الرشيد هو المنتصر على البيزنطيين قبيل فتح العلاقات حتى اضطرهم إلى دفع الجزية سنة ٧٩٨م/ ١٨٢هـ، كما أنه لا دليل على أن مسيحيي الشام كانوا خطراً يذكر على سلامة الدولة في عهده. ثم هل كان الرشيد يعرف قوة شارلمان مع بعد المسافة واختلاف الدين؟ وهل يمكن أن يضع الخليفة ثقته بذلك الغريب لاسترجاع الأندلس؟ وهل يجوز لخليفة المسلمين أن يتفق مع مسيحي لضرب مسلمي الأندلس؟ وهل من المعقول أن يفكر الرشيد باسترجاع الأندلس في وقت اضطر فيه إلى أن يتخلى عن سلطته الحقيقية في أفريقية (تونس) والمغرب؟ كل هذه نقاط تنفي بصورة قوية وجود ما يدفع الرشيد إلى فتح صلات سياسية مع شارلمان. ومن جهة أخرى، كانت علاقة شارلمان مع البيزنطيين حسنة في هذا الدور، ففي سنة ٧٩٨م/ ١٨٢هـ أرسلت أيرين وفداً إلى شارلمان للمفاوضة في عقد حلف(٧٧)، واقترحت عليه الزواج، ولعلها سلمت بإعطائه لقب إمبراطور(٧٨). ثم هل كان عرب الأندلس يدينون بالطاعة للخليفة العباسي وهم لم يبايعوه، وقد حاربوا جده المنصور من قبل وهزموا جيشه؟ لا أرى ذلك.

وأخيراً يرى بارتولد أنه ليس من المعقول أن يكون الرشيد أرسل الفيل مع إسحق، بينما أرسل سفراءه مقدماً (بأياد فارغة)، ويرى أن إسحق كان من التجار اليهود المتاجرين بين الشرق والغرب، لا سفيراً(٧٩). ويقوي رأيه هذا أن مصدرين لاتينيين يذكران أن غاية الوفد الأول كانت الحصول على فيل(٨٠).

---

(٧٥) Joranson, Ibid., p. 251, and Runciman, Ibid, p. 619.

(٧٦) Buckler, Ibid., pp. 34-37.

(٧٧) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٧٨) المصدر نفسه، ص ٢٠ ـ ٢١.

(٧٩) المصدر نفسه، ص ٤٥.

(٨٠) Joranson, Ibid., p. 243.

أما في ما يخص نتائج الصلات، فيرى فاسيلييف (Vasiliev) أنه بينما حافظ الرشيد على سيادته على فلسطين، «صار لشارلمان بإذن الخليفة حق حماية المسيحيين والحجاج (في الأراضي المقدسة) وحق إنشاء كنائس وخانات في فلسطين»(٨١). أما برييه (Bréhier)، فيستنتج من قول أينهارد بأن الرشيد أجاب رغبات شارلمان (بحسب طلب الوفد الأول) وأعطاه حق حماية الأراضي المقدسة، كما إن إرسال البطريق مفاتيح كنيسة القيامة كان معناه تقديم الطاعة إلى الحامي الجديد.

وقد بيّن جورانسن أن آراء برييه مبنية على التخمين لا على تدقيق علمي، وأنه لا توجد معلومات شافية عن غرض الوفد الأول، وأن مصدرين لاتينيين يبيّنان أن غرضه الحصول على فيل، فحصل عليه. وليس هناك ما يدل على أنه حصلت بينهم وبين الخليفة مفاوضة سياسية، أو أنه كان بينهم وبين شارلمان اتصال بعد سفرهم، كما أننا لا ندري في ما إذا حصلت مفاوضة بين وفدي هارون وشارلمان، حتى إنه لا يوجد سجل بتاريخ رجوعه(٨٢). أما تقديم المفاتيح والراية من قبل البطريق، فلا يمكن أن يعطي معنى سياسياً لأن الرواة لا يعلقون عليه أهمية سياسية، بل يتفقون على أنه كان من باب الدعاء والتبريك (Benedictionis causa)، وإذاً «فإعطاؤه معنى سياسياً هو تحميل المصادر ما ليس فيها»، ولا دليل على وجود علاقة بين صلات الخليفة وصلات البطريق بشارلمان. ثم يستطرد جورانسن ويقول إن **الأخبار الملكية** لا تذكر مهمة الوفد الإفرنجي الثاني، وإن أينهارد يضيف من عنده أن رسل شارلمان كانوا يحملون هبات لكنيسة القيامة، وأنهم قدموا مطاليب، فقبلها الرشيد، ثم تكرم بمنح شارلمان حق الحماية على الأراضي المقدسة. ولكن اينهارد (في رأي جورانسن) لا يمكن الوثوق به، كما أنه يخلط بين هذه السفارة وإرسال زكريا بالهبات إلى كنيسة القيامة (سنة ١٨٣هـ/ ٧٩٩م)، ثم إنه لا يعرف طلبات الوفد، بينما كان أمر الحماية تخميناً من عنده ولا قيمة له(٨٣).

تبقى نقطة أخيرة، وهي أن شارلمان أرسل صدقات وهبات إلى فلسطين، فاستعملت في تعمير بعض الكنائس، وأنشأ منزلاً للحجاج باسمه، كما أنشأ مكتبة. ولكن ذلك لا يكفي، كما يرى جورانسن، للبرهنة على وجود حماية، وبخاصة أن اينهارد يذكر أن شارلمان «خطب ودّ الملوك وراء البحار لأنه أراد في الدرجة الأولى تحسين أحوال المسيحيين الذين يعيشون في ممالكهم»، وهذا لا

(٨١) المصدر نفسه، ص ٢٤١.

(٨٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٥.

(٨٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٨ ـ ٢٥٢.

يقتصر على الرشيد[٨٤]. وهكذا يدحض جورانسن أسطورة حماية شارلمان الأراضي المقدسة.

أما بكلر، فيعتقد أن الوفد الأول هو المهم، ومع أنه يعترف بأن تعاليم السفراء غير معلومة، فإنه يرى أن نجاح الرسالة يوحي بأنها كانت لغاية أو أكثر من ثلاث:

(١) تحديد وضع شارلمان حامياً للمصالح العباسية في الأندلس وفي غرب البحر المتوسط.

(٢) عقد حلف مع الرشيد يرمي إلى التعاون المتبادل، فيقف شارلمان ضد الأندلس، ويقف الرشيد ضد البيزنطين، أو السماح لأيرين بأن تعقد الصلح مع العباسيين (لعله نسي أن الصلح عقد سنة ١٨٢هـ/ ٧٩٨م).

(٣) فتح الطريق للحجاج اللاتين لزيارة الأراضي المقدسة وحمايتهم من ظلم الأرثوذكس[٨٥].

وهكذا يبني بكلر نظريته على الحدس، وهو يعترف بأن حالة المسيحيين لم تكن سيئة، ولكنه يقول إن سوء العلاقة بين الرشيد ونقفور استوجبت وضع تقييدات على المسيحيين، ولذلك توسط شارلمان في الموضوع[٨٦]. ويرى أن نتيجة المفاوضات كانت تعيين شارلمان والياً على القدس ضمن سيادة الخليفة العباسي، مستدلاً على ذلك بإرسال بطريق القدس مفاتيح المدينة والراية[٨٧]. وهذا المنصب لا يتطلب (في زعمه) حضور شارلمان إلى القدس، بل يقوم الرشيد بذلك كوكيل له[٨٨]. وكذلك عين شارلمان «أمير استيلاء» على الأندلس[٨٩].

ويقول بكلر إن هذه المفاوضات يجب أن تنظر بمنظار الدبلوماسية الإسلامية، وهو بذلك يجعل شارلمان والياً على القدس ضمن سيادة الخليفة العباسي، ومن جهة أخرى يجعل الخليفة وكيله في تنفيذ مهامه! ثم هو يجعل شارلمان «أمير استيلاء» على الأندلس مستنداً بذلك إلى تفسير الماوردي لـ «إمارة الاستيلاء». ولكن الماوردي يبيّن

---

(٨٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٥.

(٨٥) Buckler, Ibid., p. 22.

(٨٦) المصدر نفسه، ص ٢٦ ـ ٢٩.

(٨٧) المصدر نفسه، ص ٣٠.

(٨٨) المصدر نفسه، ص ٢٩، الهامش رقم (١).

(٨٩) المصدر نفسه، ص ٣٥.

أن إمارة الاستيلاء «تعقد عن اضطرار، فهي أن يستولي الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها، ويفوض إليه تدبيرها وسياستها، فيكون الأمير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير، والخليفة بإذنه متقلداً لأحكام الدين»[٩٠]، فكيف يرضى الخليفة بأن يكون لشارلمان حكم الأندلس، ثم يستأذن منه أن يطبق أحكام الدين؟ وهل كان الأمويون كفاراً ليرضى الرشيد بهذا الترتيب المزري؟ ثم كيف يطمح الرشيد باسترجاع الأندلس، ويعترف مقدماً بأن الحكم فيها سيكون لغيره؟ وأخيراً نقول إن التضييق على المسيحيين كان بعد المفاوضة المزعومة لا قبلها، وذلك لضرورات عسكرية. وهكذا نرى بكلر يتخبط في موضوع لا يفهم كنهه، ويفرض فروضاً لا أساس لها في الفقه أو التاريخ الإسلامي.

أما رنسيمان، فيرى في نظرية حماية شارلمان على فلسطين أسطورة اخترعها المؤرخ الأسطوري الراهب سنت غول الذي كتب حوالى خمسين سنة بعد وفاة شارلمان، إذ جمع المعلومات عن الهدايا التي أرسلها الخليفة والبطريق مع معلومات أينهارد المضطربة ليكون قصة مضمونها أن الرشيد تنازل لشارلمان عن سيادة فلسطين وأرسل إليه وارداتها[٩١].

ويظهر هذا الأمر من نظرية الحماية وأساسها الأسطوري، والذي أراه من هذه المعلومات المحدودة (ولم أظفر بالنص في المصادر اللاتينية الثلاثة أو **الأخبار الملكية الإفرنجية**) هو احتمال وجود نوع من الصلات، ولكنها كانت صلات تجارية لا سياسية، وأن المسؤول عنها هم التجار اليهود العالميون الذين كانوا حلقة وصل بين الغرب والشرق، ولعلهم من اليهود الرادانية الذين كانوا يحسنون عدة لغات ويتاجرون بين فرنسا والأقطار الإسلامية والصين، كما بيّن ابن خرداذبة[٩٢]، وبخاصة أن من أساليب التجار آنئذ أن يدّعوا بأنهم سفراء لتسهيل مصالحهم.

٤ ـ الرشيد والبرامكة

كان البرامكة «من أهل بيوتات بلخ»[٩٣]، وكانوا سدنة معبد النوبهار فيها[٩٤].

---

(٩٠) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، **الأحكام السلطانية** (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٠٩)، ص ٢٧.

(٩١) Runciman, «Charlemagne and Palestine,» p. 629.

(٩٢) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة، **كتاب المسالك والممالك**، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦، باعتناء ميخائيل جان دوغويه (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٦٧)، ص ١٥٤.

(٩٣) المقدسي، **البدء والتاريخ (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي** = *Le Livre de la creation et de l'histoire de Motahhar ben Tahir el-Maqdisi*، ج ٦، ص ١٠٤.

(٩٤) شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، [تحقيق] محمد أمين الخانجي، ٨ ج (القاهرة: جمالي وخانجي، ١٩٠٦)، ج ٨، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.

ويرى بعض المؤرخين[٩٥] أن معبد النوبهار كان بيتاً من بيوت النار الزرادشتية المهمة، ولكن الأرجح أنه كان معبداً بوذياً، كما يتضح من أقوال ابن الفقيه والقزويني وأحد الرحالة الصينيين الذي زاره ووصفه[٩٦].

وينتسب البرامكة إلى «برمك»، وهو ليس اسم لشخص، وإنما هو لقب لكبير سدنة النوبهار. يقول المسعودي في حديثه عن النوبهار: «وكان الموكل بسدنته يدعى «البرموك»، وهو سمة عامة لكل سدنته، ومن أجل ذلك سميت «البرامكة» لأن خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت»[٩٧]، ويؤيده ابن الفقيه وياقوت في ذلك[٩٨].

وأول من اتصل بالعباسيين من البرامكة خالد بن برمك الذي كان متصلاً بمحمد بن علي، ثم بإبراهيم الإمام بعده[٩٩]. وكان من رجال الدعوة البارزين، ويظهر أنه كان إدارياً قديراً[١٠٠]. ويذكر الجهشياري عنه أنه كان يتولى تقسيم الغنائم في عسكر قحطبة، وأنه عهد إليه بتنظيم الخراج في خراسان[١٠١]. وبعد بيعة أبي العباس ولّي ديوان الخراج وديوان الجند[١٠٢]، وبعد مقتل الخلال كان يقوم مقام

---

(٩٥) كالمسعودي، وشمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ٢ ج (القاهرة: الحلبي، ١٣١٠هـ/[١٨٩٢م])، ج ٢، ص ٢٤٣. ويميل إلى هذا الرأي أيضاً براون، انظر: Edward Granville Browne, *Literary History of Persia*, 4 vols. (Cambridge [Eng.]: University Press, 1928-1929), vol. 1: *From the Earliest Times until Firdawsi*, p.257.

(٩٦) يقول عنه ابن الفقيه إنه لعبادة الأصنام، انظر: أحمد بن حمد بن الفقيه الهمذاني، **مختصر كتاب البلدان**، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٥ (ليدن: مطبعة بريل، ١٣٠٢هـ/[١٨٨٤م؟])، ص ٣٢٢. ويقول القزويني: «كان بها (بلخ) النوبهار، وهو أعظم بيت من بيوت الأصنام»، ثم يقول: «وملوك الهند والصين يأتون إليه». انظر: أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، تحقيق وستنفلد عن مخطوطات برلين، غوطا وليدن (ليدن: غوتنجن، ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩)، ص ٢٢١، ويؤيده ياقوت الحموي في كتابه: **معجم البلدان**، ج ٨، ص ٣٢١. وانظر أيضاً: مقالة بارتولد عن البرامكة، في: **دائرة المعارف الإسلامية**، ج ١، ص ٦٦٤.

(٩٧) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** (١٩٦٦)، ج ٢، ص ٣٨١ ـ ٣٨٢.

(٩٨) ابن الفقيه الهمذاني، المصدر نفسه، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ حيث يقول: «فسموا سادتها (النوبهار) الأكبر برمكاً» ويقول ياقوت الحموي، «وكانوا يسمون السادن الأكبر برمكاً». انظر: ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٣٢٢، و**دائرة المعارف الإسلامية**، ج ١، ص ٦٦٣.

(٩٩) أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر، **التاريخ الكبير**، اعتنى بترتيبه وتصحيحه عبد القادر بدران، ٥ ج في ٣ (دمشق: مطبعة روضة الشام، ١٣٢٩ ـ ١٣٣٢هـ/[١٩١١ ـ ١٩١٣م؟])، ج ٥، ص ٢٨.

(١٠٠) انظر: اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٢، ص ٨٠.

(١٠١) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٨٧.

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٨٩.

الوزير[١٠٣]. ثم كان خالد من كبار مشاوري المنصور، فولّي له ديوان الخراج[١٠٤]، وولي عدة ولايات كولاية فارس، ثم ولاية الري وطبرستان ودنباوند[١٠٥]. ومما يذكر عنه أنه أشار على المنصور بعدم هدم إيوان كسرى عندما فكر بذلك لحاجته إلى مواد البناء، فعلق المنصور على ذلك قائلاً: «أبيت إلا الميل إلى أصحابك العجم»[١٠٦].

وقد حافظ خالد على نفوذه في خلافة المهدي، فيذكر الجهشياري أن هذا الخليفة ولاه مقاطعة فارس «فقسط الخراج على أهلها ووضع عنهم خراج الشجر وكانوا يلزمون له خراجاً ثقيلاً»، ثم غضب عليه الخليفة، فشفعت له الخيزران، فرد إلى منزلته[١٠٧]، وهذه هي البادرة الأولى للتعاون بين البرامكة والخيزران.

وفي سنة ١٦١هـ (٧٧٧ ـ ٧٧٨م) عهد المهدي إليه بتربية ابنه هارون[١٠٨]. ولما قاد هذا الأمير الصائفة سنة ١٦٣هـ (٧٧٩ ـ ٧٨٠م) قلّد المهدي خالداً كتابة ابنه ونفقاته وتدبير أمر عسكره، فأنجز مهمته بنجاح وحسن أثره لدى الخليفة[١٠٩]. وقد توفي خالد سنة ١٦٥هـ (٧٨١ ـ ٧٨٢م).

واعتنى خالد بتربية إبنه يحيى، فلا عجب أن عينّ هذا كاتباً للأمير هارون الذي ولي على المغرب (الأراضي الواقعة غرب الفرات سنة ١٦٣هـ/ ٧٨٠م)[١١٠].

ولما بويع الهادي أقر يحيى على وظائفه، ويذكر الجهشياري «أن الهادي أمر يحيى أن يقوم بأمر هارون أخيه وأقره على كتابته وتدبير الأعمال التي كانت إليه»[١١١]. ولما عزم الهادي على خلع الرشيد أدى يحيى دوراً مهماً في إنقاذ هارون وفي نقل الخلافة إليه، كما أنه كان في تعاون تام مع الخيزران[١١٢].

---

(١٠٣) المصدر نفسه، وابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٥٩، ويقول البعض إنه استوزره، انظر أيضاً: المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٢٩٩؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ١، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧، وابن عساكر، **التاريخ الكبير**، ج ٥، ص ٢٨.

(١٠٤) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٩٩.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص ٩٩ و٢٣٦.

(١٠٦) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٩، ص ٢٦٠، وابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(١٠٧) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٥١.

(١٠٨) انظر مادة «البرامكة»، في: **دائرة المعارف الإسلامية**.

(١٠٩) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٥٠.

(١١٠) انظر: مادة «البرامكة» في: **دائرة المعارف الإسلامية**، والطبري المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣٢٤.

(١١١) انظر: الجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٦٩، والطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٣.

(١١٢) انظر: المصدران نفسهما، ص ١٦٩ ـ ١٧١، وج ١٠، ص ٣٣ ـ ٣٥ على التوالي.

ثالثاً: البرامكة قبل الرشيد

من هذا العرض الموجز يتضح لنا أن البرامكة أدوا دوراً ذا شأن قبل خلافة الرشيد، ولكنه ثانوي بالنسبة إلى سلطتهم ونفوذهم في عهد هذا الخليفة.

فلما بويع الرشيد بالخلافة، عرف ليحيى فضله وخدمته، فقلده وزارته وأعطاه سلطة تكاد تكون مطلقة، وقال له: «يا أبت، أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم بما ترى واستعمل من شئت وأسقط من رأيت، فإني غير ناظم معك في شيء»[١١٣]. ويقول الجهشياري: «وكانت الدواوين كلها إلى يحيى بن خالد سوى ديوان الخاتم»[١١٤]. ثم عهد هذا الديوان إلى يحيى سنة ١٧١هـ/ ٧٨٧م، «فاجتمعت له الوزارتان»[١١٥]. وخصّ الرشيد يحيى بامتيازات جديدة، فهو «أول من أمّر من الوزراء... وكانت الكتب التي تنفذ من ديوان الخراج تؤرخ باسم يحيى بن خالد، ولم تكن تنفذ إلا عن الخليفة»[١١٦]. ويقول عنه الفخري: «وكان يحيى... كاتباً بليغاً لبيباً أديباً سديداً صائب الآراء حسن التعبير... قوياً على الأمور جواداً حليماً عفيفاً»[١١٧]. وقد استطاع بمساعدة ولديه الفضل، وهو الأكبر، وجعفر، من إدارة الامبراطورية العباسية سبع عشرة سنة (١٧٠ ـ ١٨٧هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٣م).

والفضل هو أخو الرشيد بالرضاعة[١١٨]، وهو جدّي بطبعه، وفي أخلاقه خشونة[١١٩]. وكان أبوه يقدمه على جعفر[١٢٠]، ويظهر أنه كان أكثر من أخيه أهمية في الإدارة الفعلية. ويروي الفخري أن الرشيد قال يوماً ليحيى: «يا أبي ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفراً بذلك؟ قال يحيى: لأن الفضل يخلفني»[١٢١]. وقد ولي الفضل ولايات مهمة وانتدب لمهمات خطيرة، فهو الذي أخمد

---

(١١٣) المصدران نفسهما، ص ١٧٧؛ ج ١٠، ص ٥٠، وابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ٢، ص ٤٤٣.

(١١٤) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٧٧.

(١١٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٥١.

(١١٦) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

(١١٧) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٧٩.

(١١٨) المصدر نفسه، ص ١٨٣، والطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٤٨.

(١١٩) ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ١٨٦.

(١٢٠) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٨٩.

(١٢١) ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ١٨٦.

ثورة يحيى بن عبد الله العلوي بمهارة ومن دون سفك دماء. وقد ولاه الرشيد سنة ١٧٦هـ/ ٧٩٢م على الجبال وطبرستان ودنباوند وأرمينية[١٢٢]. وفي سنة ١٧٨ ـ ١٧٩هـ/ ٧٩٥م ولاه على خراسان. ويقول الطبري إنه أحسن السيرة فيها[١٢٣]. ويبيّن الجهشياري أنه أحرق «دفاتر البقايا» وزاد في رواتب الجند والقواد وأكرم الكتّاب[١٢٤]. وتنسب إليه بعض الأعمال العظيمة في أثناء ولايته خراسان كإنشاء جيش خراساني من خمسمائة ألف سماهم «العباسية»، وبناء مساجد ورباطات كثيرة وحفر قناة في بلخ[١٢٥]. وهذا كثير إذا لاحظنا أن مدة ولايته كانت سنة واحدة، وأنه كان مشغولاً في أول أمره بالأنس والملذات حتى عابه والده على ذلك[١٢٦]. ولعل هذا مثل من أمثلة مبالغات الكتّاب في أعمال البرامكة.

وقد عهد الرشيد إلى الفضل بتربية الأمين[١٢٧]. ويقول الطبري إن الفضل أدى دوراً في البيعة للأمين، إذ إنه «لما تولى خراسان أجمع على البيعة لمحمد. . . فلما تناهى الخبر إلى الرشيد بذلك وبايع له أهل المشرق بايع لمحمد وكتب إلى الآفاق»[١٢٨]. ولكن اليعقوبي يبيّن أن البيعة للأمين كانت في سنة ١٧٦هـ/ ٧٩٢م[١٢٩]، وأخيراً نذكر أن الفضل كان أول من أشعل المصابيح في المساجد في شهر رمضان[١٣٠].

وهكذا تتضح أهمية الدور الذي أداه الفضل في الدولة، وأنه اقتصر على الأشغال الرسمية ولم يؤد دوراً مهماً في حياة البلاط لطبيعته الجدّية[١٣١]، فذكر ابن كثير أن الفضل أكبر رتبة عند الرشيد من جعفر، وأن جعفراً كان أحظى عند الرشيد من أخيه وأخص[١٣٢].

---

(١٢٢) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٥٤.

(١٢٣) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٦٣.

(١٢٤) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٩٠.

(١٢٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٦٢ ـ ٦٣، و**دائرة المعارف الإسلامية**، ج ١، ص ٦٦٣.

(١٢٦) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** (١٩٦٦)، ج ٣، ص ٢٨٤.

(١٢٧) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٩٣.

(١٢٨) المصدر نفسه، والطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٥٣.

(١٢٩) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٤٠.

(١٣٠) **دائرة المعارف الإسلامية**، ج ١، ص ٦٦٣.

(١٣١) يذكر الجهشياري أن الفضل كان لا يشرب النبيذ، وكان يقول: لو علمت أن الماء ينقص من مروءتي لما شربته، انظر: الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٩٤، والطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٨٢.

(١٣٢) أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير، **البداية والنهاية في التاريخ**، ١٤ ج (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٢٩ ـ ١٩٣٩)، ج ١٠، ص ٢١٠ ـ ٢١١.

وأما جعفر، فقد كان شاباً[133] مترفاً ظريفاً اشتهر بفصاحته وبيانه، ويقول عنه الفخري: «كان جعفر فصيحاً لبيباً ذكياً فطناً كريماً حليماً»[134]. وكانت توقيعاته على رقاع المتظلمين نماذج للكتّاب. يقول الجهشياري: «كان جعفر كاتباً بليغاً، وكان إذا وقّع نسخت توقيعاته وتدورست بلاغاته»[135]. وكان مشهوراً بالتأنق بلباسه ومسكنه[136]، ومما يذكر عنه أنه أول من أدخل لبس الأطواق (الياخة) لطول رقبته[137].

١ ــ نفوذ البرامكة في عصر الرشيد

والظاهر أن جعفراً اختص بمنادمة الرشيد وخدمته لسهولة أخلاقه[138]، وكان يلازمه دائماً عدا سنة ١٨٠هـ/ ٧٩٧م حين ذهب لتهدئة العصبية القبلية في الشام. وهناك إشارات إلى تولية جعفر على بعض الولايات، ولكنه كان يرسل نواباً عنه. ففي سنة ١٧٦هـ/ ٧٩٢م ولاه الرشيد المغرب من الأنبار إلى أفريقية، فأرسل نائباً عنه[139]. وكذلك انتدب من ينوب عنه حينما ولي خراسان سنة ١٨٠هـ/ ٧٩٧م[140]. ولهذا، ولانشغاله بخدمة الرشيد، فإنه يصعب معرفة مدى مشاركته في تسيير سياسة الدولة، وربما كان دوره السياسي ضعيفاً بالنسبة إلى دور أخيه وأبيه.

ولكن جعفراً كان واسع النفوذ لأنه كان أكثر البرامكة اتصالاً بالرشيد صديقاً ونديماً. ويقول الجهشياري: «وغلب جعفر على الرشيد غلبة شديدة حتى صار لا يقدّم عليه أحداً»[141]. وقد بالغ الكتّاب في وصف تلك العلاقة، فيقول الجهشياري إن الرشيد كان «يسمي جعفراً أخي ويدخله معه في ثوبه»[142]. وقال آخر: إنه «كان

---

(١٣٣) كان سنة سبع وثلاثون سنة عندما قتل.

(١٣٤) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٨٦.

(١٣٥) انظر: الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٠٤ و٢١٠.

(١٣٦) انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية في التاريخ**، ج ١٠، ص ١٨٩، وابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ١٨٧.

(١٣٧) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **البيان والتبيين**، حققه وشرحه حسن السندوبي، ط ٢ (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٢)، ج ٣، ص ٢١٢.

(١٣٨) ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ١٨٦.

(١٣٩) انظر: الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٩٠، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، ٢ ج في ١ (القاهرة: [د. ن.]، ١٣٢١ هـ/ [١٩٠٣؟م])، ج ٢، ص ٨ ـ ٩.

(١٤٠) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٨٦، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ٦١.

(١٤١) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٨٩.

(١٤٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٤.

يجلس معه في حلة واحدة قد اتخذ لها جيبان»[١٤٣]. وبنتيجة هذه الألفة وصلت دالة جعفر على الرشيد إلى حد بعيد، كما يظهر من وعد جعفر لعبد الملك بن صالح العباسي، وقد زاره مساء، بتنفيذ رغباته، وهي «أن في قلب أمير المؤمنين هنة فتسأله الرضى عني، فقال: قد رضي عنك أمير المؤمنين. قال: وعليّ أربعة آلاف درهم تقضي عني، قال: إنها لعندي حاضرة ولكن اجعلها من مال أمير المؤمنين. قال: وابني إبراهيم، أحب أن أشد ظهره بصهر من أولاد الخليفة، قال: قد زوجه أمير المؤمنين الغالية. قال: وأحب أن يخفق لواء على رأسه، قال: قد ولاه مصر». وفي اليوم التالي نفذ الرشيد ما قاله جعفر[١٤٤]، وهذه الحادثة أثارت استغراب المؤرخين أنفسهم[١٤٥].

وهكذا بلغ جعفر منتهى التنفذ والإدلال، فكان يحيى يخاف عاقبة هذه الصلة الشخصية حتى قال للرشيد يوماً: «يا أمير المؤمنين إني أكره مداخل جعفر، ولست آمن أن ترجع العاقبة عليّ في ذلك منك، فلو أعفيته واقتصرت على ما يتولاه من جسيم أعمالك لكان أحبّ إلي وأولى بتفضيلك وآمن عليه عندي»[١٤٦]. وكم نصح يحيى ابنه بالإقلاع عن اندفاعه ولكن من دون جدوى[١٤٧]؟

ومما نوّه باسم جعفر أن الخليفة أشركه معه بالنظر في المظالم[١٤٨]، وقلده مراقبة دور الضرب والطرز[١٤٩] والبريد[١٥٠]. وقد كانت توليته على دور الضرب بدعة جديدة، وامتيازاً عجيباً، ويشرح المقريزي ذلك، فيقول: «وهارون الرشيد أول خليفة ترفّع عن مباشرة العيار بنفسه، وقد كان الخلفاء من قبله يتولّون النظر في عيار

---

(١٤٣) عبد الملك بن عبد الله بن بدرون، **شرح قصيدة ابن عبدون** (القاهرة: مطبعة السعادة، [د. ت.])، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(١٤٤) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢١٣ ـ ٢١٤؛ ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ٨٧ ـ ٨٨، وابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ١، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

(١٤٥) انظر: أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، ٤ ج (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف النظامية، ١٣٣٧ ـ ١٣٣٩هـ/[١٩١٨ ـ ١٩٢٠م؟])، ج ١، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦، والجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

(١٤٦) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٨٣، والجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢٢٥.

(١٤٧) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(١٤٨) المصدر نفسه، ص ٢٠٤.

(١٤٩) الطرز: (جمع طراز) وتعني في هذا العصر معامل النسيج الخاصة بالخليفة لحياكة الخلع والملابس والأعلام والستائر والشارات الرسمية. انظر: مادة «طراز (Tiraz)» في: **دائرة المعارف الإسلامية**، الملحق.

(١٥٠) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢٠٤.

الدراهم والدنانير بأنفسهم، وكان هذا مما نوّه باسم جعفر بن يحيى البرمكي، إذ هو شيء لم يتشرف به أحد قبله». كما إن الرشيد أمر بكتابة اسم جعفر على الدنانير والدراهم في مدينة السلام وفي المحمدية(١٥١).

وعهد إلى جعفر بتربية المأمون وتدريبه. ويقال إنه أشار على الرشيد بالبيعة لهذا الأمير بعد الأمين(١٥٢). ويروى أنه أكد على الأمين إيمانه حين علّق كتاب العهد(١٥٣).

نرى من هذا العرض أن الرشيد أعطى البرامكة سلطات كبيرة، وأفسح لهم المجال في الأمور، فكان لهم أثر مهم في تسيير دفة الدولة، وبخاصة في حياة الخيزران، ولكن يجب ألا يستنتج من ذلك أن الرشيد كان عاملاً لا يعتدّ به أو أن البرامكة كانوا أحراراً في جميع تصرفاتهم وغير خاضعين لرقابة الرشيد. وهناك أمور تدل على أن الخليفة كان يراقبهم، وأنهم لم يكونوا دائماً مسيطرين على كل شيء. ولعل تعليق الرشيد على رقعة أرسلها إليه يحيى من السجن (يستعطفه ويذكر له حرمته وتربيته له) تبينّ لنا وجهة نظره، إذ وقّع على ظهر الرقعة: «إنما مثلك يا يحيى ما قال الله عز وجل: ﴿**وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**﴾(١٥٤) كما أن يحيى في أوج عظمته لم يكن يستبد برأيه، بل كان يستشير الخيزران (تلك المرأة الطموحة الدساسة) دائماً، فيقول الطبري: «وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور، وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن أمرها»(١٥٥). ويقول الجهشياري: «وقام يحيى بالأمور وكان يعرض على الخيزران ويورد ويصدر عن أمرها»(١٥٦).

وقد كان أوج عز البرامكة في حياة الخيزران، فلما توفيت سنة ١٧٣هـ (٧٨٩ ـ ٧٩٠م)(١٥٧) فقد يحيى بوفاتها حليفاً مهماً. ويمكن ملاحظة أثرها من أن الرشيد أخذ

---

(١٥١) أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، **شذور العقود في ذكر النقود** (النجف: [د. ن.: د. ت.])، ص ١١ و٢١.

(١٥٢) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢١١.

(١٥٣) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** (١٩٦٦)، ج ٣، ص ٢٧٢.

(١٥٤) **القرآن الكريم**، «سورة النحل،» الآية ١١٢، واليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(١٥٥) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٥٠.

(١٥٦) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٧٧.

(١٥٧) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٥١.

الخاتم يوم وفاتها من البرامكة وسلمه إلى عدوهم الفضل بن الربيع وقال له: «وحق المهدي . . . إني لأهم لك من الليل بالشيء من التولية وغيرها، فتمنعني أمي فأطيع أمرها»[١٥٨]. وفي سنة ١٧٩هـ/ ٧٩٥م صرف محمد بن خالد بن برمك من حجابته وقلدها الفضل بن الربيع[١٥٩]. وفي السنة التالية ولّى علي بن عيسى بن ماهان أحد أعداء البرامكة على خراسان ضد رغبة يحيى[١٦٠]، وإذا علمنا أن خراسان هي أهم ولايات المملكة استطعنا تقدير خطورة تلك التولية. ويذكر الجهشياري أن الرشيد أخذ الحرس من جعفر وقلده هرثمة بن أعين[١٦١].

وهكذا يظهر أن الرشيد بحكم ظروف بيعته وصداقة الخيزران والبرامكة أعطى هؤلاء سلطة كبيرة، فاشتطوا، ثم توفيت أمه فأخذ يسعى بالتدريج لتشذيب تلك السلطة ولمعادلتها بتقريب أعدائهم، ولكنه أدرك عظم خطرهم، فأخذ يسعى إلى نكبتهم حتى نجح أخيراً سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٢م.

وقبل البحث عن أسباب النكبة أقول إنه من الصعب إعطاء فكرة وثيقة عن الدور الذي لعبه البرامكة لأن الرواة يتعصبون لهم أو عليهم، فبينما يصفهم البعض بالديانة والميل لبناء المساجد وأعمال الخير، إذ يتهمهم خصومهم بالزندقة، الا أن أعداءهم في ميادين الأدب والتاريخ قليلون إلى درجة تكون معدومة، بينما نجد أنصارهم لا يحصون، ويرجع ذلك إلى وجود الكتّاب الأعاجم المتعصبين لهم (مثل سهل بن هارون) الذين يطنبون في مدحهم. ثم إن المؤرخين يتعصبون للكتّاب، والبرامكة كانوا كتّاباً، بل يعتبرون أيضاً من مؤسسي هذه الطبقة، فسكت الكتّاب عن أخطائهم. ولهذا، كما يقول بارتولد: «لا يصح الاعتماد على القول بأن عصر الرشيد تدهور بزوال البرامكة»[١٦٢]. ولا ننس أثر كرم البرامكة على الناس بعامة.

وهذا التطرف من خصوم البرامكة وأصدقائهم، مع شدة تكتم الرشيد في الإقدام على عمله[١٦٣]، فسح المجال للأراجيف والإشاعات، وجعل بعض المؤرخين

---

(١٥٨) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٥٢.

(١٥٩) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

(١٦٠) انظر: المصدر نفسه، ص ٢٤٨.

(١٦١) المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

(١٦٢) انظر: مادة «البرامكة»، في: **دائرة المعارف الإسلامية**، ج ١، ص ٦٦٤ وما بعدها.

(١٦٣) انظر: اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٥٢؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ١، ص ١٠٨، والطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٨٦.

يتخبطون في ظلام من أمر النكبة، ويختلفون في تعليلها، فيقول المسعودي: «واختلف في سبب ذلك»[١٦٤]. ويقول اليعقوبي: «وأكثر الناس في أسباب السخط عليهم مختلفون»[١٦٥]. ويقول الطبري: «أما سبب غضبه عليه ـ جعفر ـ الذي قتله عنده فإنه مختلف فيه»[١٦٦]. ويقول أبو الفداء: «وقد اختلف الناس في سبب ذلك (نكبة البرامكة) اختلافاً كثيراً»[١٦٧].

ولنستعرض الآن الآراء والروايات المختلفة. وأول ما يتبادر إلى الذهن قصة العباسة أخت الرشيد التي انتشرت بين العامة قديماً وحديثاً لمسحتها العاطفية، وأول من أفرد لها كتاباً خاصاً هو الأتليدي وكان بعنوان: **إعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس.** ويكفي الباحث أن يقرأه ليرى شكله الأسطوري واضطرابه وبعده عن الدقة. ثم انتشرت القصة في الوقت الحاضر بتأثير رواية زيدان: **العباسة أخت الرشيد**، ورواية: **الرشيد والبرامكة** للأب أنطون اليسوعي[١٦٨]. وقد نغض النظر عن هذين الكتابين، إذ ذهب التدقيق التاريخي فيهما ضحية التسلية والمتعة، وإن كنا نلوم المؤلفينْ على اتخاذ موضوع كهذا لترقية فن الرواية التاريخية.

وقد أرخى بعض المحدثين الذين كتبوا في التاريخ، كالمدور[١٦٩] وخدابخش[١٧٠] العنان لخيالهم وقبلوا القصة بشكلها الأسطوري، ولكني لا أشك في أنها موضوعة. إن الدينوري صاحب كتاب: **الأخبار الطوال**، واليعقوبي، ذلك المؤرخ العراقي الذي عرف الشؤون الداخلية جيداً، لا يذكرانها، والجهشياري وهو من فحول مؤرخي العراق ومن أوثق المصادر يفندها، إذ يروي أن عبيد الله بن يحيى بن خاقان سأل مسروراً الكبير[١٧١] في خلافة المتوكل عن سبب إيقاع الرشيد بالبرامكة، فأجاب مسرور: «كأنك تريد **ما تقوله العامة فيما ادّعوه من أمر المرأة. . .**

---

(١٦٤) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** (١٩٦٦)، ج ٣، ص ٢٨٤.

(١٦٥) انظر: اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥٤، وابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٩٠.

(١٦٦) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٧٩.

(١٦٧) عماد الدين اسماعيل بن علي أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر: تاريخ أبي الفداء**، ٤ ج في ٢ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٢٥هـ/[١٩٠٧م])، ج ٢، ص ١٦.

(١٦٨) أنطون رباط، **الرشيد والبرامكة** (بيروت: [د. ن.]، ١٩١٠).

(١٦٩) المدور، **حضارة الإسلام في دار السلام**، ص ٣٦٣.

(١٧٠) S. Khuda Bukhsh, *Contributions to the History of Islamic Civilization*, 2 vols. (Calcutta: [n. pb.], 1929-1930), vol. 2, pp. 116-117.

(١٧١) مسرور هو الذي قتل جعفر، وكان موضع ثقة الرشيد ورئيس البريد أو قل رئيس الشرطة السرية.

لا والله ما لشيء من هذا أصل»[١٧٢]، وابن كثير يقول: «ومن العلماء من أنكر ذلك (أي قصة العباسة)[١٧٣]. ويفهم من ابن قتيبة أن العباسة كانت متزوجة، إذ يقول: «أما العباسة فزوجها هارون محمد بن سليمان، فمات عنها، فزوّجها من إبراهيم بن صالح بن علي»[١٧٤]. وأخيراً جاء ابن خلدون فنبذها بكل احتقار مبيّناً أنها مدسوسة.

وهناك نقطة مهمة، وهي أن نكبة البرامكة لم تكن فجائية كما يتصور البعض، ولا كانت نتيجة ثورة عاطفية أو عصبية كما يقول بعض الكتّاب[١٧٥]، بل بعد تفكير طويل. ويروي ابن عبد ربه عن إسحق بن علي بن عبد الله بن العباس أن الرشيد أخبره بشكه في تصرفات البرامكة وشاوره في أمرهم «ثم كان قتلهم بعد ست سنين من تاريخ ذلك اليوم»[١٧٦]. ويروي اليعقوبي عن إسماعيل بن صبيح الكاتب أنه قال: «بعث إلي الرشيد يوماً فقال: إني أريد أن أوقع بآل برمك إيقاعاً ما أوقعته بأحد وأجعلهم أحدوثة ونكالاً إلى الأبد... ثم حال الحول وحول ثان ثم حول ثالث، فلما كان رأس الحول الرابع قتلهم»[١٧٧]. ويروي الجهشياري عن السندي بن شاهك (صاحب الشرطة) أن الرشيد أسرّ إليه أن يستعد للقبض على البرامكة وحجز أموالهم قبل سنة من تنفيذ العقوبة[١٧٨]. وهذه الروايات تبيّن أن الرشيد تروّى مدة طويلة قبل نكبة البرامكة.

ولبارتولد رأي طريف في نكبة البرامكة، مجمله أن المذهب الشيعي انتشر في إيران بين الطبقات العامة لأنها وجدت فيه وسيلة لمقاومة الأمويين السنّة، وأن الأرستقراطية الفارسية اتفقت موقتاً مع العامة واجتمعت تحت راية أبي مسلم «وهو أحد رؤساء الشيعة» وحاربوا الأمويين، «ولما بلغوا الغاية تباينت المنافع، فقتل أبو مسلم وقام أنصاره ضد العباسيين، وقد ثابر البرامكة ممثلو الطبقة الأرستقراطية على العمل لصالح الخلفاء العباسيين إلى أن صاروا ضحية ردّ الفعل الديني في أواخر

(١٧٢) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٥٤.
(١٧٣) ابن كثير، **البداية والنهاية في التاريخ**، ج ١٠، ص ١٨٩.
(١٧٤) ابن قتيبة، **المعارف**، ص ١٦٦.
(١٧٥) Syed Ameer Ali, *A Short History of the Saracens; Being a Concise Account of the Rise and Decline of the Saracenic Power and of the Economic, Social and Intellectual Development of the Arab Nation from the Earliest Times to the Destruction of Bagdad, and the Expulsion of the Moors from Spain* (London: Macmillan, 1934), p. 210; Bukhsh, *Contributions to the History of Islamic Civilization,* vol. 2, p. 117, and Browne, *Literary History of Persia*, vol. 1: *From the Earliest Times until Firdaws!*, p. 257.
(١٧٦) أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، **العقد الفريد**، صححه وشرح غريب ألفاظه أحد أفاضل العصر، ٤ ج (القاهرة: محمود شاكر، ١٩١٣)، ج ٣، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.
(١٧٧) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٥٢ ـ ١٥٣.
(١٧٨) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

خلافة هارون الرشيد»[١٧٩]. وفي هذا الرأي نقطتان: **الأولى** وهي أن النزاع الطبقي في إيران بين العامة والأرستقراطية والنزاع السياسي بين الفرس والعرب، بدا بثوب مذهبي بشكل نزاع بين الشيعة والسنة، و**الثانية** هي أنه بعد القضاء على الأمويين رجع النزاع الطبقي الذي نُسي أثناء النضال ضد الأمويين. ولكن بارتولد انحرف عن الصواب في هذا التفسير، لأن المذهب الشيعي لم ينتشر في إيران بشكل واسع آنئذ[١٨٠]، ولأن الدعوة كانت عباسية والشيعة شيعة بني العباس لا شيعة العلويين كما أوضحنا في الفصل الأول. وإذا سلمنا جدلاً أن الأرستقراطية انضمت موقتاً إلى المذهب الشيعي فإن الخلافات رجعت بعد الانتصار على الأمويينن ورجع الأرستقراطية (وممثلوهم البرامكة) إلى الاتحاد مع الدولة الحاكمة (كما يقول بارتولد)، وفي تلك الحالة لا يمكن اعتبار البرامكة شيعة. ثم ليس هناك ما يدل على أن الرشيد كان يغضى عن الشيعة العلوية أو يتسامح معهم، وأنه حصل لديه رد فعل ديني في أواخر أيامه. وأخيراً، يجب أن نميّز بين وجود ميول علوية عند البرامكة وتسميتهم شيعة، فالفرق كبير بين الحالتين.

أما رأي الدكتور الرفاعي[١٨١] بأن البرامكة كانوا معتزلة، فأدى ذلك إلى نكبتهم، فليس هناك ما يؤيده، ولم يبيّن لنا الدكتور ما حمله على ذكر رأي كهذا.

٢ ـ أسباب نكبة البرامكة

هذه مجمل الآراء والإشاعات التي صادفتها في تفسير نكبة البرامكة. وأنا ارى أنها نتجت من أسباب متنوعة مشتبكة أثرت في الرشيد خلال فترة استخدامه البرامكة، ويمكن إجمالها بما يلي:

أ ـ السبب السياسي

لقد أظهر البرامكة ميولاً سياسية خطرة على سلامة الدولة، وأخطر مثل لذلك إطلاق جعفر (أو الفضل) يحيى بن عبد الله من السجن: «حرماً لدماء أهل البيت بزعمه ودالة على السلطان في حكمه»[١٨٢] من دون معرفة الرشيد، فأخبره الفضل

---

(١٧٩) ف. بارتولد، **تاريخ الحضارة الإسلامية**، نقله من التركية إلى اللغة العربية حمزة طاهر؛ قدم له عبد الوهاب عزام (القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٢)، ص ٦٥ ـ ٦٦.

(١٨٠) انظر: جبريالي، **المأمون والعلويون** (بالإيطالية).

(١٨١) رفاعي، **عصر المأمون**، ج ١، ص ١٨٥.

(١٨٢) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، طبعة مصطفى محمد (بيروت: [د. ن.: د. ت.])، ص ١٦.

بن الربيع بذلك. وعندئذ استفسر الخليفة من جعفر فاعترف بما فعل، فلم يظهر له تأثره، بل قال: «نعم فعلت، ما عدوت ما كان في نفسي»، ثم قال بعد ذهاب جعفر: «قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك»[١٨٣]. ويقول الطبري عند إيراد هذه الرواية: «ذكر أبو محمد اليزيدي، وكان فيما **قيل من أعلم الناس بأخبار القوم** قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن فلا تصدقه»، ما يدل على أهمية هذه الحادثة. ويبينّ الجهشياري أن الرشيد اتهم يحيى البرمكي بأنه أرسل مئتي ألف دينار إلى يحيى بن عبد الله عندما خرج بالديلم[١٨٤].

ويذكر الأصبهاني أن الرشيد غضب على الفضل بن يحيى لأنه دفع إليه الإمام موسى بن جعفر وأراد منه فعل شيء «فلم يفعله وبلغه أنه عنده في رفاهية وسعة»، فأرسل إلى السندي بن شاهك في بغداد (والرشيد آنئذ في الرقة) بجلد الفضل، وصرح بحضور يحيى: «أيها الناس إن الفضل قد عصاني وخالف طاعتي، فرأيت أن ألعنه»، ولكن يحيى أرضى الرشيد في الأخير[١٨٥]. ويؤيد الجهشياري هذه الرواية، إذ يقول: «ثم ظهر من الرشيد سنة ١٨٣هـ سخط على الفضل بن يحيى، فشخص إلى الرقة ومعه أمه... فرضي عنه... ولم يرد إليه شيئاً من أعماله»[١٨٦].

ويروي الطبري أن علي بن عيسى بن ماهان «اتهم موسى بن يحيى البرمكي عند الرشيد في أمر خراسان وأعلمه طاعة أهلها له ومحبتهم إياه، وأنه يكاتبهم ويعمل على الانسلال إليهم والوثوب به معهم، فوقر ذلك في نفس الرشيد عليه وأوحشه منه». وقد أثّرت هذه التهمة في الرشيد حتى إنه أمر بسجن موسى سنة ١٨٦هـ/ ٨٠١م، ثم أطلقه بعد توسط أم الفضل، وبعد وعد يحيى بأن ابنه لن يقوم بسوء[١٨٧].

وهكذا نرى تكدر العلاقة بين الرشيد والبرامكة نتيجة تصرفات جعفر واتهام الفضل وموسى في الناحية السياسية، ما ولد عند الرشيد شكاً عميقاً بنياتهم. وقد قال الأربلي: «وقيل أرادت البرامكة إفساد الملك فقتلهم الرشيد لذلك»[١٨٨].

---

(١٨٣) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٨٠ ـ ٨١.

(١٨٤) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٤٣.

(١٨٥) أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبين**، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(١٨٦) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢٢٧.

(١٨٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٨٣.

(١٨٨) الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك**، ص ١٠٦.

ب ـ السبب المالي

تسلط البرامكة على أموال الدولة، وتطرفوا في إنفاقها بحسب ميولهم وقيّدوا الرشيد في هذه الناحية. ويقول ابن خلدون: «إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واجتحافهم أموال الجباية حتى كان يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه». ثم يقول: «وتسيرت إلى خزائنهم في سبيل التزلف ولاستمالة أموال الجباية»[189]. ويبيّن الجهشياري مدى سيطرة البرامكة في الناحية المالية حين يقول: «وكان البرامكة قد فارقوا الرشيد على شيء يطلقونه له من المال للحوادث سوى نفقاته وما يحتاج إليه هو وعياله، وأنه طلب من جعفر عشرة آلاف درهم، فقال: لا توجد عندنا دراهم»[190]. هذا مع العلم بأن وارد الدولة بلغ في عهد الرشيد ٥٣٠,٣١٢,٠٠٠ درهم[191]. ويروي الجهشياري أن الرشيد طلب مرة من يحيى مليون درهم، وكان قد ورد من فارس ستة ملايين درهم، فلم يجب طلبه، ثم أخذ يحيى منها مليوناً ونصفاً وفرقها في عماله[192].

ومن جهة أخرى امتلك البرامكة الضياع وأسرفوا في العطايا والهبات حتى أوغروا صدر الرشيد ونافسوه في الأبهة والجاه، فقد بنى جعفر داراً أنفق عليها عشرين مليوناً من الدراهم[193]. ويقول الدميري: «قتل جعفر لأنه قد حاز ضياع الدنيا لنفسه، وكان الرشيد إذا سافر لا يمر بضيعة ولا بستان إلا قيل هذا لجعفر»[194]. ويروي الجهشياري أن يحيى لما أحس بتغير الرشيد عليه شاور في أمره صديقاً له من الهاشميين، فقال هذا: «إن أمير المؤمنين قد أحبّ جمع المال وكثر ولده، فأحبّ أن يعقد لهم الضياع وقد كثر على أصحابك عنده، فلو نظرت إلى ما في أيديهم من ضياع وأموال فجعلتها لولد أمير المؤمنين، وتقربت بها اليه رجوت لك السلامة»، ولكن يحيى لم يرض بذلك[195]. ويروى أن الرشيد قال لمسرور: إن البرامكة «قد نهبوا مالي وذهبوا بخزائني»[196]. ويذكر الأتليدي أن الرشيد كان يقول: «أغنيناهم (أي

---

(١٨٩) ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، ص ١٥ ـ ١٦.

(١٩٠) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(١٩١) المصدر نفسه، ص ٢٨٨.

(١٩٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٣.

(١٩٣) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٨٢.

(١٩٤) كمال الدين محمد بن موسى الدميري، **حياة الحيوان الكبرى: وبهامشه عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات لزكريا بن محمد بن محمود القزويني**، ٢ ج في ١ (بولاق: المطبعة الميمنية، ١٣٠٥هـ/ [١٨٨٧م؟]).

(١٩٥) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٧٧.

(١٩٦) المصدر نفسه، ص ٢٤٢.

البرامكة) وأفقروا أولادنا، ولم تكن لأحد من أولادنا ضيعة من ضياع البرامكة»[١٩٧]. وقد ضرب الرشيد يحيى مائتي سوط ليقرّ له بما أخفاه من الأموال[١٩٨].

ويمكننا الحصول على فكرة تقريبية لما أخذه البرامكة من أموال الدولة إذا نظرنا إلى واردهم السنوي وإلى عظم الهبات التي وهبوها. ويذكر ابن عبد ربه وابن قتيبة أن مبالغ جباية البرامكة سنوياً بلغت عشرين مليون درهم، وأن مقدار ما قبضه الرشيد من أموالهم بلغ ثلاثين مليوناً وستمئة ألف درهم (أو ستمئة ألف وستة وسبعين ألف درهم)، إضافة «إلى سائر ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورياشهم والدقيق والجليل من مواهبهم، فإن ذلك لا يوصف أقله ولا يعرف أيسره إلا من أحصى الأعمال وعرف منتهى الآجال»[١٩٩]. ويروي الجهشياري أن مسروراً الخادم وجد أكثر أموال البرامكة على شكل ضياع وجوهر، بينما أنفقوا أكثر الدراهم في المكارم[٢٠٠].

أما عطايا البرامكة وهباتهم، فهي أشهر من أن تذكر[٢٠١]. وقد ضرب جعفر دنانير خاصة للصلات يقلد بها الخلفاء. ويذكر الخطيب البغدادي أنه وجد في خزانة لجعفر بن يحيى في صرة ألف دينار قيمة كل دينار مئة دينار ودينار، ويقول إن جعفراً أمر أن تضرب دنانير في كل منها ثلاثمئة دينار[٢٠٢]. ويذكر الجهشياري أنه وجد في بركة لجعفر أربعة آلاف دينار وزن كل دينار مئة دينار ودينار[٢٠٣].

لذلك أنستغرب إذاً استنكار الرشيد تبذير البرامكة أموال الدولة واستئثارهم بها بينما قيدوه في نفقاته!

ج ـ ميول البرامكة الفارسية

إن ميول البرامكة الفارسية أفسحت المجال لاتهامهم، وقد ظهرت هذه الميول في مناسبات مختلفة على الرغم من تحفظهم، فيحيى قرب بني سهل وهم مجوس،

---

(١٩٧) محمد دياب الأتليدي، **أعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس** (القاهرة: [د. ن.: د. ت.])، ص ١١٥.

(١٩٨) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

(١٩٩) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ٢ ج في ١ (القاهرة: مطبعة النيل، [١٣٣١هـ/ ١٩١٢م])، ج ٢، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٤، وابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج ٣، ص ٢٦١.

(٢٠٠) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢٤٢.

(٢٠١) انظر: المصدر نفسه، ص ١٩٢ و٢٢٢ ـ ٢٢٣؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١، ص ٦٢، وأبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، باعتناء سالمون (باريس: [د. ن.]، ١٩٠٤)، ج ٧، ص ١٥٢.

(٢٠٢) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٥٦.

(٢٠٣) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢٤١.

وعرّف المأمون بالفضل بن سهل وكان مجوسياً آنئذ، وطلب من المأمون تقريبه وقال عنه: «في كل أربعين سنة يحدث رجل يجدد الله به دولة وأنت (يخاطب الفضل) عندي منهم»[٢٠٤]. وحادثة هدم إيوان كسرى مشهورة، فينسب الطبري المشورة بعدم هدمه إلى خالد، بينما ينسبها الجهشياري إلى يحيى زمن الرشيد ويقول إن الرشيد علق على رأي يحيى قائلاً: «هذا من ميلك إلى المجوسية»[٢٠٥]. وأي الروايتين صحت (وأنا أميل إلى الأولى) فإنها تتفق وميول البرامكة الفارسية[٢٠٦]. ويقول إبن النديم إن البرامكة تكره محمد بن الليث لأن فيه ميلاً إلى العجم[٢٠٧].

وقد حاول البرامكة إبعاد العرب عن مناصب الدولة المهمة، ويتضح ذلك في وشايتهم ضد القائد العربي يزيد بن مزيد الشيباني الذي أرسله الخليفة لقتال الوليد بن طريف، وكان يزيد يرى استعمال التأني والمخاتلة مع الخوارج، «وكانت البرامكة منحرفة عنه، فقالوا للرشيد إنما يتحاشى قتال الوليد لوجود الرحم بينهما وهوّنوا أمر الوليد، فغضب عليه الرشيد»[٢٠٨]. ويذكر البيروني أن الفرس اجتمعوا إلى يحيى بن خالد وسألوه أن يؤخر النوروز (الانقلاب الصيفي وموعد الجباية) نحو شهرين ليتفق مع موعدي الجباية ونضوج الحاصل كما كان الحال زمن الساسانيين، «فعزم (يحيى) على ذلك، فتكلم أعداؤه فيه وقالوا إنه يتعصب للمجوسية، فأضرب عن ذلك»[٢٠٩].

ولعل هذه السياسة ولّدت تكتلاً بين رجالات العرب ضدهم. ويرى بارتولد أن البرامكة شكلوا شبه حزب فارسي في الدولة، وقابلهم العرب بالمثل، فتشكل حزب ضدهم وترأسته زبيدة زوج الرشيد[٢١٠]. وكانت زبيدة تكره البرامكة كثيراً وتشكوهم إلى الرشيد، بينما كان يحيى يضايقها ويقيّد تصرفاتها، فعاتبه الرشيد مرة على أثر شكاية لها «فقال: أمتهوم في حرمك؟، قال (الرشيد): لا. فقال: لا تقبل قولها عليّ»[٢١١]. وذكر المسعودي أن زبيدة ضغنت على جعفر البرمكي لأنه أكد على

---

(٢٠٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

(٢٠٥) المصدر نفسه، ص ٢٢٩.

(٢٠٦) انظر: Browne, *Literary History of Persia*, vol. 1: *From the Earliest Times until Firdaws!*, p. 259.

(٢٠٧) أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم، **الفهرست** (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٤٨هـ/ [١٩٢٩م])، ص ١٧٥.

(٢٠٨) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ٥٧، وأبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، ج ١١، ص ٨ ـ ٩.

(٢٠٩) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*، تحقيق إدوارد ساخو (ليبزج: [د. ن.: ١٨٧٨])، ص ٣٢ ـ ٣٣.

(٢١٠) انظر مادة «البرامكة»، في: **دائرة المعارف الإسلامية**، ج ١، ص ٦٦٣.

(٢١١) اليافعي، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، ج ١، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

الأمين في الكعبة بألا يغدر بأخيه المأمون «فكانت أحد من حرض الرشيد على أمره وبعثه على ما نزل به»[٢١٢].

ثم إن استئثار البرامكة بالوظائف وحصرها في أقاربهم وأتباعهم[٢١٣] جعل بعض الشخصيات غير العربية كعلي بن عيسى بن ماهان الذي لم يكن من حزبهم، والفضل بن الربيع الذي لم يكن من صنائعهم، تتعاون مع الكتلة العربية لإسقاطهم والتنكيل بهم.

د ـ مخاوف الرشيد من تعاظم نفوذ وجاه البرامكة

وأثار البرامكة مخاوف الرشيد بجاههم وتعاظم نفوذهم، ويقول الفخري: «وقيل إن جعفراً والفضل ظهر منهما من الإدلال ما لا تحمله نفوس الملوك، فنكبهم لذلك»[٢١٤]. ويقول ابن خلدون: «وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب»[٢١٥]. ويرى ابن العماد أن الرشيد نكب البرامكة لأنه رأى إقبال الناس عليهم وكثرة أتباعهم وأشياعهم مع الإدلال العظيم منهم[٢١٦]. ويذكر اليافعي خوف الرشيد منهم لأنه «رأى... أنس النعمة بهم وكثرة حمد الناس لهم وآمالهم فيهم ونظرهم إليهم دونه»[٢١٧]. ويمكننا لمس شعور الرشيد في هذه الناحية من رواية الجهشياري بأن الرشيد كان في أوائل حكمه جالساً على شرفة قصر الخلد، فسمع صيحة عظيمة، وعندما عرف أنها خارجة عن المتظلمين الذين اجتمعوا حول يحيى بن خالد قال: «بارك الله عليه وأحسن جزاءه، فقد خفف عني وحمل الثقل دوني وناب منابي»، وعندما سمع الضجة نفسها من المحل نفسه بعد سنين عديدة قال: «فعل الله بيحيى وفعل (يذمه ويسبه)، استبد بالأمر دوني وأمضاها على غير رأيي وعمل بما أحبه دون محبتي»[٢١٨].

---

(٢١٢) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** (١٩٦٦)، ج ٦، ص ٣٧٢.

(٢١٣) انظر: ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، ص ١٦. ويروي ابن خلدون أن بني قحطبة، وهم أخوال جعفر، كانوا من أعداء البرامكة، ولعل ذلك ناتج من كون القحاطبة عرباً يمانيين.

(٢١٤) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٢١٥) ابن خلدون، المصدر نفسه، ص ١٦.

(٢١٦) أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن عماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ٨ ج (القاهرة: مكتبة القدسي، ١٣٥٠ ـ ١٣٥١هـ/[١٩٣١ ـ ١٩٣٢م؟])، ج ١، ص ٣١١.

(٢١٧) اليافعي، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، ج ١، ص ٤١٠.

(٢١٨) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

وإضافة إلى ما ذكرنا، كانت علاقة جعفر بالرشيد خطرة لأنها كانت تستند إلى العواطف (الصداقة)، والعواطف معرضة للتقلب. وقد أدرك يحيى ذلك، فشكا إلى الرشيد قائلاً: «والله أكره مداخلة جعفر معك، ولست آمن أن ترجع العاقبة في ذلك عليّ منك، فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك واقعاً بموافقتي وآمن لك عليّ». وحاول أن ينبه ابنه إلى خطورة تصرفاته، فلم يفد ذلك، ولما يئس من إرشاده قال له: «إني إنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك، وإن كنت لأخشى أن تكون التي لا وشى لها»(٢١٩).

وكان للوشاية أثرها في نكبة البرامكة، إذ حاول خصومهم انتهاز كل فرصة لإيغار صدر الخليفة عليهم. وقد أدى الفضل بن الربيع الدور الأكبر، وساعده على ذلك كونه حاجب الرشيد وعلى اتصال دائم به. يقول ابن خلكان: «وسعى الفضل بهم، وتمكن بالمجالسة من الرشيد، فأوغر قلبه عليهم ومالأه بها على ذلك كاتبهم إسماعيل بن صبيح»(٢٢٠). وكان يضع الفضل العيون عليهم، وقد أخبره أحد جواسيسه بإطلاقهم يحيى بن عبد الله(٢٢١). ووشى علي بن عيسى بموسى بن يحيى واتهمه بالتآمر مع أهل خراسان ضد الخليفة، وأتهمهم الأصمعي وآخرون بالزندقة. ويذكر ابن خلكان أن رجلاً أوصل إلى الرشيد قصيدة جاء فيها تحذير له من نفوذ البرامكة وعظم سلطتهم وإنذار له من وثبتهم على السلطان، وأنها أثرت في الرشيد. وجاء محمد بن الليث إلى الرشيد يذكره بواجباته ويبيّن له خطأه في تفويض الأمور إلى يحيى و«أن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً وقد جعلته في ما بينك وبين الله، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه فسألك عما عملت في عباده وبلاده، أترى تحتج بحجة يرضى بها؟». ويبيّن الطبري أن هذا القول كان له أثر في نكبة البرامكة(٢٢٢).

وهكذا جاء خصوم البرامكة من جهة السياسة والدين والدولة وحاولوا إثارة شكوك الرشيد في تصرفاتهم، إلا أن أثر هذه الوشايات قوي بعد تنكر الرشيد للبرامكة(٢٢٣).

---

(٢١٩) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٨٣.

(٢٢٠) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ١، ص ٤١٢.

(٢٢١) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٨١.

(٢٢٢) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٨٠.

(٢٢٣) المصدر نفسه.

اجتمعت العوامل المذكورة ودفعت الرشيد إلى نكبة هذه الأسرة، فاستعمل طريق الحكمة في ذلك بأن بدأ بتشذيب سلطتهم، وتدرج حتى نكبهم أخيراً سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٢م، «وأمر بالنداء في جميع البرامكة ألا أمان لمن آواهم إلا محمد بن خالد وولده وحشمه وأهله، فإنه استثناهم لما ظهر من نصيحة محمد له، وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة»[٢٢٤]، ما يبيّن أن الجريمة اعتبرت عامة، وأنها تتعلق بسلامة الدولة. وقد عوملوا أول الأمر بشيء من اللطف والترفيه، ثم اتهموا بعد سنة بالتآمر مع عبد الملك بن صالح ضد الخليفة، فعوملوا بعد ذلك بشدة[٢٢٥]. وتوفي يحيى سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٥م، والفضل سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٨م (قبيل وفاة الرشيد) في السجن[٢٢٦]. ولما أفضت الخلافة إلى الأمين أطلق محمداً وموسى بن يحيى من الحبس في الرقة «ووصل جماعة آل برمك الرجال والنساء وأكرمهم» ولكنه لم يستخدمهم[٢٢٧]. وأكرمهم المأمون أيضاً.

هذه نهاية البرامكة، وهي رمز للتضارب بين سلطة الوزراء وسلطة الخلفاء، كما أنها دليل على التباين بين مصلحة الخلفاء العباسيين وميول وزرائهم الفرس، ذلك التباين الذي ظهر جلياً في تصرفات الخلال من قبل، وفي تصرفات بني سهل في خلافة المأمون.

ويبالغ البعض في أثر نكبة البرامكة، ويرون أن انحلالاً سرى في المملكة بعدهم[٢٢٨]. وهذا ضرب من التحيز، لأن دور فعالية الرشيد في حروبه مع البيزنطيين كان بعد نكبتهم كما لاحظنا، كما أنه أبدى همة في إدارة الدولة، فعزل علي بن عيسى عن خراسان، وأصلح الحال هناك، وخرج سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٨م لمحاربة رافع بن الليث بنفسه[٢٢٩]. ولكني أرى أن سقوطهم أدى إلى زيادة الخصومة بين الفرس والعرب، فظهرت قوية أثناء النزاع بين الأمين والمأمون.

---

(٢٢٤) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٨٥.

(٢٢٥) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ٧١.

(٢٢٦) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٠٩.

(٢٢٧) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٢٢٨) انظر: المصدر نفسه، ص ٢٦٥ و٢٥٨؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ٢، ص ٢٤٦، والمدور، **حضارة الإسلام في دار السلام**، ص ٣٥٨ ـ ٣٦٠.

(٢٢٩) يرى بارتولد أن سقوط البرامكة لم يؤثر في الدولة كثيراً. انظر: **دائرة المعارف الإسلامية**، ج ١، ص ٦٦٣.

رابعاً: الإداريات

رجع نفوذ الحرم إلى قوته في خلافة الرشيد، فقد كانت أمه الخيزران تتدخل في شؤون الدولة وكان لها صوت مسموع، ويظهر أن ابنها لم يكن يستطيع مخالفة رغباتها[٢٣٠]. كما إن زوجته زبيدة أخذت تتدخل في السياسة بعد وفاة الخيزران. ولم يكن الرشيد متشدداً في محاسبة العمال إن لم يظهر منهم ما يدل على العصيان، ففظائع علي بن عيسى بن ماهان مشهورة. وهذا الفضل بن يحيى البرمكي في أثناء ولايته على خراسان يهب عامله على سجستان خراج منطقته (أربعة ملايين درهم وخمسمائة ألف درهم)، إضافة إلى الغنائم التي غنمها ذلك العامل من غزوة كابل وقدرها سبعة ملايين درهم[٢٣١]. وربما كانت قلة المحاسبة متعلقة بإهمال شؤون البريد في خلافة الرشيد، فيذكر الجهشياري «أن أمور البريد والأخبار في أيام الرشيد كانت مهملة، وأن مسروراً الخادم كان يتقلد البريد والخرائط ويخلفه عليه ثابت الخادم. قال: فحدثني ثابت أن الرشيد توفي وعندهم أربعة آلاف خريطة لم تفض»[٢٣٢].

وفي خلافة الرشيد استحدث منصب قاضي القضاة. واهتم الخليفة بالعدل بين الرعية، «وأقام رجال العدالة في جميع البلدان لكتابة العقود على روابط الشرع» لحفظ حقوق الناس في معاملاتهم وديونهم، وجعل لهم دكاكين ومصاطب خاصة في المحلات العامة ليسهل وصول الناس إليهم[٢٣٣]. واهتم بحفظ الأمن في العاصمة بدسّ شبكة من العيون بإمرة صاحب الشرطة لمنع الاضطراب الذي يحصل من كثرة الوافدين إليها، وأقام الحراس في الليل لمحافظة الدروب[٢٣٤].

وفي هذا العهد حفر نهر القاطول، وكذلك نهر أبي الجند، وأنفق عليه عشرون مليون درهم[٢٣٥]. وخفف الخليفة سنة ١٩٢هـ/ ٨٠٧م ضريبة الخراج في السواد، إذ «وضع . . . عن أهل السواد العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف»[٢٣٦].

ويروي الجهشياري أن الرشيد «أمر بإجراء القمح على أهل الحرمين وتقدم

(٢٣٠) انظر: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٥٤.

(٢٣١) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٦٤.

(٢٣٢) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٦٥.

(٢٣٣) المدور، **حضارة الإسلام في دار السلام**، ص ١٣٣ ـ ١٣٤، وابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، ص ٢٢٥.

(٢٣٤) المدور، المصدر نفسه، ص ١٣٤.

(٢٣٥) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٧٧.

(٢٣٦) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٥١.

بحمله من مصر إليهم، وأجرى على المهاجرين والأنصار وعلى وجوه أهل الأمصار وعلى أهل الدين والآداب والمروءات»، وسعى لنشر العلم، فأنشأ «كتاتيب» لليتامى[٢٣٧].

واهتم الرشيد بقضية ولاية العهد، وكان لظروف حكمه ولوضع الحاشية حوله أبلغ الأثر في السياسة التي انتهجها في هذا الباب. وقد مرت خمس سنوات من حكمه من دون أن يعهد لأحد، فحرك ذلك أطماع البارزين من بني العباس، وجعله يسرع في الأمر. يقول الطبري: «وكانت جماعة بني العباس قد مدّوا أعناقهم إلى الخلافة بعد الرشيد لأنه لم يكن له ولي عهد، فلما بايع له (أي للأمين) أنكروا بيعته لصغر سنه»[٢٣٨]. وكان من المنتظر أن يعهد لابنه عبد الله (المأمون) لأنه يكبر محمداً (الأمين) بسنة، ولكنه عدل عنه إلى الأمين نزولاً عند رغبة زبيدة وبني هاشم أخوال محمد. ويروي الأربلي على لسان الرشيد: «ولولا أم جعفر، وميل بني هاشم إليه (أي الأمين) لقدمت عبد الله عليه»[٢٣٩]. ويؤيده المسعودي الذي يبين أن الرشيد عرف أن بني هاشم «مائلون إلى محمد بأهوائهم»، ولذلك بايع له[٢٤٠]. وهكذا «عقد الرشيد (سنة ١٧٥هـ/ ٧٩٢م) لابنه محمد في مدينة السلام من بعده ولاية عهد المسلمين، وأخذ له بذلك بيعة القواد والجند، وله يومئذ خمس سنين»[٢٤١].

ثم بايع الرشيد سنة ١٨٣هـ/ ٧٩٩م لابنه عبد الله بولاية العهد بعد الأمين وسماه «المأمون»، وولاه خراسان وما يتصل بها من حد همذان إلى آخر المشرق[٢٤٢]. ويظهر أنه كان لجعفر يد في ذلك، فقد روي عن الأمين أنه قال: «إن رأي الرشيد (في البيعة للمأمون) كان فلتة شبهها عليه جعفر بن يحيى بسحره واستماله برقاه»[٢٤٣]. ولعل الرشيد أراد أن يؤكد رأيه، فبايع للمأمون بعد أن جعله الهاشميون يقدم الأمين، وهناك احتمال ثالث وهو رغبة الرشيد في حفظ الخلافة في نسله، فدفعه ذلك إلى البيعة للمأمون بعد الأمين لأن الأمين كان آنئذ صغير السن والمستقبل غامض. أما الرأي الذي تردده المصادر، وهو أن انحلال أخلاق الأمين ونبل المأمون

---

(٢٣٧) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٧٧.

(٢٣٨) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٥٣.

(٢٣٩) الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك**، ص ٨٧.

(٢٤٠) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** (١٩٦٦)، ج ٣، ص ٢٧١.

(٢٤١) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٥٣ و٧٢، واليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٤٠. وعلى رواية أخرى (ضعيفة) يجعلها الطبري سنة ١٧٣هـ.

(٢٤٢) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٧٢، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ٦٥.

(٢٤٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٣٦.

دفع الرشيد إلى البيعة للمأمون، ففيه نظر لأن كلاً من وليي العهد كان حدثاً لم تظهر مزاياه بكاملها في ذلك الوقت[٢٤٤]. وفي سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢م بايع الرشيد لابنه القاسم بعد المأمون ولقبه «المؤتمن» وولاه الجزيرة والثغور والعواصم، وكان ذلك بتأثير عبد الملك بن صالح مربي القاسم.

وهكذا أعاد الرشيد خطأ أسلافه في العهد، ويعلّق ابن الأثير على ذلك قائلاً: «وهذا من العجائب، فإن الرشيد قد رأى ما صنع أبوه (المهدي) وجده (المنصور) بعيسى بن موسى حتى خلع نفسه من ولاية العهد، وما صنع أخوه الهادي ليخلع نفسه من العهد، فلو لم يعاجله الموت لخلعه، ثم هو يبايع للمأمون بعد الأمين وحبك الشيء يعمي ويصم»[٢٤٥]. ولكن الرشيد زاد الطين بلة بتقسيمه الامبراطورية بين أولاده الثلاثة، وحصره منطقة الأمين بالعراق والمغرب[٢٤٦]. ولعل ذلك نتيجة رغبته في تنفيذ وصيته، ومنعاً لنكث الأمين ببنود عهد شذب سلطة ذلك الأمير.

وفي سنة ١٨٦هـ/ ٨٠١م حجّ الرشيد «ومعه ولداه وقواده ووزراؤه وقضاته، فلما قضى مناسكه كتب إلى عبد الله المأمون ابنه كتابين أجهد الفقهاء والقضاة أراءهم فيهما، **أحدهما** على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه وتسليم ما ولّى عبد الله من الأعمال وصيّر عليه من الضياع والغلات... والأموال. و**الآخر** نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم»، وعلق الكتابين في الكعبة ليزيد في قدسية عهده وليؤكد تنفيذه[٢٤٧].

ومن هذا نرى أن التباين بين رغبة الرشيد الخاصة وميول الحاشية وبني هاشم أدى إلى هذا التخليط وجرّ الويلات على الدولة العباسية كما سنرى.

خامساً: كلمة ختامية

يمكننا، بعد إلقاء نظرة عامة على حكم الرشيد، أن نعتبره في مصاف أعاظم الملوك، إذ كان قائداً موفقاً، وخليفة يهتم بخير الرعية، فكان أول من طلب من الفقهاء كتابة رسالة في الخراج وطرق جمعه وصرفه بأساليب عادلة، ويعتني بنشر العدل ويشجع حركة الترجمة، ولم يتوان في القيام بواجبه.

---

(٢٤٤) انظر: المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** (١٩٦٦)، ج ٣، ص ٢٧١.

(٢٤٥) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٦٥.

(٢٤٦) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٧٢.

(٢٤٧) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٧٣.

ولكنه ترك بذرة شقاق بولاية العهد حتى أدرك الناس خطر الانفجار في حياته، فيروي الطبري: «قال بعض العامة: قد أحكم أمر الملك. وقال بعضهم: بل قد ألقى بأسهم بينهم وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة»[٢٤٨].

وسمح للحرم بالتدخل في شؤون الدولة بعد أن وضع الهادي حداً لذلك.

وأبدى قصر نظر في علاقته بالبيزنطيين لأنه لم يستفد من مشاكلهم الداخلية، ولم يحاول اتباع انتصاراته، بل كان يكتفي بالجزية، ولعل هذا يبيّن أنه كان مقلداً في سياسته ولم يكن بانياً أو مبتكراً مثل المنصور.

وأفسح المجال كثيراً لعواطفه في سياسته، وبخاصة في علاقته بالبرامكة، فكان لذلك أثر في شدة نكبتهم، وفي تكوين حزبين سياسيين في البلاط تتناحر بالدسائس، ما عاد بالضرر الجسيم على الدولة بعد وفاته.

وفي عصره كان بدء التفسخ السياسي في الدولة، فانفصلت مراكش نهائياً وأصبحت أفريقية (تونس) شبه مستقلة.

وأخيراً نقول إن بغداد وصلت إلى حد بعيد من العظمة في خلافته، كما تقدمت الحضارة والعلوم، ولكن أوج بغداد كان في القرن الثالث، كما إن دور نضوج الحضارة والمؤسسات الإسلامية كان في دور متأخر.

---

(٢٤٨) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٧٢.

الفصل السابع

الخلاف بين الأمين والمأمون(*)

(*) ١٩٣ ـ ١٩٨ هـ/ ٨٠٨ ـ ٨١٣ م.

مقدمة

دخلت عوامل متعددة في إثارة النزاع بين الأمين والمأمون، بعضها ناتج من ظروف أحاطت بالأخوين ولم تكن من صنعهما (وهذا ما سأذكره في المقدمة)، وبعضها الآخر كان من تدبيرهما، وإن كان مرتبطاً بالأوضاع السابقة.

فقد كان عهد الرشيد صعب التحقيق لاختلاف ميول وليي العهد من جهة، ولصعوبة بعض شروط العهد من جهة أخرى، إذ اقتصرت سلطة الخليفة الأمين على جنوب العراق والشام وشبه الجزيرة ومصر، وقيّد في علاقته مع المأمون بشكل جعل أخاه مستقلاً فعلاً في الولايات الشرقية، ولعل الفقرات التالية من العهد توضح ذلك: «ليس لمحمد بن أمير المؤمنين أن يحول عنه (عن المأمون) قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين، ولا يحول عبد الله بن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولاه إياها هارون. . . ولا يولي عليها أحداً ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله وولاة أموره بنداراً ولا محاسباً ولا عاملاً، ولا يدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير ضرراً، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره»[1]. وهذه بذرة خلاف أكيدة لأنه «لا يجتمع فحلان في أجمة» كما قال الأمين[2]. وقد أدرك بعض المعاصرين هذا الخطر.

وكان بنو هاشم حزباً مع الأمين يؤيدونه ويلتفون حوله، وقد اعترف الرشيد نفسه بقوة نفوذ أنصار الأمين[3]. وكان الفضل بن سهل يشعر بقوة هذه الكتلة، فيقول الجهشياري إنه كان في نية الرشيد إبقاء المأمون في بغداد عندما أراد السير ضد رافع بن

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٣ ج في ٥ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م)، ج ١٠، ص ٧٤.

(٢) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٤٥.

(٣) عبد الرحمن سنبط الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك** (بيروت؛ القدس: مطبعة القديس جاورجيوس، ١٨٨٥)، ص ٨٧، وأبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، راجع أصوله، ورقمه، وضبط مبهمه، وعلق عليه محمد محي الدين عبدالحميد، ٤ ج (القاهرة: دار الرجاء، ١٩٣٨)، ج ٣، ص ٢٧١.

الليث، ولكن الفضل حذر المأمون «لا تقبل وسله أن يشخصك معه، فإنه عليل، وغير مأمون أن يحدث عليه حادث، وأن يثب عليك أخوك فيخلعك وأمه زبيدة وأخواله من هاشم»[٤]. وقد لا تسمى هذه الجماعة حزباً، ولكنها على كل حال كانت كتلة تضم بني هاشم والكتلة العربية التي تكوّنت في خلافة الرشيد، مع بعض العناصر الفارسية المنحرفة عن المأمون وبني سهل لأسباب نفعية كعلي بن عيسى بن ماهان.

ومن جهة أخرى، هناك بوادر تبيّن أن الفرس كانوا يؤيدون المأمون ويشكلون كتلة معادية لجماعة الأمين، فالفضل بن سهل مثلاً شجع المأمون في خراسان على الثبات وبيّن له قوة مركزه قائلاً: «وكيف بك وأنت نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم... اصبر وأنا أضمن لك الخلافة»[٥]. وفي أواخر أيام الأمين، ثار الأبناء (الخراسانيون في بغداد) ضده وبايعوا للمأمون وسهلوا لطاهر دخول بغداد[٦]. ونجد الأمين بعد فشل جيوشه في قتال طاهر يتبع اقتراح عبد الملك بن صالح في أن «يقدم أهل الشام لحربه، فهم أجرأ من أهل العراق، وأعظم نكاية في العدو»[٧]. ولكن الخراسانيين في جيشه لم يرتاحوا لهذه السياسة واختلفوا مع الشاميين، ثم رجعوا مغضبين إلى بغداد بزعامة حسين بن علي بن عيسى بن ماهان، ثم تطرف حسين إذ «أغرى الناس بخلع الأمين وحذرهم من نكثه»[٨]، مع أنه كان أحد قواده. وكان الخراسانيون يشيرون إلى المأمون بـ «ابن أختنا»، ولا ننسى أن نواة هذه الكتلة تكوّنت في زمن البرامكة.

ويتمثل هذان الحزبان في الفضل بن الربيع خصم البرامكة وعدو النفوذ الفارسي الألد، وفي الفضل بن سهل ربيب البرامكة الذي كان مجوسياً فأسلم، والذي أراد «جعل الملك كسروياً»[٩].

ومن هذا يتضح أن وجود حزبين وتقييد سلطة الخليفة الجديد جعلا تطبيق بنود العهد أمراً عسيراً.

---

(٤) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٢٨.

(٥) أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، عني بتصحيحه وتحقيقه عبد الله اسماعيل الصاوي (القاهرة: عبد الحميد أحمد حنفي، ١٩٣٨)، ص ٢٦٦.

(٦) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ٣ ج في ١ (النجف: المكتبة المرتضوية، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، ج ٣، ص ١٧٠.

(٧) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر**، ٧ ج (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٨٤هـ/ [١٨٦٧م])، ج ٣، ص ٢٣٦.

(٨) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٩) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٣١٣.

وقبل البحث في مشكلة الخلاف، تجب ملاحظة روح التحزب ضد الأمين عند مختلف المؤرخين والحذر من قبلهم، لأن الذي يغلب على الكتّاب والشعراء مناصرة الغالب والمبالغة بفضائله وذم المغلوب، فهم يسمون الأمين «المخلوع» ويرمونه بكل قبيح، حتى قال ابن الأثير: «لم نجد للأمين شيئاً من سيرته نستحسنه فنذكره»[١٠]، بينما نجدهم يرفعون المأمون إلى السماء، حتى إنهم نسبوا إلى الرشيد القول التالي: «والله إني لأتعرف في عبد الله (المأمون) حزم المنصور ونسك المهدي وعزة نفس الهادي، فلو شاء أن أنسبه في الرابعة (الكرم؟) إليَّ لنسبته»[١١]. ولا بأس بإيراد بعض الأمثلة لتوضيح ذلك. يروي المسعودي أن الرشيد قال ليحيى البرمكي قبل العهد للمأمون: «قد عنيت بتصحيح هذا العهد وتسييره إلى من أرضى سيرته وأحمد طريقته وأثق بحسن سياسته وآمن ضعفه ووهنه وهو عبد الله، وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم. وفيه ما فيه من الانقياد لهواه والتبذير لما حوته يده ومشاركته النساء والإماء في رأيه»[١٢]. ألا يكون هذا غريباً إذا عرفنا أن المأمون لم يصل إلى الثالثة عشرة من عمره والأمين دون ذلك؟ وهل كان الرشيد يعلم الغيب؟ ويذهب الدينوري أبعد من هذا في التخليط، فيذكر أن الرشيد استشار الفضل بن الربيع في أمر العهد وقال له: «إني عينت بتولية العهد ومثبت الأمر في محمد وعبد الله، وقد علمت أني إن وليت محمداً مع ركوبه هواه وانهماكه في اللهو والملذات خلط على الرعية وضيع الرأي... وإن صرفت الأمر إلى عبد الله ليسلكن بهم المحجة وليصلحن المملكة وإن فيه لحزم المنصور وشجاعة المهدي»[١٣].

إننا إن قبلنا روايته على علاتها بأن سن المأمون كانت آنئذ ست سنين وسن الأمين دون ذلك، فهل يمكن وصف الأميرين الصغيرين بتلك الأوصاف؟ ولم يتحرج بعض المؤرخين من اللجوء إلى الأساطير لإسناد الضعف إلى الأمين، فيروي الدينوري أن زبيدة أمرت جاريتها «خالصة» بأن تطلب من الأصمعي، مؤدب الأمين، أن يرفق به، فلما استفسر عن السبب قالت له الجارية: «إن لرقة السيدة سبباً... وإنها في الليلة التي ولدته رأت في منامها كأن أربع نسوة أقبلن إليه، فاكتنفنه عن يمينه وشماله وأمامه ووراءه، فقالت التي بين يديه: ملك قليل

(١٠) أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، **تاريخ الكامل**، ١٢ ج في ٦ (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٠٣هـ/[١٨٨٥م])، ج ٦، ص ١٢١.

(١١) الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك**، ص ٨٧.

(١٢) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ٢٧١.

(١٣) أحمد بن داود أبو حنيفة الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، تصحيح فلاديمير جرجاس (ليدن: بريل، ١٨٨٨)، ص ٣٨٥.

العمر، ضيق الصدر، عظيم الكبر، واهي الأمر، كثير الوزر، شديد الغدر، وقالت التي من ورائه: ملك قصاف، مبذر متلاف، قليل الإنصاف، كثير الإسراف، وقالت التي عن يمينه: ملك ضخم، قليل الحلم، كثير الإثم، قطوع للرحم، وقالت التي عن يساره: ملك غدار، كثير العثار، سريع الدمار»[١٤]. وهذا ولا شك تحزب وتضليل متطرف.

ولكننا لا نستغرب هذه التشويهات، إذ لاحظنا أهمية الدعاية وأثرها آنئذ، وبخاصة أن المأمون استخدمها بكل مهارة «حتى سارت الركبان في الآفاق بغدر محمد وبحسن سيرة المأمون، فاستوحش الناس منه وانحرفوا عنه وسكنوا إلى المأمون ومالوا إليه»[١٥].

ولا بد للباحث من أن يلاحظ أهمية الشعر في دراسة الخلاف، فمع أن شعراء المأمون بالغوا في ذم الأمين، إلا أن أنصار هذا الخليفة دافعوا عن سيدهم وذكروا مزاياه من دون تهيّب. وعلى سبيل المثال نورد ما يلي:

قالت لبابة ابنة علي بن المهدي:

أبكيك لا للنعيم والأنس ... بل للمعالي والرمح والترس[١٦]

وقال الحسين بن الضحاك:

يا خير أسرته، وإن زعموا ... إني عليك لمثبت أسف
فلقد خلفت خلائفاً سلفوا ... ولسوف يعوز بعدك الخلف
هتكوا بحرمتك التي هتكت ... حرم الرسول ودونها السجف[١٧]

وقال أيضاً:

أضلّ العرف بعدك متبعوه ... ورفه عن مطايا الراغبينا
هو الجبل الذي هوت المعالي ... لهدته وريع الصالحونا
ستندب بعدك الدنيا جواراً ... وتندب بعدك الدين المصونا[١٨]

---

(١٤) المصدر نفسه، ص ٣٨٣.
(١٥) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٩٢.
(١٦) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢١٠.
(١٧) المصدر نفسه.
(١٨) المصدر نفسه، ص ٢١١ ـ ٢١٢ و٢١٤.

أولاً: مشكلة العهد

وهنا يرتبك الباحث بين تضليلات وأكاذيب المؤرخين، ولكن معرفة أخلاق الأمين وصفاته ضرورية لبيان أثرها في فشله.

نشأ الأمين نشأة مترفة، بحكم محيطه الذي تربى فيه، وعني والده بتثقيفه في سنّ مبكرة وذلك قبل أن يبلغ الخامسة[١٩]، وأحضر له خيرة علماء عصره، كالكسائي والأصمعي، وأشرف على تعليمه بنفسه. ويذكر الأصمعي أن الرشيد قال له: «لا تعلمه (الأمين) ما يفسد عليه دينه». ثم يحدثنا عما درسه الأمير عليه، فيقول: «فأقمت معه (الأمين) حتى قرأ القرآن وتفقّه في الدين وروى الشعر واللغة وروى أيام الناس وأخبارهم، واستعرضه الرشيد فأعجب به»[٢٠]. ويروي الدينوري عن الأصمعي أن الرشيد طلب إليه أن يختبر الأميرين الأمين والمأمون، قال: «فكنت لا ألقي عليهما شيئاً من فنون الأدب إلا أجابا فيه وأصابا. فقال (الرشيد): كيف ترى أدبهما؟ قلت: يا أمير المؤمنين ما رأيت في ذكائهما وجودة ذهنهما»[٢١].

وإذاً، فقد كان الأمين ذكياً مثقفاً، له اطلاع حسن في اللغة والفقه والأدب والتاريخ.

ثم عهد الرشيد إلى الفضل البرمكي (أقدر أولاد يحيى) تدريب الأمين في الإدارة والسياسة. ولكن هذا التدريب كان نظرياً لم يصحبه التمرين العملي. ونحن نلوم الرشيد لأنه أهمل سنّة أسلافه، فلم يدرب أبناءه في قيادة الجيوش أو الإدارة الفعلية، ولعله حاول ذلك في آخر سنة من حكمه، ولكن بعد فوات الأوان، فكانت عاقبة ذلك وخيمة على الأمين، بينما عوّض عن نقص المأمون في هذه الناحية وزيره الفضل بن سهل كما سنرى.

ومع ذلك، فهناك دلائل تشير إلى مقدرة الأمين كخليفة، ففي وصيته لعلي بن عيسى بن ماهان حين أرسله ضد المأمون ما يدل على دهاء سياسي، إذ قال له: «امنع جندك من العبث بالرعية والغارة على أهل القرى، وقطع الشجر وانتهاك النساء. . . ومن خرج إليك من جند خراسان ووجوهها فأظهر إكرامه وأحسن جائزته. . . وضع

(١٩) أبو علي المحسن بن علي التنوخي، **الفرج بعد الشدة**، ٢ ج (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٣٨)، ج ٢، ص ٢٢.

(٢٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٢١) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٨٤.

عن أهل خراسان ربع الخراج»[٢٢]. ويفهم من الطبري أن الأمين كان يقضي الليالي الطويلة في النظر في شؤون الدولة[٢٣]. وهذا خصمه طاهر بن الحسين يعترف له بالمقدرة بعد أن تغلب عليه، فيقول إنه ليس بضعيف ولكنه «مخذول»[٢٤].

ولكن تربية الأمين المترفة جعلته قليل الصرامة، بعيداً عن تقاليد العباسيين المكيافيللية. وخير مثل على ذلك أن أسد بن يزيد التمس منه أن يقبض على ولدي المأمون اللذين كانا في بغداد وأن يستعملهما كوسيلة لتهديد المأمون، فإن أجاب هذا إلى الطاعة فيها وإلا «أنفذ فيهما أمره»، فغضب الأمين لسماعه ذلك، وقال: «وتدعوني إلى قتل ولديّ وسفك دماء أهل بيتي؟ إن هذا للمذمة والتخليط»[٢٥]. ثم انظر معاملته لحسين بن علي بن عيسى بن ماهان الذي ثار عليه في بغداد سنة ١٩٦ هـ وقبض عليه وسجنه ووالدته زبيدة وأخذ البيعة للمأمون، فلما أطلق بمساعدة أهل الحربية لم يعاقب قائده الخائن، بل عفا عنه وقلده قيادة فرقة لمحاربة طاهر، فنكث حسين من جديد[٢٦]. أليس في هذا قلة صرامة وقلة خبرة؟

وكنتيجة طبيعية لتربية الأمين ولبيئته، هي ميله إلى الترف. ولعل المؤرخين بالغوا في وصف هذا الميل. فيذكر الطبري: «لما ملك (الأمين). . . وجه إلى جميع البلدان في طلب الملهين. . . ونافس في ابتياع فره الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطير، واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده. . . وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ولهوه بقصر الخلد، وأمر بعمل خمس حراقات (قوارب) في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس»[٢٧]. ولهذا التفنن في اللهو معنى آخر، فهو مظهر من مظاهر اهتمام الخلفاء بالأبهة ورغبتهم في السمو عن الرعية.

ولا تهمنا أوصاف الأمين الجسمية، ونكتفي بالمسعودي، إذ يقول: «كان الأمين في نهاية القوة والشدة والبطش»[٢٨].

ولا بأس بإيراد مجمل آراء بعض شعرائه عنه، فهو «خير أسرته»، و«سوف يعوز

---

(٢٢) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ١٥٠.

(٢٣) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٤٥.

(٢٤) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ٣٠٨.

(٢٥) انظر: أحمد فريد رفاعي، **عصر المأمون**، ٣ ج (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٧)، ج ١، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٢٦) ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر**، ج ٣، ص ٢٣٦ وما بعدها.

(٢٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢١٥.

(٢٨) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ٣٠٧.

بعده الخلف»، وهو حامي الدين الذي أصبح بفقده «مطرحاً مهيناً»، وهو ملك حازم سامي النفس «تقصر أيدي الملوك عن همه». وهم يرون فيه عزّ العرب وقائدهم في النزاع مع الفرس، ولذلك ذلّ العرب والإسلام بمقتله، كما يقول ابن أبي الهداهد:

تعقد عز متصل بكسرى ومِلَّته وذلّ المسلمونا[٢٩]

ولا بد للباحث، لتقدير دور الأمين، من التمييز بين أخطائه وتخليط حاشيته وقلة وفائهم الذي أدى دوراً بعيداً في فشل سيدهم، حتى قال المأمون: «أما إنه أول من يؤخذ بدمه (الأمين) يوم القيامة ثلاثة... وهم الفضل بن الربيع، وبكر بن المعتمر، والسندي بن شاهك. هم والله ثأر أخي وعندهم دمه»[٣٠].

ثانياً: الخلاف وأسبابه

إضافة إلى مشكلة العهد وإلى وجود الحزبين العربي والفارسي، أدت أطماع ومطامع مشاوري الأمين والمأمون دوراً مهماً في الخلاف.

والذي يفهم من المصادر هو أن حاشية الأمين (وبخاصة الفضل بن الربيع وعلي بن عيسى بن ماهان) هي التي دفعته إلى نكث العهد، بينما كانت نيته الوفاء لأخويه. يقول الجهشياري: «ولما استوثق الأمر لمحمد زين له الفضل بن الربيع خلع المأمون، وكان يخافه إن أفضى الأمر إليه، وعاون الفضل على ذلك علي بن عيسى بن ماهان»[٣١]. ويقول اليعقوبي: «فأفسد قوم قلب محمد على المأمون وأوقعوا بينهما الشر، وكان الذي يحرضه علي بن عيسى بن ماهان والفضل بن الربيع، وزينا له أن يبايع لابنه بولاية العهد بعده ويخلع المأمون، ففعل ذلك وبايع لابنه موسى»[٣٢]. ويؤيده الطبري، إذ يبيّن أن الفضل خاف أن ينكّل به المأمون إن صار خليفة، وذلك بعد أن رجع بالجيش من طوس إلى بغداد خلافاً لعهد الرشيد «فسعى في إغراء محمد به (بالمأمون) وحثه على خلعه وصرف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى، ولم يكن ذلك من رأي محمد ولا عزمه، بل كان عزمه الوفاء لأخويه... بما كان أخذه عليه لهما والده من العهود والشروط، فلم يزل الفضل به يصغر في عينيه شأن المأمون ويزيّن له خلعه حتى قال له: ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك، فإن

(٢٩) انظر: الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢١٠ ـ ٢١٤.

(٣٠) أبو الفضل أحمد الخراساني بن طيفور، **كتاب بغداد**، باعتناء كيلر (ليبزج: [د. ن.]، ١٩٠٨)، ج ٦، ص ٢٧.

(٣١) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٣٧.

(٣٢) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٦٦.

البيعة كانت لك متقدمة قبلهما وإنما أدخلا فيها بعدك واحداً بعد واحد، وأدخل في ذلك من رأيه معه علي بن عيسى بن ماهان والسندي وغيرهما ممن بحضرته، فأزالا محمداً عن رأيه»[٣٣]. ويذكر الفخري خوف الفضل بن الربيع من المأمون ويقول: «فحسن للأمين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى، واتفق مع الفضل جماعة على ذلك، فمال الأمين إلى أقوالهم وشرع في خدع المأمون»[٣٤]. ويقول ابن الأثير: «وألحّ الفضل بن الربيع وعلي بن عيسى على الأمين في خلع المأمون والبيعة لابنه موسى»[٣٥].

ومع أني لا أنكر أهمية دور الحاشية في الخلاف، لكني أرى أن بنود العهد نفسه جعلت الأمين هو البادئ بفكرة نقض بعض تلك البنود، فحاول أول الأمر بسط نفوذه على ولايات أخويه ثم تقديم إبنه عليهما في البيعة، وأن حاشيته شجعته وأيدته في ميوله. ولا تعوزنا الأدلة لإثبات ذلك، إذ يذكر الجهشياري أن جعفراً البرمكي طلب من الأمين في البيت الحرام «أن يقول خذلني الله إن خذلته (المأمون)، فقال ذلك ثلاث مرات»، ولما خرج قال لابن الربيع: «يا أبا العباس، كنت أحلف وأنا أنوي الغدر»[٣٦].

ويروي الطبري أن الأمين قال: «إن رأي الرشيد كان فلتة شبهها عليه جعفر بن يحيى بسحره واستماله برقاه، فغرس لنا غرساً مكروهاً لا ينفعنا ما نحن فيه معه إلا بقطعه، ولا تستقيم لنا الأمور إلا باجتثاثه والراحة منه»[٣٧]. ويذكر أيضاً أن عمرو بن حفص قال: «سمعت محمداً يقول للفضل بن الربيع: ويلك يا فضل لا حياة مع بقاء عبد الله وتعرضه ولا بد من خلعه، والفضل يعينه على ذلك ويعده أن يفعل وهو يقول: فمتى ذلك إذا غلب على خراسان وما يليها»[٣٨]، ما يبينّ بوضوح أن الفضل كان يجاري الأمين، كما إن علي بن عيسى نفسه لم يوح الفكرة للأمين، كما يظهر من قول الطبري: «فيقال إنه (علي بن عيسى بن ماهان) أول القواد، أجاب إلى خلع عبد الله وتابع محمداً على رأيه»[٣٩]. ولا ننسى أن الأمين هو الذي أرسل بكر بن

---

(٣٣) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ١٣٠.

(٣٤) محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ/[١٨٩٩م])، ص ١٥٦.

(٣٥) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ٩٢.

(٣٦) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٧٥.

(٣٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ١٣٦.

(٣٨) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٤٥.

(٣٩) المصدر نفسه.

المعتمر بكتب سرية إلى طوس قبيل وفاة الرشيد يطلب من الفضل بن الربيع والقواد الرجوع إلى بغداد عند وفاة والده وعدم تسليم الجيش للمأمون[٤٠]. ولم يكن لعلي بن عيسى شأن آنئذ، كما إن ابن الربيع كان بعيداً عنه، ولا شك في أن هذا العمل كان أول ضربة لعهود الرشيد.

ولكن أطماع حاشيتي الأمين والمأمون كانت عوامل أسرعت بتقدم الخلاف وشجعت على تعقيده، فابن الربيع رجع بالجيش إلى بغداد عند وفاة الرشيد قائلاً: «لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدري ما يكون من أمره»[٤١]. وقد شجع ابن سهل المأمون على رفض طلبات الأمين مدفوعاً بمطامح قومية وأخرى شخصية. ويروي الجهشياري أن أبا محمد اليزيدي ذكر للفضل بن سهل حسن رأي المأمون (وكان أميراً آنئذ) فيه وأضاف: «وإني لأرجو أن يبلغك الله مبلغاً تتمكن منه معه وتملك ألف ألف درهم»، فغضب الفضل بن سهل وقال: «والله ما صحبت هذا الأمير لأكسب معه مالاً قل أو كثر، وإن همتي لتتجاوز كل ما يجوز أن يملك»، وأوضح أنه خدمه «ليجوز طابع هذا (يشير إلى الخاتم) في الشرق والغرب. لهذا خدمته ولهذا صحبته»[٤٢].

وقد مرّ النزاع بين الأمين والمأمون في دورين: **الأول** دبلوماسي سلمي انتهى سنة ١٩٥ هـ، **والثاني** علني عسكري انتهى بمقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ.

ثالثاً: دور الدبلوماسية في الخلاف

لعل خير تعليق على هذا الدور قول كشاجم:

هنيئاً لأصحاب السيوف بطالة   تقضي بها أوقاتهم في التنعم
ولكن ذوو الأقلام في كل ساعة   سيوفهم ليست تجفّ من الدم

لقد أدت الدعاية من جهة، والمناورات السياسية من جهة أخرى، دوراً يعدل أو يزيد على أهمية الجيوش. وتلك المناورات لها أهميتها لأنها تعطي فكرة عن أساليب السياسة في العصر الذي نكتب عنه، وبخاصة أنها مسجلة في الرسائل المتبادلة بين الطرفين.

ويبدأ هذا الدور بمرض الرشيد في طوس، إذ إنه جدد البيعة للمأمون وأشهد بأن يكون من معه من الجند والمال والأثاث والسلاح للمأمون إن حدثت به حادثة.

---

(٤٠) انظر: الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢٧٣.
(٤١) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٢٨.
(٤٢) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢٨٠.

ولما علم الأمين بمرض والده بعث من يأتيه بخبره كل يوم، ثم أرسل بكراً بن المعتمر «وكانت معه كتب ظاهرة بعيادته (الرشيد) وكتب باطنة إلى القوم بالقفول والاحتياط على ما في العسكر»، وجعل له في كل يوم ألف دينار(٤٣). ولما فطن الرشيد إلى وجود كتب سرية استجوب بكراً فأنكرها على رغم تهديده وتقييده. ومن تلك الكتب واحد للمأمون بأخذ البيعة على الناس لهما ولأخيهما المؤتمن، وكان المأمون آنئذ في مرو. وكتب إلى أخيه صالح يأمره بتسيير العسكر واستصحاب ما فيه(٤٤)، وأوصاه: «وإياك أن تنفذ رأياً أو تبرم أمراً إلا برأي شيخك وثقة آبائك الفضل بن الربيع»(٤٥). وبعث بكتاب إلى الفضل يأمره «بالحفظ والاحتياط على ما معه من الحرم والأموال وغير ذاك»، وآخر إلى إسماعيل بن صبيح(٤٦).

ولم يتردّد الفضل بن الربيع، بل رجع بالعسكر وما فيه «ولم يعرّج على المأمون ولا التفت إليه»(٤٧). وهذه أول مخالفة ظاهرة لوصية الرشيد، فاستنكرها المأمون وشعر بعدم استقامة نية الأمين تجاهه. ولما سمع بالخبر عقد مجلساً لبحث القضية، فأشير عليه بأن يلحق الفضل بن الربيع بجيش من ألفي فارس لردّه(٤٨)، ولكن الفضل بن سهل حذر عاقبة ذلك وقال: «إذا فعلت هذا لم آمن أن يقبضوا عليك ويجعلوك هدية إلى محمد، ولكن تقيم وتكتب إليهم كتاباً وتوجه إليهم رسولاً يذكرهم البيعة». وقد قبل المأمون رأيه وأرسل رسولين إلى ابن الربيع، فعوملا معاملة عدائية، وأخبرا المامون بذلك. ولكن ابن سهل شجع المأمون قائلاً: «هؤلاء أعداء استرحت منهم»(٤٩).

وأخذ الفضل بن سهل يشجع المأمون ويسعى لتثبيت مركزه باسترضاء أهل خراسان من مختلف الطبقات، فأشار عليه: «والرأي أن تجمع الفقهاء وتدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنّة، وأن تقعد على اللبود (الصوف) وتواصل النظر في المظالم»، ليثير بذلك أمل الخراسانيين بإنشاء حكم العدل الذي لم يحققه أسلاف المأمون من بني العباس. ثم أشار عليه باسترضاء الطبقة الأرستقراطية «وتكرم القواد والملوك» ففعل ذلك، وباسترضاء عامة الشعب بأن «حط عن خراسان ربع الخراج»، فحسن

---

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٣، والطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٣٤.

(٤٤) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ٨٩.

(٤٥) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٢٧٣، وابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٨٩.

(٤٧) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢٧٧.

(٤٨) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ١٢٨.

(٤٩) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٢٧٧.

موقع ذلك من الناس وسروا به وقالوا: «ابن أختنا وابن عم رسول الله»[٥٠].

وفي الوقت نفسه أظهر المأمون التودّد لأخيه «وأهدى إليه هدايا كثيرة وتواترت كتب المأمون إلى محمد بالتعظيم والهدايا إليه من طرف خراسان»[٥١].

أما الأمين فلم يتسرع في تنفيذ مشروعه الأول، وهو بسط نفوذه على أخويه وتقديم ابنه في البيعة، بل سعى بالتدريج نحو غايته. وقد بدأ بعزل القاسم عن الجزيرة سنة ١٩٣ هـ وأقره على قنسرين والعواصم[٥٢] ثم عزله سنة ١٩٤ هـ عن كل ما بيده واستقدمه إلى بغداد. ثم «كتب (سنة ١٩٤ هـ/ ٨٠٩ م) إلى جميع العمال بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم»[٥٣]. ولما سمع المأمون بعزل القاسم، وبالدعاء لابن أخيه أدرك أن الأمين ينوي تغيير العهد «فقطع البريد عن محمد وأسقط اسمه من الطرز»[٥٤].

ولكن الأمين لم يظهر نياته، بل نوى أن يطلب من المأمون أن يتنازل له عن بعض أجزاء ولايته ليقلل من قوته، فحذره القاسم بن صبيح من ذلك لأنه «توكيد للظن وتقوية للتهمة ومدعاة للحذر»، وقال: «ولكن تكتب إليه وتعرفه حاجتك إليه وشوقك إلى قربه وإيثارك الاستعانة برأيه ومشورته وتسأله القدوم عليك، فإن ذلك أحرى أن لا يوحشه»[٥٥]. وأضاف: «فإذا قدم عليك وفرقت بينه وبين جنده كسرت حده وظفرت به وصار رهناً في يديك، فأت في أمره ما أردت»[٥٦]. وقد استحسن الأمين رأيه، وكتب إلى أخيه في هذا المعنى رسالة أرسلها (على قول الدينوري) مع وفد ليقنع المأمون بالقبول. ولما وصل الوفد أكرمه المأمون، ثم استشار وزيره الفضل بن سهل في الأمر، وأبدى حذره من الأمين، ومخاوفه من حرج الوضع الذي يجد نفسه فيه، فقوّى الفضل عزيمته ونصحه بتقوية جيشه وبالاعتذار عن الذهاب إلى بغداد[٥٧]. وفي اليوم التالي أوصى المأمون رجال الوفد أن «يحسنوا أمره عند الأمين ويبسطوا من عذره» وزوّدهم برسالة جاء فيها: «أما بعد، فإن الإمام الرشيد ولاني

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩، والطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٢٩.

(٥١) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٢٩.

(٥٢) ابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ٩٠.

(٥٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٢٩.

(٥٤) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٣٠، وابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٩١. كتابة الاسم على الطرز رمز الولاء للسلطان.

(٥٥) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٥٦) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٨٣.

(٥٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ١٤٧ ـ ٨.

هذه الأرض على حين كلب من عدوها ووهي من سدّها وضعف من جنودها ومتى أخللت بها أو زلت عنها لم آمن انتقاض الأمور فيها وغلبة أعدائها عليها بما يصل ضرره إلى أمير المؤمنين حيث هو، فرأي أمير المؤمنين أن لا ينقض ما أبرمه الإمام الرشيد»[٥٨].

ولما يئس الأمين من مجيء المأمون، عاد إلى رأيه الأول وكتب إلى أخيه «يسأله أن يتجافى له عن كور من كور خراسان سماها، وأن يوجه العمال إليها من قبل محمد، وأن يحتمل في توجيه رجل من قبله يوليه البريد عليه ليكتب إليه بخبره»[٥٩]. وأراد بذلك أن يضعف المأمون وأن يجعله بالفعل تابعاً له وخاضعاً لرقابته. . . وقد اضطرب المأمون لهذا الطلب وعقد مجلساً للشورى بحسب اقتراح الفضل بن سهل، «فاشاروا عليه جميعاً بإجابته (الأمين) إلى ما سأل» إلا الفضل بن سهل فإنه ذكرهم «أن محمداً تجاوز إلى طلب ما ليس له بحق»، ثم سألهم: «وهل تثقون بكفه (أي الأمين) بعد إعطائه ذلك ألاّ يتجاوز بالطلب إلى غيره؟ قالوا: لا، ولكنا نرجو السلامة». وقد بيّن الفضل ضعف رأيهم واقترح الرفض، فوافقه المأمون على ذلك وكتب إلى أخيه:

« . . . وما أمر رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره، غير أن الذي جعل إليّ الطرف الذي أنا به لا ظنين في النظر لعامته ولا جاهل بما أسند إليّ من أمره. ولو لم يكن ذلك مثبتاً بالعهود والمواثيق المأخوذة ثم كنت على الحال التي أنا عليها من أشراف عدو مخوف الشوكة وعامة لا تتألف عن هضمها وأجناد لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال وطرف من الأفضال لكان في نظر أمير المؤمنين لعامته وما يجب من لَمّ أطرافه ما يوجب عليه أن يقسم له كثيراً من عنايته ويستصلحه ببذل كثير من ماله، فكيف بمسألة ما أوجبه الحق ووكدته مأخوذة العهد! وإني لأعلم أن أمير المؤمنين لو علم من الحال ما علمت لم يطلع ما كتب بمسألته. ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله»[٦٠].

وفي الوقت نفسه حاول المأمون سدّ المجال أمام دعاية الأمين لاستمالة أهل خراسان، فوضع ثقات الحراس على الطرق و«منع الأشتات من جواز السبل» وأمر بتفتيش الرسائل، وأوصى الحرس بأن «لا يجوز رسول من العراق حتى يوجهوه مع ثقات من الأمناء، ولا يدعه يستعلم خبراً ولا يستتبع بالرغبة ولا بالرهبة أحداً، ولا

---

(٥٨) الدينوري، المصدر نفسه، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٥٩) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٣٢، والجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٨٩.

(٦٠) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٣٢.

يبلغ أحداً قولاً ولا كتاباً». وكانت النتيجة أن «حصر أهل خراسان من أن يستمالوا برغبة أو أن تودع صدورهم رهبة أو أن يحملوا على منوال خلاف أو مفارقة»[٦١].

أما الأمين، فإنه كتب رسالة جديدة يؤكد فيها طلبه الأول، مبيّناً للمأمون أن الرشيد أضاف إلى ولايته «كوراً من أمهات كور الأموال لا حاجة لك فيها، فالحق أن تكون مردودة في أهلها ومواضع حقها»، و«أن تأذن لقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدي لنا علم ما نعني به من خبر طرفك». وختم قائلاً: «فاثن عن همك اثن عن مطالبتك»[٦٢] وأرسل الرسالة مع وفد أوصاه بالتشنيع على المأمون، ونشر بذور الخلاف ضده، وباستمالة بعض الشخصيات المهمة بالأموال والوظائف. ولكنهم لم يوفقوا في مهمتهم لأنهم «لما صاروا إلى حدّ الري وجدوا تدبيراً مؤيداً. . . وأخذتهم الأحراس من جوانبهم فحفظوا من أن يخبروا أو يستخبروا. . . حتى صاروا إلى المأمون»[٦٣].

وبعد الاطلاع، رفض المأمون برسالة لينة حازمة جاء فيها: «فلا تبعثني يا ابن أبي على مخالفتك، وأنا مذعن بطاعتك ولا على قطيعتك، وأنا على إيثار ما تحب من صلتك. وارض بما حكم الحق في أمرك أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك والسلام». وكذلك أوصى رسل الأمين «أعلموه أني لا أزال على طاعته حتى يضطرني بترك الحق الواجب إلى مخالفته»، وأكد عليهم تأدية ما قال من دون تبديل. ويعلق الطبري على هذا قائلاً: «فانصرف الرسل، فلم يثبتوا لأنفسهم حجة ولم يحملوا خبراً يؤدونه إلى صاحبهم»[٦٤].

وقد أثارت هذه الرسالة غضب الأمين، فكتب إلى أخيه بلهجة قوية قائلاً: «أما بعد فقد بلغني كتابك غامطاً لنعمة الله عليك فيما مكن لك في ظلها، متعرضاً لحراق نار لا قِبَلَ لك بها، ولحضك عن الطاعة كان أودع. وإن كان قد تقدم مني متقدم، فليس بخارج عن مواضع نفعك، إذ كان راجعاً على العامة من رعيتك، وأكثر من ذلك ما يمكن لك من منزلة السلامة. . . فأعلمني رأيك أعمل عليه»[٦٥].

---

(٦١) المصدر نفسه، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ٩٢.

(٦٢) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٣٢. لا بد من التنبيه إلى الاضطراب المربك في إعطاء الرسائل من دون مراعاة زمن إرسالها في الطبري وفي غيره من المصادر. وقد أدى بي اجتهادي إلى ترتيبها كما هو مثبت أعلاه.

(٦٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٣٣.

(٦٤) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٣٤.

(٦٥) المصدر نفسه.

وهكذا هدّد الأمين أخاه مبيّناً فوائد الإذعان، ومذكراً إياه بأنه استمر على المفاوضة رأفة به وإلا فالبطش به يسير.

ولكن المأمون لم يتزعزع، بل أجاب برسالة قوية الحجج، رفض فيها مطالب أخيه وذكره بأنه صار «منكراً لأبائي منزلة تهضمني بها وأرادني على خلاف ما يصلح من الحق فيها. . . فأولى به أن يدير الحق في أمره ثم يأخذ به ويعطي من نفسه. . . وأما ما وعد من بر طاعته وأوعد من الوطأة بمخالفته، فهل أحد فارق الحق في فعله، فأبقى للمتبينّ موضع ثقة بقوله!»[٦٦].

والآن وصلت العلاقة إلى دور لم يبق فيه مجال للمجاملات، وأصبح التصريح ضرورياً، فأرسل الأمين وفداً سياسياً يتألف من ثلاثة أشخاص، أحدهم العباس بن موسى بن عيسى، إلى المأمون ليفاوضه في تقديم موسى بن الأمين عليه في العهد. ويذكر الطبري أن العباس بن موسى قام خطيباً وأخذ يهون على المأمون تقديم موسى عليه، وذكر له تنازل عيسى بن موسى عن ولاية العهد مرتين، فصاح به الفضل بن سهل: «اسكت فإن جدك كان في أيديهم أسيراً، وهذا (أي المأمون) بين أخواله وشيعته»[٦٧]. وانتهت محاولات الوفد بالخيبة، ولكن الفضل بن سهل استطاع بدهائه أن يستميل العباس بن موسى حتى أخذ عليه البيعة للمأمون. ويشرح ابن سهل ذلك، فيقول: «قلت للعباس لك عندي ولاية الموسم وولاية أشرف منها، ولك من مواضع الأعمال بمصر ما شئت. فما برح حتى أخذ عليه البيعة للمأمون بالخلافة، فكان بعد ذلك يكتب إلينا بالأخبار ويشير علينا بالرأي»[٦٨]. وهذا الحادث دليل صريح على مدى إخلاص حاشية الأمين له، ومثل من أمثلة المناورات السياسية.

وبعد فشل هذا الوفد أصبح النزاع المسلح أمراً محتماً. وفي أوائل سنة ١٩٥ هـ/ ٨١٢ م أمر الأمين بالإمساك عن الدعاء للمأمون وأعلن البيعة لابنه موسى، ولقبه «الناطق بالحق»، وضرب دراهم ودنانير تذكارية نقش عليها بالإضافة إلى اسم ولي العهد ما يلي:

كـــل عـــز ومـــفـــخـــر فـــلـــمـــوســـى المظـــفّـــر
مـــلـــك خـــصّ ذكـــره فـــي الـــكـــتـــاب المســـطّـــر[٦٩]

---

(٦٦) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٤٣.

(٦٧) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٣١.

(٦٨) المصدر نفسه.

(٦٩) أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، **شذور العقود في ذكر النقود** (النجف: [د. ن.: د. ت.])، ص ١٢.

ولم ينته دور الدبلوماسية بانتهاء المراسلات، بل استمر في أثناء النزاع المسلح. وقد أرسل المأمون سفيراً إلى أعيان أهل العسكر في بغداد طالباً منهم تأييده ضد الأمين أو الوقوف موقف الحياد على الأقل، فوصل السفير وقت خلع المأمون، ومكث في بغداد يحاول استمالة القادة ويكتب إلى المأمون بالأخبار. وقد كتب إلى المأمون بعد فحص الوضع في بغداد ما يلي: «وجدت أكثر الناس ولاة السريرة (للمأمون) ونفاة العلانية، ووجدت المستمالين بالرغبة (إلى الأمين) لا يحوطون إلا عنها ولا ينالون ما احتملوا فيها (أي قليلي الثبات)، والمنازع مختلج الرأي لا يجد دافعاً عن همه... والقوم على جد فلا تميلوا للتواني»[٧٠].

وعندما سيّر الأمين علي بن عيسى بن ماهان لقتال أخيه، حاول المأمون أن يستميله إلى جانبه، أو أن يثبط عزمه عن الحرب، فأرسل له رسالة وصف فيها موقف علي بأنه «طعن في عقدة كنت (الخطاب لعلي) القائم بشدها وبعهود توليت معاقد أخذها، يبدأ فيها بالأخصين حتى أفضى الأمر إلى العامة من المسلمين بالأيمان المحرجة والمواثيق المؤكدة، وما طلع مما يدعو إلى نشر كلمة أو تفريق أمة أوشت جماعة، وتتعرض لتبديل نعمة، وزوال ما وطأت الإسلام من الأئمة». ثم يحذره سوء العاقبة قائلاً: «ومتى زالت نعمة من ولاة أمركم وصل زوالها إليكم»[٧١].

وهذا الأمين يكتب في أواخر أيامه، وجيش طاهر يضيق عليه الخناق، رسالة إلى طاهر بن الحسين ينذره فيها قائلاً: «... اعلم أنه ما قام لنا مذ قائم بحقنا وكان جزاؤه إلا السيف، فانظر لنفسك أو دع». وقد أثرت هذه الرسالة كثيراً في نفس طاهر حتى إنه لما رجع إلى خراسان أخرجها إلى خاصته وقال لهم: «والله ما هذا كتاب مضعوف، ولكنه كتاب مخذول»[٧٢].

ثم لاحظ تصرف المأمون، فهو لا يجهر بخلع أخيه ويكتفي بتسمية نفسه بالإمام[٧٣]، إلى أن انتصر جيشه على جيش علي بن عيسى سنة ١٩٦ هـ، وعندئذ خطب في الخراسانيين وأكثر من العهود والوعود التي تذكر بعهود أسلافه من بني العباس عند أول مجيئهم إلى الحكم، فقال في خطابه: «أيها الناس إني جعلت لله على نفسي إن استرعاني أموركم أن أطيعه فيكم، ولا أسفك دماً عمداً لا تحله حدوده

---

(٧٠) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٣٦.

(٧١) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٤٣.

(٧٢) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ٣٠٨.

(٧٣) هذه أول مرة يستعمل فيها العباسيون لقب إمام، ولعل المأمون استعمله لأنه فيه تأكيد على الناحية الدينية لا الدنيوية من سلطة رئيس المسلمين. انظر: الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٣١.

وتسفكه فرائضه، ولا آخذ لأحد مالاً ولا أثاثاً ولا نحلة تحرم علي، ولا أحكم بهواي في غضبي ولا رضاي إلا ما كان في الله له. جعلت ذلك كله لله عهداً مؤكداً وميثاقاً مشدداً، إني أفي رغبة في زيادته إياي في نعمي ورهبة في مسألته إياي عن حقه وخلقه، فإن غيرت أو بدلت كنت للعبر مستأهلاً وللنكال متعرضاً، وأعوذ بالله من سخطه وأرغب إليه في المعونة على طاعته، وأن يحول بيني وبين معصيته»(٧٤). وكان هذا الخطاب بمثابة عهد أعظم فرضه المأمون على نفسه للخراسانيين ولبقية الناس لينال تأييدهم الكلي وليكسب قضيته ثوب الحق والعدل. ولهذا العهد أهمية في المستقبل لأن فشل المأمون في تنفيذ ما وعد به كان آخر معول في هدم التعاون بين الخراسانيين والعباسيين. وصار أهل خراسان يعتقدون أنه لا فائدة من وعود العباسيين، وظهرت عندهم النزعة الانفصالية بشكل شامل، فأدت أخيراً إلى استقلال خراسان وبقية إيران بالتدريج.

ولعلنا أوضحنا في هذا القسم الروح الدبلوماسية في العصر العباسي الأول وأساليبها ومدى أثرها في سير الحوادث.

رابعاً: نظرة في النزاع المسلح (١٩٥ ـ ١٩٨ هـ/ ٨١٠ ـ ٨١٣ م)

وهي مفصلة في كتب التاريخ ولا داعي لسردها، ويكفي ملاحظة بعض النقاط التي أثرت في سيرها.

إن هناك ضعف معنوية جيش الأمين وقلة ثباتهم، فجيش علي بن عيسى مزّق مع أنه يبلغ أضعاف جيش طاهر بن الحسين. ورجع الجيش الثالث الذي أرسله الأمين ضد طاهر بقيادة أحمد بن مزيد من دون قتال لأن طاهر بثّ فيه دعاية ولدت الشقاق وأدت إلى تفريقه.

ثم إن الأمين أفسد جنده بكثرة العطايا والأموال التي قدمها لهم من دون التأكيد على بثّ روح الطاعة والنظام فيهم، فأصبح همهم الحصول على الأموال. إننا نراهم مثلاً بعد مقتل علي بن عيسى وهزيمة جيشه يشاغبون ويطلبون بكل وقاحة الزيادة في الأرزاق، فيمنع الأمين من تأديبهم ويأمر بتوزيع الأموال عليهم(٧٥).

ويظهر من المصادر أن الأمين لم يحاول جدياً استصفاء قلوب الرعية، كما حاول

(٧٤) انظر: اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٦٧ ـ ١٦٨، والجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٧٩.

(٧٥) ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر**، ج ٣، ص ٢٣٤.

المأمون، أو أنه لم ينجح بذلك، ولهذا حصلت اضطرابات داخلية ضده في عاصمته في الوقت نفسه الذي كان فيه جيشه ينازع جيش المأمون، فأصبح بين نارين: فتنة داخلية وحرب خارجية.

ولا شك في أن الأمين أخطأ في تولية علي بن عيسى بن ماهان قيادة الجيش الأول لحرب الخراسانيين، مع أنهم أعدى الناس له لأنهم لم ينسوا ظلمه وفظائعه، وهذا زاد في استماتتهم في القتال وأثر في تحطيم جيش الأمين.

وفي الختام يظهر لي من دراسة كل من الأمين والمأمون أن المؤرخين بالغوا في تمجيد قابليات المأمون وفي تفضيله على الأمين، وأنكروا على الأمين مقدرته التي تتجلى في أثناء الخلاف، وبخاصة أنه هو الذي كان يضع الخطط العامة ويدبر الأمور، ونسوا دور الفضل بن سهل ذلك السياسي العبقري الذي كان يشجع المأمون على الثبات دائماً في وجه أخيه بعد أن كاد يستسلم أمام تهديداته. وهذا الطبري يروي أن الأمين لما طلب من المأمون القدوم عليه إلى بغداد «أسقط في يده وتعاظمه ما ورد عليه منه ولم يدر ما يرد عليه»، وعندما أشار عليه الفضل بالرفض قال: «وكيف يمكنني التمسك بموضعي ومخالفة محمد ومعظم القواد والجنود معه وأكثر الأموال والخزائن قد صارت إليه مع ما قد فرقه في أهل بغداد من صلاته وفوائده. . .»، فينصحه الفضل بالمقاومة، فإما الظفر أو الموت الشريف[٧٦]. وهذا التنوخي يبيّن كيف أن بعض القواد شغبوا على المأمون يطلبون الأرزاق بعد أن أرسل طاهراً لمقاتلة علي بن عيسى، فأراد المأمون أن يهرب إلا أن الفضل ثبته[٧٧]. ويكفي فحص أعمال المأمون في مرو لنرى أن ابن سهل كان الرأس المفكر الذي سدد خطى المأمون في كل حركة من حركاته.

ثم كان المأمون موفقاً من ناحية قواده، فلم يكن لدى الأمين قائد يقارن بطاهر بن الحسين، حتى يروى عن الأمين أنه قال: «وهل كان المأمون لو اجتهد بنفسه وتولى الأمر برأيه بالغاً عشر ما بلغه طاهر له!»[٧٨]. وكان جيش المأمون متجانساً متحداً، وجيش الأمين غير متجانس، وكان ذلك إلى حدّ كبير ناتجاً من الظروف المحيطة بكل منهما.

وكان أتباع المأمون يناضلون عن عقيدة قوية، إذ أحيا المأمون آمالهم بوعوده،

(٧٦) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ١٤٩.

(٧٧) التنوخي، **الفرج بعد الشدة**، ج ٢، ص ٧ ـ ٨.

(٧٨) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٣، ص ٢٦١.

وبوجوده في خراسان، فصاروا يتطلعون إلى إرجاع عزهم ويأملون في انتقال السلطة إليهم، فناضلوا عن إخلاص، بينما كان أتباع الأمين من ساسة وجند لا يهتمون إلا بالمال وبمصالحهم الشخصية، فأين موقف الفضل بن سهل من موقف العباس بن موسى الذي يخون سيده ويصبح جاسوساً عليه؟ أو موقف حسين بن علي بن عيسى الذي يثور ضد سيده ويسجنه، أو موقف الفضل بن الربيع الذي يتخلى عن الأمين في أحرج ساعاته! ويذكر الجهشياري: «ولما رأى الفضل بن الربيع قوة المأمون، واتصال ضعف محمد. . . وانفلال الناس عنه، وتمزق الأموال التي كانت في يده، استتر في رجب سنة ١٩٦ هـ»[٧٩] عندما كان الأمين في أحوج ما يكون إلى النصحاء والمخلصين.

وقبل الانتهاء أقول إن هذا الخلاف أدى إلى اختلال التوازن من جديد بين العرب والفرس في الدولة، وإلى تعاظم النفوذ الفارسي إلى درجة خطرة على سلامة الدولة، كما سنرى.

(٧٩) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢.

الفصل الثامن

المأمـــون(*)

(*) ١٩٨ ـ ٢١٨ هـ/ ٨١٤ ـ ٨٣٣ م.

مقدمة

شعر المأمون باستفظاع الرأي العام لمقتل أخيه، فأراد أن يبرّر ذلك وأمر وزيره الفضل بن سهل أن ينشئ كتاباً عن طاهر بخبره ليقرأ على الناس، فكتب الفضل كتاباً نسخته: «أما بعد فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، فقد فرق حكم الكتاب والسنّة بينه وبينه في الولاية والحرمة، لمفارقته عصمة الدين وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين. . . يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح، ولا صلة لأحد في معصية الله ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله، وكتبت إلى أمير المؤمنين وقد قتل الله المخلوع ورداه رداء نكثه وأحصن لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له ما كان ينتظره من وعده. فالحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين حقه الكائد له من ختر عهده، ونقض عقده، حتى ردّ الله به الألفة بعد فرقتها وأحيا به الإعلام بعد دروسها وجمع به الأمة بعد فرقتها والسلام»[1].

ويمكن تقدير حراجة الوضع إذا علمنا أن المأمون جاء بعد فتنة داخلية ضعضعت سلطان بني العباس مادياً وأدبياً وقسمت الناس إلى قسمين متناحرين، فلم يكن عهد الأمين أمراً مقبولاً لدى قسم كبير من الناس لأنه نكث صريح ولأن ابن الأمين طفل لا يعقل، ومع ذلك فقد كان الأمين رمز آمال أكثر العرب لخالص عروبته ولأن اسمه أصبح عنواناً لمقاومة النفوذ الفارسي. ومن الجهة الأخرى أدى انتصار المأمون إلى تقوية نفوذ الفرس واستيلائهم على المناصب الرئيسية من عسكرية ومدنية، فاجتمعت لهم رياسة السيف ورياسة القلم على حساب العرب.

كما إن الانحلال الداخلي الذي تلا الخلاف أفسح المجال لكل ناعق أو متذمر لإظهار نياته، فأدى ذلك إلى انتشار الفتن والثورات في مختلف بقاع المملكة.

(١) باختلاف بسيط، انظر: أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، عني بتصحيحه وتحقيقه عبد الله اسماعيل الصاوي (القاهرة: عبد الحميد أحمد حنفي، ١٩٣٨)، ص ٣٠٤، وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٣ ج في ٥ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٣٦هـ/١٩١٧م)، ج ١٠، ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

وربما كان من المفيد ذكر بعض مزايا المأمون التي تلقي ضوءاً على حكمه. يقول الفخري: «كان المأمون من أفاضل خلفائهم (بني العباس) وعلمائهم وحكمائهم»[٢]، ويؤيده المسعودي بقوله: «كان (المأمون) عالماً كاملاً»[٣]، ولا شك في أن المأمون كان مثقفاً، وقد ظهر أثر ذلك في تشجيعه حركة الترجمة ونشر العلم، وفي تدخله في قضايا الكلام.

ويصفه الذهبي بأنه «كان ذكياً... فيه دهاء وسياسة»[٤]. ويقول المسعودي: إنه «كان حسن التدبير... لا تخدعه الأماني ولا تجوز عليه الخدائع»[٥]. وهذا يشير إلى أنه كان سياسياً واقعياً لا يتردد في إمضاء ما تقتضيه مصلحة الدولة، وخير مثل لذلك علاقته ببني سهل.

ويوصف أيضاً بأنه «عظيم العفو كريم المقدرة»، وقد كان كذلك ولكن تجاه أعدائه الذين لا يرى فيهم خطراً عليه، كما يظهر من عفوه عن الفضل بن الربيع، وإبراهيم بن المهدي.

وكان المأمون يميل إلى آل أبي طالب. يقول المسعودي: «كان المأمون يظهر التشيع»[٦]. ويؤيده الطبري في هذا. ويذكر الذهبي أنه سنة ٢١١هـ «أظهر المأمون التشيّع وأمر أن يقال خير الخلق بعد النبي (ﷺ) علي...»[٧]. ويروي اليعقوبي أنه ردّ فدك إلى فاطمة[٨]. ولعل هذا الميل كانت نتيجة اتصاله بالبرامكة، وعلى كل فقد كان ميلاً عاطفياً دينياً[٩] في أوله، وسنرى أثره في ما بعد.

---

(٢) محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ/ [١٨٩٩م])، ص ١٦١.

(٣) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **التنبيه والإشراف**، عني بتحقيقه ومراجعته عبد الله اسماعيل الصاوي (القاهرة: مكتبة الشرق الإسلامية، ١٩٣٨)، ص ٣٠٤.

(٤) أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، **كتاب دول الإسلام**، ٢ ج في ١ (حيدر آباد الدكن: [د. ن.، ١٩٠٩])، ج ١، ص ١٠٢.

(٥) المسعودي، المصدر نفسه، ص ٣٠٤.

(٦) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، راجع أصوله، ورقمه، وضبط مبهمه، وعلق عليه محمد محي الدين عبدالحميد، ٤ ج (القاهرة: دار الرجاء، ١٩٣٨)، ج ٣، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٧) الذهبي، **كتاب دول الإسلام**، ج ١، ص ١٠٠.

(٨) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ٣ ج في ١ (النجف: المكتبة المرتضوية، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، ج ٣، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٩) انظر: جبريالي، **المأمون والعلويون** (بالإيطالية).

أولاً: المشاكل الداخلية

يمكن أن نقول إن المأمون ارتكب خطأة خطيرة في بقائه في مرو في محل قصيّ عن مملكته، وكان الأجدر به أن يرجع إلى بغداد معقل السلطة العباسية ورمزها، فكان لعمله هذا نتائج سيئة على الدولة. ولعل الظروف جعلت المأمون يبقى في مرو، إذ إنه لم يكن مطمئناً من أهل بغداد أنصار أخيه، ويجب ألا ننسى أثر بني سهل وميولهم الفارسية، وهم يفضلون أن يكون مركز الدولة بين الفرس في خراسان.

وكان لتفويض المأمون إدارة البلاد إلى الفضل بن سهل أثر مهم في إحداث مشاكل أخرى للخليفة. هذا إضافة إلى سخط بعض العناصر العربية على السياسة الفارسية الجديدة، وإلى العداء المتأصل بين العلويين والعباسيين.

١ ـ ثورات العلويين

لقد انتهز العلويون الفوضى الشاملة بعد مقتل الأمين، فقاموا بثورات واسعة المدى في العراق والحجاز واليمن، وأخطرها ثورة أبي السرايا (السري بن منصور الشيباني) ومعه ابن طباطبا في الكوفة سنة ١٩٩ هـ/ ٨١٥ م. وقد استطاع العلويون موقتاً أن يحتلوا البصرة وواسط والحجاز واليمن في سنة ٢٠٠ هـ/ ٨١٦ م، وكان جميع الثوار على اتصال مباشر أو غير مباشر بثورة أبي السرايا[١٠].

وقد كان أساس هذه الثورات قبل كل شيء طموح العلويين وسنوح فرصة مناسبة لضرب العباسيين. ويذكر الطبري أنه بعد انتصارات أبي السرايا الأولى ضد جيوش الحسن بن سهل «انتشر الطالبيون في البلاد»، وعندما دحر جيشه لأول مرة من قبل الحسن بن سهل «وثب محمد بن محمد ومن معه من الطالبيين على دور بني العباس ودور مواليهم وأتباعهم في الكوفة، فانتهبوها وأخربوها وأخرجوهم من الكوفة وعملوا في ذلك عملاً قبيحاً»[١١]. وأرسل أبو السرايا كسوة إلى الكعبة مكتوباً عليها «أمر به (بإرسال الكسوة)... أبو السرايا داعية آل محمد لكسوة بيت الله الحرام وأن يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس»[١٢]، وكذلك نكل العلويون بالعباسيين في البصرة[١٣].

(١٠) انظر التفاصيل في: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢٢٧ وما بعدها؛ اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٧٣ وما بعدها، وعلي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين** (النجف: [د. ن.]، ١٣٥٣هـ/[١٩٣٤م])، ص ٣٥٠.

(١١) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(١٢) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٣٢.

(١٣) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٣١.

وانضم إلى طموح العلويين عامل آخر، وهو سخط العناصر العربية ضد سياسة الفضل بن سهل الفارسية، إذ بعد صرف طاهر بن الحسين عن العراق وتعيين الحسن بن سهل لولايته (سنة ١٩٨ هـ) «تحدث الناس بالعراق بينهم أن الفضل بن سهل غلب على المأمون، وأنه يبرم الأمور على هواه ويستبد بالرأي دونه، فغضب لذلك من كان بها من بني هاشم ووجوه الناس، وأنفوا من غلبة الفضل بن سهل على المأمون . . . وهاجت الفتنة في الأمصار، فكان أول من خرج بالكوفة ابن طباطبا (صاحب أبي السرايا)»[١٤].

يرى جبريالي (Gabrielli) أن ثورة أبي السرايا كانت ثورة عربية عراقية صرفة، وأنها كانت حركة عامة لكل القوات العلوية في العراق، وهو يؤكد نقطة قوية وهي أن الشيعة كانت آنئذ عربية، وأن الثورة هذه هي ثورة عربية ضد بني العباس[١٥].

ومما ساعد على توسيع الثورة في العراق، ضجر الناس من فتنة الأمين والمأمون، فصار بعضهم يتمنى الخلاص من ذلك الوضع السيىء. ويظهر أن العلويين أدركوا ذلك، فنجد ابن طباطبا يدعو الناس إلى «كتاب الله وسنّة نبيه (ﷺ) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسيرة بحكم الكتاب»[١٦]. وقد كان لرفع يد طاهر الحديدية من العراق وضعف الحسن بن سهل أثر في استفحال الفتنة.

ويظهر أن أبا السرايا كان هو القائد الحقيقي للثورة، أما العلوي فكان شخصية ثانوية معنوية إلى جانبه، ويعطي الطبري أبا السرايا شخصية مشاغب مغامر، بينما يضفي عليه الأصفهاني صورة بطل شيعي[١٧]. ويرى جبريالي أنه كان «فارساً عربياً من الطراز القديم» وأنه كان قديراً جداً ونشيطاً. وقد لاقى أبو السرايا أول الأمر نجاحاً كبيراً، ولكن تسليم قيادة الجيش العباسي إلى القائد الكبير هرثمة بن أعين وتخاذل الكوفيين في نصرة أبي السرايا، ثم تخلي أشرافهم عنه وتهادنهم مع هرثمة[١٨]، أدى إلى فشل الحركة. وربما كان لوفاة ابن طباطبا الفجائية[١٩]، أو سمّه من قبل أبي السرايا[٢٠]، أثر في تضعضع الحركة. واستمرت الثورة من جمادى الآخرة

---

(١٤) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٢٧.

(١٥) جبريالي، **المأمون والعلويون**.

(١٦) أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص ٣٤٣.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٣٤٩.

(١٨) جبريالي، المصدر نفسه.

(١٩) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٧٣، وأبو الفرج الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ٣٤٩.

(٢٠) يقول الطبري «علم أبو السرايا أنه لا أمر له معه (ابن طباطبا) فسمّه». انظر: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ٢٢٨.

سنة ١٩٩ هـ/ كانون الثاني/ يناير سنة ٨١٥ م حتى مقتل أبي السرايا في ذي القعدة سنة ٢٠١ هـ/ حزيران/ يونيو سنة ٨١٦ م.

وما إن انتهت سنة ٢٠١ هـ حتى قضى العباسيون على ثورات العلويين، ولم يبق في العراق أية مقاومة سوى السخط من ولاية الحسن بن سهل، ولم يكن لهذا أي لون علوي. ثم جاء خبر البيعة للرضا التي اقترن بها تقريب العلويين لمدة قصيرة، فوقع ذلك وقوع الصاعقة على أهل بغداد.

٢ ـ البيعة لعلي الرضا

يقول جبريالي إن الرأي الشائع، وهو أن انتصار المأمون معناه انتصار النزعة الفارسية، وأن هذه النزعة تتضمن تأييد العلويين، هو رأي خطأ من وجهتين: **الأولى** أن التشيّع آنئذٍ كان عربياً؛ و**الثانية** أن النزعة الفارسية في حقيقتها لم تكن جزءاً من سياسة المأمون، وإنما هي سياسة الفضل بن سهل. ثم يبيّن أن المأمون، وإن كان له ميل عاطفي ديني سابق إلى العلويين، إلا أن هذا الميل ظهر بصورة فجائية ولأول مرة في الحقل السياسي في البيعة للرضا[٢١]. وهذا رأي يجدر التفكير به في هذا الباب.

ولكن قضية البيعة للرضا ليست بالمسألة السهلة، وهي تحتاج إلى تحقيق، وبخاصة أنها لم تبحث بحثاً شافياً[٢٢].

يقول الفخري عن المأمون: «ومن اختراعاته نقل الدولة من بني العباس إلى بني علي»[٢٣]. ويكتفي اليعقوبي بالقول بأن المأمون أشخص الرضا من المدينة إلى خراسان وبايع له بولاية العهد من بعده يوم الاثنين، السابع من رمضان سنة ٢٠١ هـ، ولا يوضح السبب[٢٤]. ويفسر الطبري هذه البيعة بقوله: «إنه (المأمون) نظر في بني العباس وبني علي، فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أورع ولا أعلم منه، وأنه سماه الرضا من آل محمد»[٢٥]. والظاهر أن الطبري يورد التفسير الذي وضعه المأمون لعمله، فقد ورد في المنشور الذي أصدره المأمون عند مبايعته الرضا أنه «بعد

---

(٢١) جبريالي، **المأمون والعلويون**.

(٢٢) انظر: حسن ابراهيم حسن، «المأمون وعلي الرضا،» **مجلة كلية الآداب** (جامعة القاهرة) (أيار/ مايو ١٩٣٣)، حيث تقتصر فائدته في أنه استفاد من مخطوطتين، ولكنه لم يستفد من المصادر المطبوعة إلا قليلاً.

(٢٣) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٦٣.

(٢٤) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٧٦.

(٢٥) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢٤٣.

استخارته الله وإجهاده نفسه في حقه وبلاده» اختار من البيتين العلوي والعباسي علي بن موسى بن جعفر «لما رأى من فضله البارع وعلمه الناصع وورعه الظاهر وزهده الخالص وتخليه من الدنيا وتسلمه من الناس. . . وسماه الرضي، إذ كان رضياً عند أمير المؤمنين»[٢٦]. ولهذا لا نستطيع قبول رواية الطبري على علاتها. والفخري نفسه يقوّي هذا الشك حين يقول إن المأمون «فكر في حال الخلافة بعده وأراد أن يجعلها في رجل يصلح لها لتبرأ ذمته، كذا زعم»، وإنه وجد علي الرضا أطيب رجال البيتين[٢٧]. وهو يقلل من قيمة هذه الرواية بعبارة «كذا زعم». كما إن صفات علي الرضا الممتازة لا تكفي لشرح اتخاذ المأمون خطوة سياسية بعيدة المغزى كهذه.

والذي أراه هو أن المأمون لم يقدم على البيعة للرضا لأنه أفضل البيتين، وبخاصة أن المأمون يناقض نفسه بادعاءاته، لأنه قال للحسن بن سهل قبيل البيعة للرضا: «إني عاهدت الله أن أخرجها إلى أفضل آل أبي طالب إن ظفرت بالمخلوع»[٢٨]. ومن ذلك يفهم أنه قرر نقل الخلافة إلى العلويين، ولم تكن المسألة مسألة اختيار أصلح رجال البيتين. وأنا أميل إلى أن تأثير الفضل بن سهل ووجود المأمون في خراسان هما اللذان اضطراه إلى اتخاذ هذه الخطة.

إن الفضل بن سهل هو الذي أوحى الفكرة للمأمون، ويقرّ الفخري هذا بقوله: «وكان الفضل بن سهل هو القائم بهذا الأمر (أي البيعة للرضا) والمحسن له»[٢٩]. ويبيّن الجهشياري حماس الفضل لهذه الفكرة وإلحاحه على مشاوري المأمون بقبولها[٣٠].كما يبيّن اليعقوبي أن رجاء إبن أبي الضحاك «قرابة الفضل بن سهل» كان رسول المأمون إلى الرضا، وهو الذي جاء به من المدينة[٣١]. وصرح نعيم بن خازم في حضرة المأمون بأن الفضل بن سهل هو الذي حمل المأمون على البيعة للرضا[٣٢]، كما إن البغداديين احتجوا على البيعة وقالوا: «إنما هذا دسيس من الفضل بن سهل»[٣٣]. وقد أشار الفضل بهذا الرأي لا حباً بعلي الرضا، وإنما كان ذلك نتيجة رغبته في إرجاع السلطة إلى الفرس لأن

---

(٢٦) **جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة**، جمعها أحمد زكي صفوت، ٤ ج (القاهرة: البابي، ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨)، ج ٣، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

(٢٧) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٢٨) أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص ٣٦٩، والنسيبي، في: **مجلة كلية الآداب** (١٩٣٣)، ص ٨٥.

(٢٩) ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ١٦٣.

(٣٠) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٣١٢.

(٣١) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٧٦.

(٣٢) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٣١٣.

(٣٣) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢٤٣.

نقل الخلافة إلى علوي معناه إبقاء مركز الخلافة في خراسان، إذ إن أهل بغداد لا يرضون بمبايعة علوي مطلقاً. ويؤيد هذا قول نعيم بن خازم للفضل: «إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس إلى ولد علي، ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسروياً»[٣٤]. وهذه النظرة تفسر لنا الخلاف بين الفضل بن سهل وعلي الرضا في ما بعد.

وهناك عامل ثان مهم، وهو أن الخراسانيين بعد تأييدهم العباسيين وجدوا من جور عمالهم الشيء الكثير، كما لاحظوا تنكيل العباسيين بزعمائهم، كالخلال وأبي مسلم والبرامكة، فانقلبت ميولهم مع خصومهم العلويين. ولدينا شواهد على ذلك، كاحتفاء الخراسانيين العظيم بعلي الرضا[٣٥]، وكما حصل بعد مقتل الفضل بن سهل حين شغب الخراسانيون على المأمون وهجموا على داره، ولم يهدأوا إلا بعد أن طلب منهم الرضا أن يتفرقوا[٣٦]. ثم إن الطريقة التي سلكها المأمون لإقناع الرضا بقبول العهد تدل على أن الخليفة كان مضطراً إلى تنفيذ خطته، فقد امتنع الرضا أول الأمر، فهدّده المأمون قائلاً: «لا بد من قبولك ما أريد، فإني لا أجد محيصاً عنه. إن عمر بن الخطاب جعل الشورى في ستة أحدهم جدك... وشرط فيمن خالف أن تضرب عنقه»[٣٧]. وهذا يُشعر بأن المأمون كان مرغماً على مجاراة الخراسانيين. ومن جهة أخرى أراد المامون أن يسير خطوة جديدة في إحياء حكم العدل الذي وعد به الخراسانيين، فصرح لهم إنه اختار للخلافة خير من يصلح لها من بني هاشم، ولذلك لقب علي بن موسى «الرضيّ من آل محمد».

ويمكن إضافة عامل له أهمية ثانوية، إذ إن انتصار المأمون كان ضربة لبني العباس أخوال الأمين، ودحراً لآمالهم. ثم إن تذمر العلويين المستمر وثوراتهم هدداه بفقدان تأييد الفرع الثاني من بني هاشم. وإذا تذكرنا ميول المامون العلوية ورغبته في اكتساب تأييدهم، وجدنا أنه كان عنده بعض الاستعداد للتفاهم مع العلويين.

وكانت البيعة في رمضان ٢٠١ هـ/ آذار (مارس) ٨١٨ م. ولكن العلاقة بين الفضل بن سهل والرضا ساءت، وذلك لتباين اتجاههما، فالرضا بما عرف عنه من ورع واستقامة لم يرض عن سياسة الفضل بن سهل، فكان ينتقده عند المأمون، وأخذ الفضل بدوره يشاغب علي الرضا[٣٨]، فاستفاد المأمون من هذا الوضع.

---

(٣٤) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٣١٣.

(٣٥) **مجلة كلية الآداب** (١٩٣٣)، ص ٨٨.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٩٢ ـ ٩٣.

(٣٧) انظر: المصدر نفسه، ص ٨٦، وأبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبين**، ص ٣٦٩.

(٣٨) **مجلة كلية الآداب** (١٩٣٣)، ص ٨٩.

وقد كان وقع البيعة في بغداد وقع الصاعقة، إذ إن مجرد بقاء المأمون في مرو ولد حرباً داخلية وفتناً في تلك المدينة لأن أهاليها خشوا أن يضيع نفوذهم، وأنفوا من أن يكون واليهم (الحسن بن سهل) أجنبياً، كما أنهم «أنفوا من غلبة الفضل بن سهل على المأمون»[٣٩]. ولما سمعوا بالبيعة للرضا ثار أهل محلة الحربية ضد الحسن بن سهل وأخرجوه من بغداد، وذهبوا إلى صالح بن المنصور وقالوا له: «نحن أنصار دولتكم وقد خشينا أن تذهب هذه الدولة بما حدث فيها من تدبير المجوس، فهلمّ نبايعك، فإنا نخاف أن يخرج هذا الأمر عنكم»[٤٠]. ويقول الطبري: إنهم احتجوا و«قال بعضهم لا نبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس، وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل»[٤١]. ثم بايعوا لإبراهيم ابن المهدي (بعد رفض محمد بن صالح المنصور) في ذي الحجة ٢٠١هـ/ تموز (يوليو) ٨١٦ م[٤٢].

ولم يطلع المأمون على الحالة في بغداد حتى سنة ٢٠٢ هـ حين أخبره الرضا، وفهم عندئذ نيات بني سهل ووضعه الخطر، فأدى ذلك به إلى محاولة التخلص من الرضا، فيقال إنه سمه (بالعنب أو بعصير الرمان) في الطريق إلى بغداد في أول سنة ٢٠٣ هـ في قرية نوقان قرب طوس[٤٣].

وأخيراً نقول إن البيعة ذاتها لم تقرب جميع العلويين من المأمون، ولكنها أرضت قسماً كبيراً منهم فقط، كإبراهيم بن موسى بن جعفر المتغلب على الحجاز، فإنه بايع للمأمون حالما سمع بالتولية[٤٤].

٣ ـ علاقة المأمون ببني سهل

لاحظنا أن الفضل بن سهل أدى الدور الرئيسي في تغلب المأمون على أخيه، فأظهر الخليفة الجديد اعترافه بهذه الخدمات بأن أطلق يد وزيره في الأمور «وسماه ذا الرياستين، ومعنى ذلك رياسة الحرب ورياسة التدبير»[٤٥]، أي أنه أصبح مطلق التصرف تقريباً في كل ناحية من نواحي الإدارة والسياسة والحرب. ويشير الحسن بن سهل (في جوابه على تعزية المأمون له بعد قتل أخيه) «إلى ما نفذه (المأمون) من أمره

(٣٩) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢٢٧.
(٤٠) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٧٩.
(٤١) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٤٣.
(٤٢) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٧٩.
(٤٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨٠، وأبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، ص ٣٧١.
(٤٤) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٧٣.
(٤٥) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٣٠٥.

(أي الفضل بن سهل) في جميع سلطانه وملكه من مشارق الأرض ومغاربها»[٤٦].

وقد كتب المأمون إلى الفضل بن سهل توقيعاً قال فيه: «أغنيت يا فضل بن سهل بمعاونتك إياي على طاعة الله وإقامة سلطاني، فرأيت أن أغنيك... وقد أقطعتك السيّب بأرض العراق... عطاء لك ولعقبك لما أنت عليه من النزاهة عن أموال رعيتي، ولما قمت به من حق الله وحقي، فلم تأخذك في لومة لائم ولم تراقب ذا سلطان ولا غيره .**وقد جعلت لك بعد ذلك مرتبة من يقول في كل شيء فيسمع منه، ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزمت أمرتك به** من العمل لله ولنبيه، والقيام بصلاح دولة أنت ولي بقيامها»[٤٧].

ولم يتوان الفضل بن سهل في القبض على مقاليد الأمور بيد حديدية حتى إنه «استولى على المأمون»، كما يقول الفخري، وقطع عنه الأخبار وعاقب من حاول إخباره بخبر ما، وذلك ليستولي على الأمور وليصرفها بحسب سياسته الفارسية، ولم يتردد في تشويه الأخبار حتى إنه فسر ثورة البغداديين وبيعتهم لإبراهيم بن المهدي بأنهم «صيّروا إبراهيم بن المهدي **أميراً** يقوم بأمرهم»[٤٨] لا خليفة. وعيّن أخاه الحسن والياً على العراق ليكون متأكداً من السيطرة على القسم الغربي من المملكة، وحرم من هذه الولاية طاهر بن الحسين مع أنه هو الذي ثبت أركان حكم المأمون عسكرياً، وأرسله لمحاربة نصر بن شبث الثائر في الجزيرة.

أما اتجاه سياسة الفضل بن سهل فكان فارسياً شكلاً وحقيقة، فمن مظاهر تقليده الساسانيين ما يرويه الجهشياري حين يقول: «وكان ذو الرياستين يجلس على كرسي مجنح ويحمل فيه إذا أراد الدخول على المأمون، فلا يزال يُحمل حتى تقع عين المأمون عليه، فإذا وقعت وضع الكرسي ونزل عنه فمشى وحمل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون، ثم يسلم ذو الرياستين ويعود ويقعد عليه... وإنما ذهب ذو الرياستين في ذلك مذهب الأكاسرة فإن وزيراً من وزرائها كان يحمل في مثل ذلك الكرسي ويقعد بين أيديها عليه»[٤٩]، ولعل الجناحين هما أجنحة أهورا مزدا إله الخير عند الزرادشتية.

وهناك بعض الأمثلة التي تبيّن أن هذه السياسة كانت في حقيقتها فارسية تسعى لإحياء مجد الفرس ولإرجاع السلطة إليهم. وقد احتجّ أهل بغداد على تصرفات بني

(٤٦) **جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة،** ج ٣، ص ٤٠٧.

(٤٧) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٣٠٦. ويظهر أن هذا التوقيع هو ما يسميه اليعقوبي بكتاب الشرط والحباء. انظر: اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٧٠.

(٤٨) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢٥٠.

(٤٩) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٣١٦.

سهل أمام محمد بن صالح بن المنصور قائلين: «وقد خشينا أن تذهب هذه الدولة بما حدث فيها من تدبير المجوس»[٥٠]. ولعل الوصف الأكثر صراحة لهذه السياسة هو ما قاله نعيم بن خازم حين استشاره المأمون في أمر البيعة للرضا، فاستنكر ذلك وقال للفضل: «إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس إلى ولد علي، ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسروياً، ولولا أنك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة علي وولده وهي البياض إلى الخضرة وهي لباس كسرى والمجوس». ثم التفت إلى المأمون وقال: «الله الله يا أمير المؤمنين! لا يخدعنك عن دينك وملكك»[٥١]. وقد ذهبت هذه الصرخة سدى لأن نفوذ الفضل كان قوياً، فنفى نعيم بن خازم.

وقد ذهب هرثمة بن أعين، القائد العربي، ضحية لسياسة الفضل بن سهل، إذ قدم إلى خراسان بعد اضطراب الأحوال في بغداد وفي الولايات الغربية «وأراد أن يعرف المأمون ما يدبر عليه الفضل بن سهل ويكتم عنه من الأخبار وألا يدعه حتى يرده إلى بغداد... ليتوسط سلطانه ويشرف على أطرافه»[٥٢]. وقد تمكن هرثمة، على الرغم من دسائس ابن سهل من مقابلة المأمون فلامه على اتجاه سياسته قائلاً: «قدمت هذا المجوسي (يقصد الفضل بن سهل) على أوليائك وأنصارك»[٥٣]، وحاول تبيان خطر هذه السياسة واتجاهها الفارسي، ولكن الفضل بن سهل لم يفسح له المجال، فسجن هرثمة وقتل في السجن بدسيسة الفضل بن سهل[٥٤]، ومجيء هرثمة هذا ونهايته دليل واضح على أن سياسة الفضل بن سهل كانت فارسية في اتجاهها وأن بقاء المأمون في خراسان كان بتأثير وزيره. ويروي اليعقوبي أن الفضل بن سهل كان يتمثل بالأبيات التالية:

لئن نجوت أو نجت ركائبي ... من غالب ومن لفيف غالب

إني لنجاء من الكرائب

ويقصد بغالب قريشاً[٥٥]، وبهذا يعترف الفضل بالخلاف الجوهري بين سياسته الحقيقية ومصالح العباسيين.

---

(٥٠) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٧٩.

(٥١) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ٣١٣.

(٥٢) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢٣٦.

(٥٣) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٧٨.

(٥٤) انظر: الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٣٦، والجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٣١٣ و٣١٧.

(٥٥) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨١.

ويتفق المؤرخون على أن الرضا هو الشخص الوحيد الذي تجرأ على إخبار المأمون «بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار وأن أهل بيته والناس نقموا عليه أشياء»[٥٦]، كالبيعة له بولاية العهد وتغيير لباس السواد[٥٧] وأخبره عن بيعة البغداديين لإبراهيم بن المهدي، فأنكر المأمون ذلك وسأل قواده، فأكدوا ما قاله الرضا وأشاروا عليه «الرأي أن تسير بنفسك إلى بغداد وتستدرك أمرك وإلا خرجت الخلافة من يدك»[٥٨].

وعند ذلك انتبه المأمون للخطر المحدق به، إذ شعر بالإضافة إلى الاضطرابات في مصر والجزيرة، بخطر حرب أهلية جديدة بين أعضاء العائلة المالكة، كما أنه أدرك مغزى سياسة الفضل بن سهل، فاتجه إلى بغداد سنة ٢٠٢ هـ/ ٨١٧ م. وهذا الاتجاه لم يكن مجرد تبديل للعاصمة، بل كان انقلاباً على السياسة التي تمثلها العاصمة الأولى، ومعنى ذلك لزوم التخلص من الفضل بن سهل ومن ولي العهد. ولذلك دسّ إلى الفضل بن سهل من قتله في الطريق في مدينة سرخس (شعبان سنة ٢٠٢ هـ)، ثم تخلص من ولي العهد في قرية النوقان (قرب طوس) أول سنة ٢٠٣ هـ[٥٩]. وهاتان الحادثتان تدلان بوضوح على أن المأمون كان منصورياً (نسبة إلى المنصور) في سياسته.

ثم وصل المأمون إلى بغداد في ربيع الأول سنة ٢٠٤ هـ[٦٠]. وبعد وصوله بمدة تراوح بين ثمانية أيام وتسعة وعشرين يوماً (بحسب اختلاف المصادر)[٦١] ترك الخضرة ورجع إلى السواد. ولكنه لم يقطع صلته ببني سهل، بل اتبع سياسة تدريجية حكيمة، فاستوزر الحسن بن سهل لمدة قصيرة، وتزوّج بابنته بوران (وكانت صغيرة)[٦٢] ترضية له، ولكنه كان في الحقيقة يشرف على الأمور بنفسه. ثم أحب قطع آخر صلة بالحسن بن سهل، فصرفه عن الوزارة واستعمل الدهاء في ذلك.

---

(٥٦) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٥٠.

(٥٧) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٦٤.

(٥٨) المصدر نفسه.

(٥٩) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ص ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٦٠) أبو الفضل أحمد الخراساني بن طيفور، **كتاب بغداد**، باعتناء كيلر (ليبزج: [د. ن.]، ١٩٠٨)، ج ٦، ص ١١.

(٦١) انظر: المصدر نفسه، ص ٣، والطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢٥٥.

(٦٢) عن تفاصيل، انظر: أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف** (القاهرة: مطبعة دار إحياء الكتب العربية، ١٩٢٤)، واليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٨٦.

ويذكر المسعودي أن سبب تنحية الحسن هو المرض، ويقول: «فلما أظهر الحسن العجز عن الخدمة لعوارض من العلل ولزم منزله عدل المأمون إلى استكتاب كتّاب. . . »[٦٣]. ويصف الفخري مرضه بأنه «سوداء كان أصلها جزعه على أخيه، فانقطع بداره ليتطبب واحتجب عن الناس»[٦٤]. ولكن يظهر أن هذه مجرد مظاهر، إذ نستدل من المحاورة التي جرت بين المأمون والوزير الجديد أحمد بن أبي خالد الأحول على أن المأمون أشاع هذه الأقوال أو أن الحسن لزم داره حين أراد المأمون صرفه، إذ قال أحمد للمأمون: «يا أمير المؤمنين إعفني من التسمي بالوزارة وطالبني بالواجب فيها»[٦٥]. وقال له أيضاً: «واجعل بيني وبين الناس منزلة يرجوني لها صديقي ويخافني بها عدوي، فما بعد الغايات إلا الآفات»[٦٦]. ومن هذا نستنتج أن عزل الحسن لم يكن لعامل مرضي، ويذكرنا موقف أحمد بن أبي خالد بموقف خالد البرمكي في زمن أبي العباس بعد مقتل الخلال.

ولكن المأمون كما يظهر لم يستفد كل الفائدة من تجربته مع بني سهل، إذ اعتمد على عائلة فارسية أخرى (وهي عائلة طاهر بن الحسين)، واسند إليها إدارة أهم جزء من الإمبراطورية، فانتهى بها الحال إلى أن انفصلت فعلاً في خراسان وكوّنت الإمارة الطاهرية هناك.

٤ ـ المأمون وبنو طاهر بن الحسين

عندما ولى الفضل بن السهل أخاه على العراق بعث الحسن بن سهل طاهر بن الحسين لمحاربة نصر بن شبث في الجزيرة، فغضب طاهر وقال: «حاربت خليفة وسقت الخلافة وأومر بمثل هذا؟ وإنما ينبغي أن توجه لهذا قائداً من قوادي» وكان ذلك سبب الخصومة بين طاهر والحسن[٦٧]. واتخذ طاهر الرقة مركزه، فلما رجع المأمون إلى بغداد دعاه إليه حالاً[٦٨]، ثم ولاّه على المغرب كله بعد دخوله بغداد بشهر[٦٩]. وفي ذي القعدة سنة ٢٠٤هـ ولاّه الشرط في بغداد ومعاون السواد[٧٠]،

(٦٣) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٢٠٤.
(٦٤) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٦٨.
(٦٥) المسعودي، المصدر نفسه، ص ٣٠٤.
(٦٦) ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ١٦٨.
(٦٧) ابن طيفور، **كتاب بغداد**، ص ٣٣.
(٦٨) المصدر نفسه، ص ٢.
(٦٩) انظر: المصدر نفسه، ص ٥٥، واليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٨٢.
(٧٠) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢٦٤، وابن طيفور، المصدر نفسه، ص ٥٥ و٣١.

وفي ذي القعدة من سنة ٢٠٥هـ ولاّه «على خراسان والجبال من حد حلوان إلى خراسان»[٧١].

ويبيّن الطبري وابن طيفور أن تولية طاهر على خراسان كانت برغبة منه، وأن سببها هو حذره من قرب المأمون الذي لم ينس مقتل أخيه، إذ إنه بكى يوماً بحضرة طاهر، فتمكن هذا بعدئذ من معرفة سبب بكائه بعد أن قال لأحد ثقات الخدم: «إني ذكرت محمداً أخي وما ناله من الذلة فخنقتني العبرة، فاسترحت إلى الإضافة، ولن يفوت طاهراً مني ما يكره»[٧٢]. ولكني أرى أن طاهراً كان مدفوعاً بطموحه العظيم لطلب هذه التولية لأن خراسان كانت أهم ولايات الإمبراطورية. ويروي ابن خلكان: «وقيل لطاهر ببغداد لما بلغ ما بلغ: ليهنئك ما أدركته من هذه المنزلة التي لم يدركها أحد من نظرائك بخراسان. فقال: ليس يهنئني ذلك لأني لا أرى عجائز بوشنج (في خراسان) يتطلعن إليّ من أعالي سطوحهن إذا مررت بهن»[٧٣]. وكان ذلك الطموح يقلق المأمون نفسه كما يظهر من المحاورة التي جرت بينه وبين وزيره، إذ علق الخليفة على الاقتراح بتولية طاهر قائلاً: «هو والله خالع»[٧٤] أو «إني أخاف أن يغدر ويخلع»[٧٥]. ولم يكن المأمون ليلام في ذلك الحذر لأنه عرف شعور الخراسانيين الذين خيب العباسيون آمالهم بعد مجيئهم إلى الحكم، ثم خيبها هو ثانية بالرجوع إلى بغداد، فصاروا يشعرون بأن خير طريقة لسعادتهم هي الانفصال، ولذلك كانوا أرضاً خصبة لطموح الطامحين.

وكانت تولية طاهر بإشارة من صديقه الوزير أحمد بن أبي خالد، ويذكر اليعقوبي أن طاهراً أعطى الوزير ثلاثة ملايين درهم[٧٦]. ويروى أن الوزير أتى إلى المأمون وحذره من ضعف والي خراسان، وهو غسان بن عباد ابن عم الفضل بن سهل[٧٧]، وهناك رواية في اليعقوبي مضمونها أن الوزير زوّر رسالة على لسان غسان يستعفي فيها من الولاية، وأن المأمون لم يكتشف ذلك إلا في ما بعد[٧٨].

---

(٧١) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٥٧.

(٧٢) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٥٧، وابن طيفور، المصدر نفسه، ص ٣٢.

(٧٣) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ٢ ج (القاهرة: الحلبي، ١٣١٠هـ/[١٨٩٢م])، ج ١، ص ٢٣٦.

(٧٤) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٥٨، وابن طيفور، المصدر نفسه، ص ٣٢.

(٧٥) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٦٨.

(٧٦) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٨٣.

(٧٧) ابن طيفور، **كتاب بغداد**، ص ٣٢ و٥٤.

(٧٨) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨٣.

ولما أبدى المأمون مخاوفه من عصيان طاهر، ضمن الوزير حسن تصرفه. ولم تمض مدة طويلة حتى «أنكر المأمون»[٧٩] على طاهر «أموراً وكتب إليه كتاباً يتهدده فيه، فكتب طاهر جواباً أغلظ فيه للمأمون». ثم تطور سوء العلاقة إلى عصيان حين قطع طاهر اسم الخليفة من الخطبة في يوم جمعة من سنة ٢٠٧هـ. ويروي القصة صاحب بريد المأمون في مرو إذ يقول: «حضرت الجمعة فصعد طاهر المنبر فخطب، فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له وقال: اللهم أصلح أمة محمد (ﷺ) بما أصلحت به أولياءك واكفها من بغى فيها وحسد عليها من لمّ الشعث وحقن الدماء وإصلاح ذات البين»[٨٠]. ومعنى هذا أنه أعلن انفصاله التام عن مركز الخلافة واستقلاله.

وتتفق أكثر المصادر على أن المأمون لام وزيره وأمره بتنفيذ ضمانه، ولكن طاهر بن الحسين لاقى حتفه فجأة. وعلى رغم اضطراب الروايات في كيفية وفاته، فالراجح أنه اغتيل أو سمّ بإيعاز المأمون أو بإيعاز وزيره[٨١]. ويظهر أن رغبة المأمون في نفي أي تهمة عن نفسه، وكذلك قوة نفوذ العائلة في خراسان، جعلا الخليفة يولي طلحة بن طاهر محل والده[٨٢].

أما عبد الله بن طاهر، فكان أقدر أبناء طاهر وأكثرهم دهاء، فلما ولي أولاده على خراسان، استخلفه على الشرط في بغداد وعلى معاون السواد[٨٣]. ثم ولاه المأمون على «الجزيرة والشام ومصر والمغرب، وصيّر إليه جميع أهلها، وأمره بمحاربة المتغلبين، فنفذ عبد الله سنة ٢٠٦ هـ»[٨٤]. وقد نجح عبد الله بتهدئة الحال في تلك الولايات كما سنرى. ولما توفي أخوه طلحة سنة ٢١٣ هـ عيّنه المأمون لولاية خراسان سنة ٢١٤ هـ[٨٥]. وقد أدى ذلك إلى تثبيت حكم العائلة الطاهرية فيها ونشوء أول إمارة فارسية شبه مستقلة في إيران.

---

(٧٩) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٦٨.

(٨٠) ابن طيفور، **كتاب بغداد**، ص ١٣٠ ـ ١٣١.

(٨١) انظر في هذا: المصدر نفسه، ص ١٢٨ ـ ١٣١؛ اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٨٤؛ ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ١٦٨ ـ ١٦٩؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦، وابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ١، ص ٢٣٧.

(٨٢) ابن طيفور، المصدر نفسه، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٨٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٦٤.

(٨٤) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٨٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٧٦، وابن طيفور، **كتاب بغداد**، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢.

ثانياً: الاضطرابات في الجزيرة والشام ومصر

ثار نصر بن شبث النصري في الجزيرة بعد مقتل الأمين، وتوسعت ثورته، وقد يكون ذلك ناتجاً من قلة اهتمام طاهر بمحاربته لأن طاهراً لم يعجبه إسناد تلك المهمة إليه(٨٦). ولم تكن ثورة نصر ضد الحكم العباسي، بل كانت ثورة العرب ضد النفوذ الفارسي. وخير دليل على ذلك أن بعض الطالبيين ذهب إلى نصر وطلب منه البيعة لعلوي، فرفض وقال: «إنما هو أي مع بني العباس وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم»(٨٧). وكان أتباع نصر من العرب فقط، فلما اشترط عليه المأمون أن يطأ بساطه ليعفو عنه، غضب وقال: «ويلي عليه هو لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه (يعني الزط) **يقوى على حلبة العرب!**»(٨٨) وربما كان في ثورة نصر شيء من النزعة البدوية التي تمثلت من قبل في ثورات الخوارج في الجزيرة.

ولما ولى المأمون عبد الله بن طاهر الولايات الغربية، جدّ هذا في محاربة نصر وضيّق عليه الخناق، وكان يحاول أثناء ذلك إقناعه بقبول الصلح. وأخيراً، اضطر نصر إلى طلب الصلح سنة ٢٠٩ هـ. فأجاز المأمون ذلك لقائده وكتب إلى نصر كتاب أمان جاء فيه: «وأمير المؤمنين يختم كتابه بشهادة أن لا إله إلا الله. . . وضمانه لك في دينه وذمته الصفح عن سوالف جرائمك ومتقدمات جرائرك وإنزالك ما تستأهل من منازل العز والرفعة إن أتيت إن شاء الله»(٨٩). فسلم نصر وجيء به إلى بغداد سنة ٢١٠ هـ.

ثم حاول عبد الله بعد ذلك تهدئة الشام بالقوة والاستصلاح، فيذكر اليعقوبي أنه سار «ليستقرئ الشام بلداً بلداً لا يمر ببلد إلا أخذ رؤساء القبائل والعشائر والصعاليك والزواقيل، وهدم الحصون وحيطان الدور وبسط الأمان للأسود والأبيض والأحمر وضمهم جميعاً وحطّ عن بعضها الخراج، فلم يبق مخارق ولا خالع إلا خرج من قلعته وحصنه»(٩٠).

---

(٨٦) انظر: اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨٣، وابن طيفور، المصدر نفسه، ص ٣٣.

(٨٧) أحمد فريد رفاعي، **عصر المأمون**، ٣ ج (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٧)، ج ١، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

(٨٨) ابن طيفور، المصدر نفسه، ص ١٤٢ ـ ١٤٣؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢٦٧، وأبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، **تاريخ الكامل**، ١٢ ج في ٦ (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٠٣هـ/[١٨٨٥م])، ج ٦، ص ١٣٢.

(٨٩) ابن طيفور، المصدر نفسه، ص ١٤٠، والطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٦٨.

(٩٠) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٩١.

أما في مصر، فقد كانت الحالة مضطربة منذ بدء الخلاف، وكانت القبائل منقسمة في أثناء ذلك إلى حزبين. وقد وقف اليمانية إلى جانب المأمون، بينما أيّد القيسية الأمين، واستمر النزاع حتى مقتل الأمين[٩١]. وبعد سكون قليل رجعت الفتنة بثورة عبد الله بن السري (بعد سنة ٢٠٥ هـ)، وتمكن ابن طاهر بعد جهد أن يضطره إلى التسليم في صفر سنة ٢١١ هـ/ ٨٢٦ م[٩٢]. ويبيّن المقريزي أنه كان لظلم عامل المأمون أثر في تحريك هذه الثورة، إذ يذكر أن العباس بن موسى الذي ولي مصر سنة ١٩٨ هـ «تحامل على الرعية وعسفها وتهدّد الجميع فثاروا»[٩٣].

وكان بعض الأندلسيين الذين نفاهم الحكم بن هشام، بعد وقعة الربض في قرطبة، قد جاؤوا إلى الإسكندرية في أثناء فتنة ابن السري (وكان عددهم حوالى ثلاثة آلاف) وتغلبوا عليها ونزلوها، فحاصرهم عبد الله وفاوضهم في الخروج منها، فتركوها سنة ٢١٢ هـ وساروا إلى أقريطش ونزلوا فيها واستوطنوها[٩٤].

ثم ثارت القبائل العربية من اليمانية والقيسية في ناحية الحوف (أسفل مصر) سنة ٢١٤ هـ/ ٨٢٩ م، وكانت ولاية مصر آنئذٍ لأبي إسحاق (المعتصم)، فهزموا نائبه وقتلوا الثاني. ويظهر أن الثورة كانت خطرة، فأمر المأمون أبا إسحق أن يذهب للقضاء عليها، فذهب إلى مصر ودعا الثوار إلى الأمان، فلم يجيبوا، فنكّل بهم «وأسر رئيس القيسية ورئيس اليمانية فضرب أعناقهما»[٩٥]. وقد كان لسياسة الولاة المالية الأثر الأكبر في قيام هذه الثورة، إذ إن نائب أبي إسحق على الخراج (سنة ٢١٣ هـ)، وهو صالح بن شيرزاد «ظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم، فانتفض أهل أسفل الأرض وعسكروا»[٩٦].

---

(٩١) انظر مادة «مأمون»، في: **دائرة المعارف الإسلامية.**

(٩٢) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٦، ص ١٣٤.

(٩٣) أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، **الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها**، ٥ ج (القاهرة: مكتبة المليجي، [١٩٠٦ ـ ١٩٠٨])، ج ٢، ص ٩٩.

(٩٤) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٠١ و٢٣٥؛ الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦؛ اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٨٨، وأبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر**، ٧ ج (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٨٤هـ/ [١٨٦٧م])، ج ٣، ص ٢٥٣.

(٩٥) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩١.

(٩٦) المقريزي، **الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها**، ج ٢، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

وعندما رجع أبو إسحق تجدد الاضطراب، فأرسل المأمون الأفشين سنة ٢١٥ هـ فقضى على الفتنة.

ولكن مصر لم تهدأ، فقد قامت ثورة عظمى سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م، وكانت عنيفة في المناطق الزراعية المكتظة بالسكان في مصر السفلى، واشتركت جماهير القبط مع العرب فيها محتجة على سياسة العباسيين المالية وعسف جباتهم. ويروي المقريزي «فانتفضت أسفل الأرض (مصر السفلى) عربها وقبطها في جمادى الأولى (٢١٦ هـ) وأخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة»[٩٧]. وقد اضطر المأمون إلى القدوم بنفسه لضخامة هذه الثورة وخطورتها، وكان على جيشه الأفشين، فتغلب على الثوار وسبى قسماً كبيراً من القبط. ويروي اليعقوبي خبراً طريفاً يلقي ضوءاً على سياسة المأمون، فيذكر أن الخليفة استفتى فقيهاً مالكياً في معاملة الثوار، فقال الفقيه: «إن كانوا خرجوا لظلم نالهم، فلا يحل دماؤهم وأموالهم»، فقال المأمون: «أنت تيس ومالك أتيس منك! هؤلاء كفار لهم ذمة إذا ظلموا تظلّموا إلى الإمام وليس لهم أن يستنصروا بأسيافهم ولا يسفكوا دماء المسلمين في ديارهم»[٩٨]. وهكذا اعترف المأمون بوقوع الظلم، إلا أنه لم ير مسوّغاً للثورة. ثم أخذ المأمون رؤساء الثورة إلى بغداد، وعزل عامل الخراج «ونسب الحدث إليه وإلى عماله»[٩٩]، ما يبيّن أن أساس هذه الثورة مالي.

ثالثاً: المأمون والبيزنطيون

شغل المأمون بمشاكله الداخلية عن متابعة الحرب مع البيزنطيين، فلما كان المحرم سنة ٢١٥ هـ/ آذار (مارس) ٨٣٠ م غزا الصائفة بنفسه، وفتح حصن قرة وحصن شمال «صملة»، وأخضع سندس وحصن سنان وحصن ماجدة[١٠٠]، ثم رجع إلى دمشق ومنها إلى مصر.

ولكن الروم استغلوا انشغال المأمون بمصر، فأغاروا بقيادة تيوفيل بن ميخائيل على طرسوس والمصيصة «وأثخنوا فيهم القتل»[١٠١]. وقد سار المأمون إليهم في

---

(٩٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٠.

(٩٨) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٩٩) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٠.

(١٠٠) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢٨٠؛ الذهبي، **كتاب دول الإسلام**، ج ١، ص ١٠١، وأبو عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **المعارف** (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٣٥)، ص ١٧١.

(١٠١) ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر**، ج ٣، ص ٢٥٦.

جمادى الأولى وأخضع هرقلة وافتتح، بحسب رواية اليعقوبي، اثني عشر حصناً وعدة مطامير[١٠٢]، بينما جعلها الطبري ثلاثين حصناً ومطمورة (نقطة محصنة)[١٠٣]. وقد أرسل تيوفيل رسالة «سأل أن يقبل (المأمون) منه مائة ألف دينار والأسرى الذين عنده، وهم سبعة آلاف أسير، وأن يدع لهم ما افتتحه من مدائن الروم وحصونهم، ويكفّ عن الحرب خمس سنين، فلم يجبه إلى ذلك وانصرف»[١٠٤].

وفي السنة التالية (٢١٧ هـ/ ٨٣٢ م) افتتح المأمون حصن لؤلؤة وأمر ببناء الطونة. وارسل إليه تيوفيل رسالة يطلب الصلح جاء فيها: «وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا، ونكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً، مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة، فإن أبيت. . . فإني لخائض إليك غمارها». وقد أجاب المأمون بالتهديد خاتماً رسالته بالعبارات التالية: «غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفة، فإن أبيت ففدية توجب ذمة. . . وإن تركت ففي تعيين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ»[١٠٥].

وفي سنة ٢١٨هـ حصّن المأمون مدينة الطونة «وجعل سورها على ثلاثة فراسخ»، وأتى بالقوات إلى العواصم من العراق وسورية ومصر. ويظهر أنه فكر في خطة جبارة لفتح بلاد الروم. ويروي اليعقوبي أنه «استعد لحصار عمورية، وقال أوجه إلى العرب فآتي بهم من البوادي، ثم أنزلهم كل مدينة أفتحها حتى أضرب القسطنطينية»، وأنه رفض طلب امبراطور الروم الصلح. ولكنه توفي عاجلاً على نهر البدندون (Podandus) (قرب طوسوس)[١٠٦]. ومن هذا يتضح أن المأمون انتبه لغدر الروم المتواصل ولمحاولاتهم إثارة الفتن ضد العباسيين بخاصة في منطقة أرمينية، وإلى اتصالهم ببابك، ففكر في خطة واسعة المدى تقتضي فتح المدن وتأهيلها بالعرب لتثبت الفتوح، ثم ينقضّ بعدها على القسطنطينية ويقضي على البيزنطيين!.

---

(١٠٢) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٩٢.
(١٠٣) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢٨١.
(١٠٤) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٢.
(١٠٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤، وابن قتيبة، **المعارف**، ص ١٧١.
(١٠٦) انظر مادة «مأمون»، في: **دائرة المعارف الإسلامية**، واليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٦.

رابعاً: عهد المأمون ووصيته

خلع المأمون أخاه القاسم من العهد بعد انتصاره على الأمين، وكتب منشوراً بذلك في ربيع الأول سنة ١٩٨هـ[١٠٧]. وفي مرضه الأخير تجاوز ابنه العباس وعهد لأخيه أبي إسحاق المعتصم، وأوصاه بعدة أمور في وصية طويلة مجملها:

١ ـ تعضيد القول بخلق القرآن.

٢ ـ الاهتمام بشؤون جمهور الرعية، إذ يقول: «ولا تغفل أمر الرعية، الرعية الرعية، العوام العوام، فإن الملك بهم»، وتقديم مصلحة المسلمين على كل شيء والترفيه عنهم وإنصاف القوي من الضعيف.

٣ ـ التعجيل بالرجوع إلى العراق (لعل ذلك تلافياً للفتنة).

٤ ـ الاهتمام بالثغور والعواصم وبمن فيها من المقاتلة.

٥ ـ الجدّ في محاربة الخرمية فيقول: «والخرمية فاغزهم ذا حزامة وصرامة وجلد وأكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجال، فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك».

٦ ـ ألا يستوزر أحداً، وهذا نتيجة تجارب المأمون المرّة مع وزرائه.

٧ ـ الرفق بالعلويين «فأحسن صحبتهم وتجاوزعن مسيئهم واقبل عن محسنهم، وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها»[١٠٨].

وأهمية هذه الوصية أنها تعطي خلاصة تجارب المأمون، ونظرته إلى السياسة الرشيدة التي تحلّ بها المشاكل التي كانت تواجه الدولة في أواخر أيام حياته.

خامساً: تقدير

يمكن الآن تقدير شخصية المأمون وأثره، فقد كان منصورياً (أو مكيافيللياً) في سياسته، بارعاً في أساليب الدعاية ويهتم كثيراً لها. وقد أبدى جداً وعزيمة في محاربة البيزنطيين، وخطته الأخيرة تدل على بعد نظر واستقلال فكري. ولكن حكمه أدى إلى اختلال التوازن بين العرب والفرس من جديد، وساعد على انهيار التعاون بين العنصرين. ثم إننا نرى أن هناك ظاهرة جديدة، وهي تدخّل الخليفة في الجدل الديني

(١٠٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(١٠٨) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

وفرضه القول بخلق القرآن على الناس، وهذا هو بدء تدخل الخلفاء في قضايا العقائد العامة. ولا يخفى أثر المأمون في تشجيع الترجمة وتعزيزها. وفي عهده زاد تفسخ الدولة العباسية بتولية الطاهريين على خراسان واستقلالهم عملياً فيها.

نهاية العصر العباسي الأول:

يمكن اعتبار حكم المأمون نهاية العصر العباسي الأول سياسياً، وذلك للاعتبارات التالية:

١ ـ كان حكم المأمون نهاية فترة النفوذ الإداري والسياسي للفرس في جسم الدولة العباسية. وقد خلفتها فترة تفوق العنصر التركي.

٢ ـ بعد وفاة المأمون بدأت سيادة العناصر العسكرية وأخذها الدور الرئيسي في تسيير دفة الحكم وتقرير سياسة الدولة بعد أن كانت تلك العناصر ثانوية أو مسيّرة من قبل الوزراء والكتّاب.

٣ ـ بعد المأمون انتهى ذلك التعاون الوثيق بين الخراسانيين والعباسيين، وبدأ دور نشوء الإمارات المستقلة في إيران، كالطاهرية والصفارية والسامانية، وهي تمثل تعاون الأرستقراطية الفارسية مع الجماهير ضد العباسيين. وقد وصلت هذه الحركة الانفصالية إلى أوجها بظهور البويهيين، ثم دخولهم بغداد سنة ٣٣٤ هـ. ولا شك في أن استخدام العباسيين الفرس والتنكيل بأرستقراطيتهم كلما تراجع نفوذهم، وخيبة آمال الجماهير المتكررة، كان له أثر في تقرب الأرستقراطية من الجماهير وظهور الإمارات.

٤ ـ شهد حكم المأمون نهاية تلك الثورات العنيفة المسلحة للعلويين، وبدء دعاية سرية باسمهم وتوسعها التدريجي، وقد أدى ذلك إلى قيام الدولة الفاطمية.

٥ ـ كان نقل العاصمة إلى سامراء رمزاً لسياسة جديدة، وخرقاً للتقاليد العباسية التي كانت ترى في بغداد معقل السلطان العباسي.

ويمكن اعتبار خلافة المعتصم بمثابة الانتقال إلى العصر العباسي الثاني. ولذا فهي تستحق البحث بتفصيل.

الفصل التاسع

المعتصم بالله (أبو إسحاق محمد)(*)

(*) ١٨ رجب ٢١٨ هـ ـ ١٨ ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤١م، انظر الاختلافات في التواريخ في: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، راجع أصوله، ورقمه، وضبط مبهمه، وعلق عليه محمد محي الدين عبدالحميد، ٤ ج (القاهرة: دار الرجاء، ١٩٣٨)، ج ٤، ص ١، **والتنبيه والإشراف**، عني بتحقيقه ومراجعته عبد الله اسماعيل الصاوي (القاهرة: مكتبة الشرق الإسلامية، ١٩٣٨)، ص ٣٠٦؛ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٣ ج في ٥ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م)، ج ١، ص ٣٠٤؛ أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ٣ ج في ١ (النجف: المكتبة المرتضوية، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، ج ٣، ص ١٩٧ و٢٠٤؛ أحمد بن داود أبو حنيفة الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، تصحيح فلاديمير جرجاس (ليدن: بريل، ١٨٨٨)، ص ٣٩٧ و٤١٠، وأبو الفرج يوحنا غريغوريوس بن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، وقف على طبعه الأب انطون صالحاني (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٠)، ص ٢٤٢.

مقدمة

اختلف المؤرخون في أمر البيعة للمعتصم. والثابت أنه كان مع أخيه في طرسوس وأن الجند شغبوا وأرادوا مبايعة العباس بن المأمون، إذ يظهر أنه كان محبوباً لدى الجيش، وبخاصة العرب فيه(١).

١ ـ تتفق المصادر (عدا الدينوري) على أن العباس كان مع أبيه في الحملة، ولكنه لم يكن مع المعتصم في معسكر واحد(٢)، ولعله كان في طونة (Tyana)(٣).

وتقول بعض الروايات إن العباس أسرع إلى مبايعة عمه حسماً للفتنة. ويذكر الطبري وصاحب **العيون والحدائق** أنه عندما شغب الجند «أرسل أبو إسحاق إلى العباس فأحضره فبايعه، ثم خرج إلى الجند فقال: ما هذا الحب البارد وقد بايعت عمي وسلمت الخلافة إليه! فسكن الجند»(٤). ويقول اليعقوبي: «وامتنع بعض القواد من البيعة لمكان العباس من المأمون، فخرج إليهم العباس من مضربه، فكلمهم بكلام استحمقوه وشتموه وبايعوا لأبي إسحق»(٥).

ولكن المسعودي يبيّن أن العباس بايع بعد تردّد، فيقول: «وكان بينه (المعتصم) وبين العباس بن المأمون في ذلك الوقت تنازع في المجلس، ثم انقاد العباس إلى بيعته»(٦).

---

(١) **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، باعتناء ماتهيسن، ٢ ج (ليدن: [مطبعة بريل]، ١٨٤٩)، ص ١؛ الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٠٤؛ ابن العبري، المصدر نفسه، ص ٢٤٠، وعبد الرحمن سنبط الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك** (بيروت؛ القدس: مطبعة القديس جاورجيوس، ١٨٨٥)، ص ١٦١.

(٢) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٠٤، **والعيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ١.

(٣) انظر: William Muir, *The Caliphate, its Rise, Decline, and Fall: From Original Sources*, new and rev. ed. by T. H. Weir (Edinburgh: J. Grant, 1924), p. 513.

(٤) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٠٤، **والعيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ١.

(٥) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٩٧.

(٦) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٢.

وينفرد الدينوري برواية غريبة مؤداها أن المأمون «بايع لابنه العباس . . . بولاية العهد من بعده، وخلفه بالعراق»، وأن المعتصم دعا وجوه الأجناد والقواد في طرسوس إلى بيعته فبايعوه، «فسار من طرسوس حتى وافى مدينة السلام، فدخلها وخلع العباس بن المأمون عنها وغلبه عليها، فبايعه الناس»[٧]. ولكن الدينوري مؤرخ ضعيف، هذا بالإضافة إلى انفراده بهذه الرواية وإلى أن مضمونها لا يتفق وروح العلاقة بين العباس وعمه كما سنرى.

وكل ما نستنتجه هو أن العباس كان لديه بعض الطموح، وأن الجيش ظهرت منه بادرة التدخل في أمر البيعة لأول مرة، وكان قسم منه يميل إلى العباس، ولكن المعتصم أخمد المقاومة وتمت له البيعة.

٢ ـ كان المعتصم «أصهب أبيض، حسن الجسم، جميل الوجه، مربوعاً، مشرباً حمرة، عريض الصدر، شديد البدن، طويل اللحية لم يشب»[٨] حسن العينين[٩].

ويوصف المعتصم بقوته الجسمية وبشجاعته. ويقول صاحب **العيون والحدائق**: «وكان . . . غزير القوة يحمل ألف رطل ويمشي به خطوات»[١٠]. ويقول المسعودي: «وكان الرجل الذي لا يقاس به الرجال قوة بدن وشدة بأس وشجاعة قلب وكرم أخلاق»[١١]. ويقول الأربلي: «وكان يلوي العمود الحديد حتى يعيده طوقاً، ويشتد على الدينار بإصبعه فيمحو كتابته»[١٢]. ويبينّ الفخري أنه كان «موصوفاً بالشجاعة»[١٣].

ويُمدح المعتصم كرجل حرب قدير، فيقول الأربلي: «وكان من العظماء الموصوفين بالحزم ذوي المناقب الوافرة والفتوح الظاهرة والفضائل الجمة والهمة العالية جداً في إعزاز الدين. قيل إنه لم يكن في بني العباس قبله أشجع منه، ولا أتم تيقظاً في الحروب، ولا أشد قوة»[١٤]. ويذكر الفخري أنه كان «شديد الرأي».

ويظهر أنه كان قليل الثقافة، فيبينّ صاحب **العيون والحدائق** أنه «كان أمياً لا

(٧) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٩٦.
(٨) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٣٠٦.
(٩) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٧.
(١٠) **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٧٣.
(١١) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.
(١٢) الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك**، ص ١٦٢.
(١٣) محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ/[١٨٩٩م])، ص ٢٠٩.
(١٤) الأربلي، المصدر نفسه، ص ١٦١ ـ ١٦٢.

يكتب»[١٥]، بينما يذكر ابن خلكان أنه «كان. . . ضعيف الكتابة»[١٦]. ويظهر لي أن تأييده المعتزلة كان تقليداً لسياسة أخيه لا نتيجة ثقافة عالية، ولذلك كان أقل تسامحاً في معاملته أهل السنّة، حتى إنه أمر بضرب أحمد بن حنبل بالسياط وسجنه لأنه «امتنع أن يقول إن القرآن مخلوق»[١٧].

ولعله كان عسكرياً بطبعه، فمع أن أحمد بن أبي داوود «أطنب في فضله وذكر من سعة أخلاقه ولين جانبه وجميل عشرته»، إلا أن ابن أبي داوود كان من أقرب مقربيه، ولعل غيره كان أصدق منه حين قال: «إنه (المعتصم) إذا غضب لا يبالي من قتل ولا ما فعل»[١٨].

ومما ذكر يتضح أن المعتصم كان جندياً شجاعاً مدرباً في الحرب، يعتزّ بقوته الجسمية، إلا أن ثقافته كانت محدودة، ولعله لم يكن سياسياً بارعاً.

أولاً: المعتصم والأتراك

يتميز المعتصم من أسلافه بأنه استخدم الأتراك في الجيش وجعل جلّ اعتماده عليهم. يبينّ المسعودي أنه «آثر من استحدث من غلمان الأتراك على المتقدمين من أوليائه ونصحائه»[١٩]. نعم، إننا نجد إشارات إلى وجود أتراك في الجيش قبل المعتصم، فيذكر الطبري في حوادث سنة ١٧٠ هـ أن طرسوس عمرت على يد أبي سليم فرج الخادم التركي[٢٠]، ولكن عددهم كان ضئيلاً واستخدامهم كان عن طريق المصادفة لا عبر سياسة مدبرة.

ويظهر أن المعتصم استخدمهم قبل الخلافة، كما يبينّ اليعقوبي[٢١]. ويذكر الطبري خروج مهدي بن حلوان الحروري سنة ٢٠٢ هـ، ويقول: «فوجه إليه إبراهيم بن المهدي أبا إسحق بن الرشيد. . . ومع أبي إسحق غلمان له أتراك»[٢٢]، ولكنه

---

(١٥) **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٧٣.

(١٦) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ٢ ج (القاهرة: الحلبي، ١٣١٠هـ/[١٨٩٢م])، ج ٢، ص ٥٥.

(١٧) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٩٨.

(١٨) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٧.

(١٩) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٣٠٧.

(٢٠) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٥٠.

(٢١) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **البلدان** (النجف: المطبعة الحيدرية، ١٩٣٩)، ص ٢٣.

(٢٢) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٤٥.

بعد مجيئه إلى الحكم جدّ في جمعهم وقرر تكوين جيش يعتمد عليه منهم. يقول المسعودي إن المعتصم كان «يحب جمع الأتراك وشراءهم من أيدي مواليهم . . . (وأنه) ألبسهم أنواع الديباج والمناطق الذهبية والحلية وأبانهم بالزي عن سائر جنوده»(٢٣).

ولعل كون أم المعتصم تركية ساعده على التعرف إلى الأتراك، ولكنني أرى أن الذي دفعه إلى هذه السياسة هو اختلال التوازن بين عناصر الدولة العباسية، فلقد ساءت العلاقة بين الخراسانيين والعباسيين بعد انتقال المأمون من مروٍ وبعد نكبة بني سهل، وقد ظهرت استحالة التوفيق بين آمال الخراسانيين ومصالح العباسيين، فالتجأ المعتصم إلى عنصر جديد ليجعل منه الركن العسكري للدولة.

وكان الاستكثار من الترك، وجعلهم تحت قواد منهم، وتقريبهم ضربة عنيفة للقواد وللجند العرب، من أسباب الانقلاب على سياسة المنصور التقليدية التي كانت تستهدف حفظ التوازن في الجيش بين الفرق الأعجمية والفرق العربية، وقد ظهر سخط الجند العربي واضحاً في مؤامرة العباس بن المأمون كما سنرى.

ولتقدير معنى الاتجاه الجديد يجب أن نلاحظ الفرق بين وضع الأتراك والفرس. لقد كان الفرس أمة متحضرة لها أنظمة وتقاليد ساعدت على تقدم العباسيين في الحضارة، بينما كان الأتراك خلواً من ذلك، ويسميهم الجاحظ «بدو العجم»، ويبيّن أنهم لا يميلون إلى الزراعة أو الصناعة أو الثقافة(٢٤). ويقول براون إن تأثير الأتراك كان «دائماً بربرياً إلى حد ما، وندر أن شجع البحث الفكري الحر أو الثقافة الحرة»(٢٥). كما إن تسلطهم على الخلافة كان ضربة لمؤسساتها ولهيبتها في ما بعد. ويجب ملاحظة فرق آخر مهم، وهو أن تعاون الفرس مع العباسيين كان نتيجة دعاية طويلة كان الترك بعيدين عن تأثيرها، فلم يكن يربطهم بالخلفاء ولاء روحي أو تفاهم عقلي.

ولهذا فنحن نقرّ فيليب حِتي على قوله: «إن تعاظم سلطان الأتراك كان مبدأ انحلال سلطان الخلافة»(٢٦). وإذا ناقشنا سياسة المعتصم بنتائجها البعيدة، فإنها كانت خطأة كبرى. ومنشأ الخطأ هو تقويض الدعائم التي قامت عليها الدولة العباسية، وهي الفرس، والعرب، والدعوة، ووضع دعامة ضعيفة محلها، وهي عنصر أجنبي

---

(٢٣) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٩.

(٢٤) انظر: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **رسائل الجاحظ**، ٣ ج، ج ١: **الرسائل السياسية**، «مناقب الترك،» ص ٤٣.

(٢٥) Edward Granville Browne, *Literary History of Persia*, 4 vols. (Cambridge [Eng.]: University Press, 1928-1929), vol. 1: *From the Earliest Times until Firdawsi*, pp. 254-255.

(٢٦) Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (London: Macmillan, 1937), pp. 46-467.

جديد. ولقد عبّر إسحاق بن إبراهيم عن ذلك حين شكا إليه الخليفة قلة نجابة زعماء الأتراك بالمقارنة برجال المأمون، إذ قال: «نظر أخوك إلى الأصول، فاستعملها فأنجبت فروعها، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب، إذ لا أصول لها»[٢٧].

ولكن علينا أن نتذكر أن ضرر تقريب الأتراك لم تظهر آثاره بوضوح في خلافة المعتصم. ومع ذلك، فقد شعر الخليفة بشيء من الخيبة في مشروعه[٢٨].

أما عدد الأتراك في جيش المعتصم، فيصعب تقديره بدقة، إذ بدأ يجمعهم وهو أمير، فكان يوجّه سنوياً بمن يشتري له منهم من جهات سمرقند حتى «اجتمع له في أيام المأمون منهم زهاء ثلاثة آلاف غلام» كما يقول اليعقوبي[٢٩]. ويذكر الكندي أنه لما ذهب إلى مصر سنة ٢١٤ هـ كان معه أربعة آلاف غلام تركي[٣٠]. ولما أفضت الخلافة إليه «ألح في طلبهم واشترى من كان ببغداد من رقيق الناس»[٣١]. ولعل المسعودي يخطئ حين يقدر عدد الأتراك في جيش الخليفة المعتصم قبل انتقاله إلى سامراء بأربعة آلاف[٣٢]. وكان عبد الله بن طاهر يرسل إليه سنوياً ألفي غلام تركي كجزء من خراج خراسان[٣٣]. كما أنه كان يشجع الأتراك في آسيا الوسطى على الانخراط في جيشه، فترك قسم منهم بلادهم وانضموا إليه[٣٤]. وهناك رواية تقول إنه اجتمع لديه سبعون ألف تركي، وإلى ذلك أشار علي بن الجهم بقوله:

أمامي من له سبعون ألفاً   من الأتراك مسرعة السهام[٣٥]

ويظهر أن عامتهم كانوا من فرغانه وأشر وسنه والصغد والشاش[٣٦].

---

(٢٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٨ ـ ٩.

(٢٨) المصدر نفسه.

(٢٩) اليعقوبي، **البلدان**، ص ٢٣.

(٣٠) أبو عمر محمد بن يوسف الكندي، **الولاة وكتاب القضاة**، مهذباً ومصححاً بقلم رفن كست (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨)، ص ١٨٨.

(٣١) اليعقوبي، المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٣٢) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٩.

(٣٣) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة، **كتاب المسالك والممالك**، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦، باعتناء ميخائيل جان دوغويه (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٦٧)، ص ٣٩.

(٣٤) فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد، **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي**، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، قسم التراث العربي، ١٩٨١)، ص ٢١٢.

(٣٥) انظر مادة «سامراء»، في: شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، [تحقيق] محمد أمين الخانجي، ٨ ج (القاهرة: جمالي وخانجي، ١٩٠٦)، والأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك**، ص ١٦٢.

(٣٦) بارتولد، المصدر نفسه، ص ٢١٢، والمسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٩.

ثانياً: المشاكل الداخلية

١ ـ حركة بابك الخرمي (٢٠١ ـ ٢٢٢ هـ)

هي أخطر حركة دينية في المظهر، سياسية في الغاية، عرفتها إيران منذ قيام الدولة العباسية، وتتميز من الحركات السابقة بسعتها، وبتنظيم دعايتها، وببراعة القيادة فيها، وبتوحيد خططها، وباتصالها السياسي بغير الفرس على نطاق أوسع. ولكنها في أسسها تشبه الحركات السابقة. ولفهم هذه الحركة يلزم معرفة مبادئها وغاياتها والوسط الذي انتشرت فيه، وحلفائها وأسباب فشلها.

أ ـ أصول الحركة

كانت حركة بابك حركة خرمية. ويبيّن ابن النديم وابن الجوزي أن البابكية هم طائفة من الخرمية تبعوا بابك الخرمي[٣٧]. ويتحدث الطبري عن انتشار دعوة بابك سنة ٢١٨ هـ قائلاً: «وفيها دخل جماعة كثيرة... دين الخرمية»[٣٨]. ويعتبر البغدادي البابكية من الخرمية[٣٩]. وقالت زوجة جاويدان (سلف بابك): «إن بابك سوف يرد المزدكية»[٤٠]. ويفهم من الدينوري أن بابك خرمي حين يشير إلى الغموض في نسبه ويقول: «الذي صحّ عندنا وثبت أنه كان من ولد مطهر بن فاطمة بنت أبي مسلم (الخراساني)، وهذه ينتسب إليها الفاطمية من الخرمية»[٤١].

ويظهر أن بابك خلف جاويدان في زعامة إحدى فرقتي الخرمية في منطقة الجبال، إذ إن زوجة جاويدان قالت لهم إن زوجها قال: «أريد أن أموت هذه الليلة وإن روحي تخرج من بدني وتدخل في بدن بابك وتشترك مع روحه»، فصدق الأتباع قولها ورضوا ببابك رئيساً لهم[٤٢].

ومن هذا يتضح أن حركة بابك هي استمرار للحركة الخرمية، فقد نجح ذلك الرجل بأن يتزعم جماعة من أتباعها، ثم وفق بمقدرته على توحيدها وتنظيمها. ولم

---

(٣٧) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ١٠ ج (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧ ـ ١٣٥٨هـ/[١٩٣٨ ـ ١٩٣٩م؟])، ج ٥، ص ١١٣، وأبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم، **الفهرست** (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٤٨هـ/[١٩٢٩م])، ص ٤٨٢.

(٣٨) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣٠٥.

(٣٩) أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، **الفرق بين الفرق**، حقق أصوله، وفصله، وضبط مشكله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة: مكتبة المعارف، ١٩١٠)، ص ٢٥١.

(٤٠) ابن النديم، **الفهرست**، ص ٤٨٢.

(٤١) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٩٧.

(٤٢) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤٨٢.

يضف إلى الحركة شيئاً غير عبقريته العسكرية ودهائه السياسي ومقدرته على التنظيم. وأما قول ابن النديم بأن بابك «أحدث في مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب والمثلة، ولم تكن الخرمية تعرف ذلك»(٤٣)، ففيه نظر لأننا نعرف أنه كان يوجد زعيمان للخرمية في منطقة الجبال قبل بابك، وأنهما كانا في حروب مستمرة، وهما جاويدان وأبو عمران، وأن الأول مات من جراحه، بينما قتل الثاني في المعركة(٤٤). والمقدسي أدق من ابن النديم حين يقول إن الخرمية «يتجنبون الدماء جداً إلا عند عقد راية الخلاف»(٤٥). وكان الخرمية أتباع بابك يدعون «المحمرة»(٤٦)، وذلك لأنهم «صبغوا الثياب بالحمرة أيام بابك وكانت شعارهم»(٤٧).

ولنذكر الآن بعض المبادئ التي عرفت عن الخرمية أتباع بابك، فمنها الحلول، إذ إن بابك «كان يقول لمن استغواه إنه إله»(٤٨)، ومنها الاعتقاد بالتناسخ والرجعة، كما يفهم من الوصية المنسوبة إلى جاويدان(٤٩).

وكانوا يدعون إلى «الاشتراكية»، فيذكر البغدادي أن دعوة بابك كانت ترمي إلى الإباحة المزدكية(٥٠). ويقول المقدسي إنه رأى بنفسه «بين الخرمية في ديارهم ماسبذان ومهرجان قذق (مراكز بابكية). . . من يقول بإباحة النساء على الرضا منهن وإباحة كل ما يلذ النفس وينزع إليه الطبع ما لم يعد على أحد بضرر»(٥١). وكان الخرمية على الأغلب فلاحين(٥٢)، ولذا حاولوا حل مشكلة الأراضي بنزعها من الملاكين الكبار وتوزيعها على الفلاحين. وقد أصدر مازيار الذي «أظهر دين المحمرة بجرجان»(٥٣)، والذي كان على صلة قوية ببابك «أمر أكرة الضياع بالوثوب بأرباب الضياع وانتهاب أموالهم»(٥٤).

---

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٤٨٠.
(٤٤) انظر: المصدر نفسه.
(٤٥) المطهر بن طاهر المقدسي، **البدء والتاريخ (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي** = *Le Livre de la creation et de l'histoire de Motahhar ben Tahir el-Maqdisi*، اعتنى بنشره وترجمته من العربية إلى الفرانسوية كلمان هوار، ٦ ج (باريس: ارنست لورو، ١٨٩٩)، ج ٤، ص ٢٤.
(٤٦) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٩٧.
(٤٧) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ١١٤.
(٤٨) ابن النديم، **الفهرست**، ص ٤٨٠.
(٤٩) المصدر نفسه، ص ٤٨٢.
(٥٠) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٥١.
(٥١) المقدسي، **البدء والتاريخ (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي** = *Le Livre de la creation et de l'histoire de Motahhar ben Tahir el-Maqdisi*، ج ٤، ص ٢٤.
(٥٢) انظر: البغدادي، المصدر نفسه، ص ٢٥٢.
(٥٣) المصدر نفسه.
(٥٤) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣٤٩، و**العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٥٠.

وكان للبابكية غاية سياسية رئيسية، وهي ضرب السلطان العربي والدين الإسلامي، إذ جاء في الوصية المنسوبة إلى جاويدان أن بابك «سيبلغ بنفسه وبكم (الخرمية) حداً لم يبلغه أحد ولا يبلغه أحد بعده، وأنه يملك الأرض ويقتل الجبابرة ويرد المزدكية، ويعزّ به ذليلكم ويرتفع به وضيعكم»[٥٥]. وجاء في محاكمة الأفشين أن اخاه كتب إلى أخي مازيار «أنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغيرك وغير بابك»، ثم يبيّن كيفية القضاء على العرب حتى «يعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم»[٥٦]. ويرى ابن الجوزي أن غاية البابكية هي «إبطال الدين الإسلامي»[٥٧]. ويرى المقريزي أن حركة بابك ـ كالثورات الدينية السابقة ـ كانت مدفوعة بالحقد على الإسلام وسلطانه، وأنها ترمي «كيد الإسلام بالمحاربة»[٥٨]. ويقول المسعودي إن رأس بابك طيف به على مدن خراسان «لما كان في نفوس الناس من استفحال أمره. . . وإشرافه على إزالة ملك وقلب ملة وتبديلها»[٥٩]. ويقول الذهبي: «وكأن بابك أراد أن يقيم ملة المجوس»[٦٠]. ويبيّن المسعودي أنه ناظر الخرمية ولاحظ أنهم ينتظرون «في المستقبل من الزمان الآتي عود الملك فيهم»[٦١].

وكان عداء الخرمية للإسلام عداء سياسياً لأنه الدين الذي أذهب سلطانهم ونقل الملك إلى العرب. أما نظرتهم الدينية إلى غيرهم، ففيها كثير من التسامح. ويذكر البغدادي وجود مساجد للمسلمين في جبالهم[٦٢]. ويقول المقدسي الذي زارهم وناقشهم: «ويزعمون أن الرسل كلهم على اختلاف أديانهم وشرائعهم يحصلون على

(٥٥) ابن النديم، **الفهرست**، ص ٤٨٢.

(٥٦) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٦٧.

(٥٧) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ١١٠.

(٥٨) أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، **الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها**، ٥ ج (القاهرة: مكتبة المليجي، [١٩٠٦ ـ ١٩٠٨])، ج ١، ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٥٩) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ١٣.

(٦٠) أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، **كتاب دول الإسلام**، ٢ ج في ١ (حيدر آباد الدكن: [د. ن.]، ١٩٠٩])، ج ١، ص ١٠٤.

(٦١) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٣٠٦. وفي ما ذكرنا رد على خطأ بندلي جوزي حين يقول إن الغرض لم يكن مقاومة الإسلام وذويه، ولا مقاومة العرب كأمة فاتحة مغتصبة، كما كانت الحال في أكثر الثورات السابقة في بلاد العجم، بل محاربة ذلك النظام الاجتماعي الذي كانت تئن تحته الطبقات السفلى من جميع الأمم التي كانت تتألف منها وقتئذ دولة بني العباس حتى الأمة العربية. انظر: بندلي جوزي، **من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام** (القدس: [د. ن.]، ١٩٢٨)، ص ٦٨.

(٦٢) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٥٢.

روح واحد، وأن الوحي لا ينقطع أبداً، وكل ذي دين مصيب عندهم إذا كان راجي ثواب وخاشي عقاب، ولا يرون تهجّيه والتخطي إليه بالمكروه ما لم يرد كيد ملتهم وخسف مذهبهم»[٦٣].

ب ـ أتباع بابك وحلفاؤه والظروف التي ساعدته

كانت جبال أذربيجان وأرّان مهد الحركة البابكية، ومركزها البذ[٦٤]. ويبيّن ياقوت انها كانت مهد الحركات الإباحية منذ محنة مزدك، إذ لجأ إليها بعض أصحابه واستمروا على دعايتهم[٦٥]. وقد بدأ بابك بضم جميع أجزاء أذربيجان إلى دعوته[٦٦]. ثم أخذ ينشر الدعوة في المقاطعات المجاورة، فلاقت دعوته نجاحاً باهراً في منطقة الجبال. ويذكر الطبري أنه في سنة ٨١٢ هـ «دخل جماعة كثيرة من أهل الجبال من همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان قذق في دين الخرمية وتجمعوا فعسكروا في عمل همذان»[٦٧]. ويذكر البغدادي أنه دخل في الخرمية «جماعة من أكراد الجبل مع أكراد الجبل المعروف بالبدّين (البذ)»[٦٨].

وانتشرت الدعوة في طبرستان وجرجان حيث كان المازيارية «أتباع مازيار الذي أظهر دين المحمرة بجرجان»[٦٩]. ودخل فيها قسم كبير من الديلم[٧٠].

ويبيّن المسعودي أن الخرمية انتشرت في الجبال وفي أذربيجان وأرمينية وحتى «في خراسان وسائر أرض الأعاجم»[٧١].

ومما يميز هذه الحركة مما سبقها اشتراك بعض الدهاقين والأمراء الفرس مع السواد في الثورة ضد العباسيين. وقد دخل المازيار أصبهبذ طبرستان في الدعوة، وكان «يكاتب بابك ويحرضه ويعرض عليه النصرة[٧٢]، كما إن منكجور الفرغاني

---

(٦٣) المقدسي، **البدء والتاريخ (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي** = *Le Livre de la creation et de l'histoire de Motahhar ben Tahir el-Maqdisi*، ج ٤، ص ٢٤.

(٦٤) البذ: كورة من أذربيجان وأران.

(٦٥) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٢، ص ٥٦٩.

(٦٦) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٣٩٧.

(٦٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣٠٥؛ **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٢، وابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص ٢٤١.

(٦٨) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٦٦.

(٦٩) المصدر نفسه، ص ٢٥٢.

(٧٠) المصدر نفسه، ص ٢٦٨.

(٧١) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٣٠٦.

(٧٢) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣٤٩.

خال ولد الأفشين وخليفته على آذربيجان خلع هناك «وجمع إليه أصحاب بابك»(٧٣)، والأفشين نفسه اتهم بممالأة بابك وبأنه كان يرى رأيه(٧٤). وهذه خطوة مهمة في تطور الوعي الإيراني.

وحاول بابك تقوية مركزه بالوسائل السياسية. ويبيّن اليعقوبي أن «عصمة الكردي صاحب مرند» (وهي شمال بحيرة أرمية) وأمير بعض القبائل الكردية في أذربيجان دخل في طاعة بابك(٧٥)، وسعى لاستمالة الأرمن، فلم ينجح إلا مع فئة صغيرة منهم في مقاطعة سيونيا انضمت إليه ووثقت الروابط معه بزواجه من ابنة أميرهم(٧٦).

وتشير المصادر البيزنطية إلى مفاوضات سرية بين بابك والبيزنطيين، ويظهر أنها كانت لضمان المساعدة وقت الضرورة. وفي سنة ٢١٦ هـ حاربت فئة كبيرة من أصحاب بابك مع البيزنطيين(٧٧). ولما هزمت فرقة من أتباع بابك سنة ٢١٨ هـ، هرب الناجون إلى بلاد الروم(٧٨). ولما ضاق الحال ببابك في سنيه الأخيرة أقنع امبراطور البيزنطيين بالهجوم على الحدود الإسلامية ليخف عنه الضغط. ولما مزقت جيوشه وهرب، أراد أن يذهب إلى بلاد الروم(٧٩). كما إن قسماً من جيشه التجأ إلى الأراضي البيزنطية بعد هزيمته. كل هذا يدل على وجود علاقة قوية بين بابك والبيزنطيين.

ولدينا إشارات تعطينا فكرة عن ضخامة جيش بابك. ولما انتصر إسحاق بن إبراهيم على البابكية سنة ٢١٨ هـ قتل منهم ستين ألفاً(٨٠). وكان عدد الفرسان في جيش بابك، بحسب رواية ابن العبري، عشرين ألفاً(٨١). ويقول البغدادي إنه

---

(٧٣) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢٠٣.

(٧٤) انظر: الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٦٧؛ البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٣٦٨، وابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٥، ص ١١١.

(٧٥) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٩.

(٧٦) جوزي، **من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام**، ص ٦١.

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٦٠، و *Cambridge Medieval History*, planned by J. B. Bury; edited by H. M. Gwatkin [and] J. P. Whitney, 8 vols. (Cambridge, MA: [University Press], 1911-1936), vol. 4: *The Eastern Roman Empire (717-1453)*, edited by J. R. Tanner, C.W. Previté- Orton, and Z.N. Brooke, pp. 129-130.

(٧٨) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣٠٥، وابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص ٢٤١.

(٧٩) المصدر نفسه، **والعيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٩

(٨٠) المصدران نفسهما، ج ١، ص ٣٤٩، وص ٩ على التوالي، وابن العبري، المصدر نفسه، ص ٢٤١.

(٨١) ابن العبري، المصدر نفسه، ص ٢٤١.

«اجتمع مع بابك من أهل (البدين) وممن انضم إليهم من الديلم مقدار ثلاثمئة ألف رجل»[٨٢]. ويقدر المسعودي المحمرة من الخرمية بمئتي ألف[٨٣]، ولعله أدق من البغدادي. وعلينا أن نلاحظ أن بعض قطاع الطرق والميالين إلى النهب انضموا إلى بابك طمعاً في الفوائد المادية[٨٤].

ج ـ فشل الحركة

بدأ بابك حركته سنة ٢٠١ هـ[٨٥] واستمر في نجاح مطرد حتى سنة ٢١٨ هـ، وتمكن في هذه الفترة أن يرد جيوش المأمون، وأن يهزم أربعة من قواده[٨٦]. وقد بثّ الرعب في قلوب الناس والجند حتى قال أحد قواد المأمون: «ليس لنا في قتال هؤلاء (أي البابكية) بخت، إنما نخشى في قتال المسلمين»[٨٧].

وكانت الظروف مواتية لبابك في تلك الفترة، فقد أنهكت قوات العباسيين بالحرب الأهلية، وكانوا مشغولين بالثورات في مصر وسورية والعراق، وبالحرب مع البيزنطيين. وكانت هذه الأوضاع عاملاً أساسياً في نجاح البابكية العسكري. ثم إن اضطراب الوضع في آذربيجان وعدم ولاء الولاة هناك ساعد البابكية. لقد خالف حاتم بن هرثمة في آذربيجان عندما سمع بموت أبيه (هرثمة بن أعين) «وكاتب بابك والخرمية وهوّن أمر المسلمين عندهم»، فشجع بابك على الإسراع في حركته[٨٨].

وكان أصحاب بابك أدرى بمسالك الجبال وأعرف بالخطط اللازمة لها، فكانوا يحصرون أعداءهم في المضايق وينقضون عليهم[٨٩]. كما ركز بابك جهوده على قطع خطوط تموين العدو ونهب قوافل ميرته حتى إنه أقحط عسكر الأفشين سنة ٢٢٠ هـ عندما نهب قافلتين كبيرتين للميرة أرسلتا إليه. وفوق ذلك خرب بابك حصون آذربيجان التابعة للعباسيين، فأضعف بذلك دفاعهم. وأخيراً نفهم من اليعقوبي أن بعض قواد المأمون لم يكونوا مخلصين له[٩٠].

(٨٢) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٦٨.
(٨٣) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٣٠٧.
(٨٤) ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص ٢٤١.
(٨٥) ورواية أخرى أضعف تجعلها سنة ٢٠٠هـ، انظر: المسعودي، المصدر نفسه، ص ٣٠٦.
(٨٦) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٩٠.
(٨٧) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨٩.
(٨٨) المصدر نفسه.
(٨٩) المصدر نفسه، ص ١٨٩ ـ ١٩١.
(٩٠) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٩.

وبمجيء المعتصم دخل النزاع مع البابكية مرحلة جديدة، إذ هدأت البلاد، وركز الخليفة الجديد، وهو قائد محنك، جهوده على حرب بابك، وأرسل الفرقة تلو الأخرى ضده. كما إن العباسيين اكتسبوا بعض الخبرة بأساليب بابك، فلا غرابة أن انعكست الآية. وفي سنة ٢١٨ هـ تمكن إسحاق بن إبراهيم والي الجبال من تمزيق شمل الخرمية في همذان (مركزهم في تلك المنطقة)، فقتل قسماً منهم وهرب الباقون[٩١]. وقد انحصرت ساحة القتال في آذربيجان معقل البابكية الأصلي.

وقد أرسل المعتصم سنة ٢٢٠ هـ أعظم قواده الأفشين حيدر بن كلوس ضد بابك، واهتم بتقويته وبإرسال المؤن بانتظام إليه، حتى إنه أرسل إليه سنة ٢٢٢ هـ ثلاثين مليون درهم عطاء للجند وللنفقات. ويمكننا أخذ فكرة عن ضخامة النفقات التي كان ينفقها الخليفة على حرب بابك، وهي أنه «كان يجزي الأفشين في مقامه بإزاء بابك سوى الأرزاق والإنزال والمعاون في كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم، وفي كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم»[٩٢]. ويروي صاحب **العيون والحدائق**: «تذاكر الكتاب ما أخرج المعتصم في حرب بابك الخرمي إلى أن قتله، فقالوا لا يتهيأ لنا حصره عداً، بل ربما كان خمسمئة وقر من الدراهم أو أكثر»[٩٣]. ويبيّن الذهبي أنه أنفق سنة ٢٢٢ هـ مليون درهم في حرب بابك[٩٤].

ورتب المعتصم البريد وزاد في كفايته ليتجنب فساد الطريق بالثلج حتى صارت الرسائل تصل من عسكر الأفشين إلى سامراء في أربعة أيام أو أقل[٩٥]. واستعمل الحمام لنقل الأخبار لأول مرة في هذه الحرب.

ويظهر من قراءة الطبري أن الخليفة كان يشرف على سير المعارك من سامراء ويضع بعض الخطط بنفسه.

اتخذ الأفشين مقره الأول في برزند (من نواحي تفليس)، و«رمّم الحصون في ما بين برزند وأردبيل... ووضع الحاميات فيها»[٩٦]. ولكن الطبري ينسب ذلك إلى المعتصم نفسه، إذ وجه أبا سعيد محمد بن يوسف إلى أردبيل «وأمره أن يبني الحصون

---

(٩١) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣٠٥.
(٩٢) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٣٣.
(٩٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٧.
(٩٤) الذهبي، **كتاب دول الإسلام**، ج ١، ص ١٠٤.
(٩٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٣٤.
(٩٦) **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ١٠.

التي خربها بابك بين زنجان وأردبيل ففعل»[٩٧]. وبذلك صار للعباسيين سلسلة من الحصون أمام قوات الخرمية. ثم اهتم قواد الخليفة بتأمين المواصلات لإيصال الميرة بسلام إلى جيش الأفشين[٩٨]، فنجحوا بذلك إلى حد كبير. وحاول الأفشين أن يضعف جاسوسية خصمه ويقوي جاسوسيته، فأخذ يكرم من يظفر به من جواسيس بابك، فيضاعف لهم عطاءهم ويسخرهم في التجسس له[٩٩].

وفي سنة ٢٢٠ هـ اضطر الأفشين خصمه بعد معركة (أرشق) إلى التراجع إلى (البذّ) والتحصن فيها. ولم يتسرع في تقدمه على البذ، بل «جعل يزحف قليلاً قليلاً على خلاف زحفه قبل ذلك إلى المنازل التي كان ينزلها». وهذا دليل على فهم الأفشين جغرافية منطقة الحرب، وعلى إدراكه خطر التسرع، فصار يتأنى في كل حركة يقوم بها. ثم جعل مركزه الجديد في «روذ الروذ»، في حصن حصين، إذ خندق في ثلاثة جبال مطلة على البذ[١٠٠]، وبنى سوراً حول معسكره، وكمن الكمناء[١٠١].

وبأمر من المعتصم جعل الأفشين الجيش نوائب، البعض معسكرون، والبعض على ظهور الخيل ليكون على استعداد دائم وذلك مخافة البيات[١٠٢]. ومن هذا تظهر عبقرية المعتصم الحربية وفهمه مقتضيات حرب الجبال. وبقي الأفشين راكداً أمام البذ مدة طويلة حتى ضجّ الناس[١٠٣].

وأخيراً كان الزحف العام على البذ يوم الخميس ٩ رمضان سنة ٢٢٢ هـ[١٠٤]. وفتحت المدينة ودخلها المسلمون لعشر بقين من رمضان[١٠٥].

وقد جرت في الأيام الأخيرة مفاوضات بين الأفشين وبابك، ولكنها لم تفلح. وبعد سقوط البذ هرب بابك إلى أرمينية. وقد كتب الأفشين إلى بطارقتها بسد الطرق عليه، وتقول المصادر إن البطريق سهل بن سنباط آمن بابك وغدر به، بينما يذكر الدينوري[١٠٦] أنه أسره وسلمه إلى الأفشين، وكوفئ سهل

(٩٧) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٠٨.
(٩٨) يفصل الطبري ذلك في: المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.
(٩٩) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٠، و**العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٣٨ ـ ٣٩.
(١٠٠) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٩.
(١٠١) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٩٩.
(١٠٢) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣١٨.
(١٠٣) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٢٨.
(١٠٤) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.
(١٠٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣١٨.
(١٠٦) الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٤٠٠.

بمليون درهم ومنطقة ذهب مرصعة بالجواهر وبتاج البطرقة[١٠٧].

وجيء ببابك إلى سامراء سنة ٢٢٢ هـ وأنزل قصر الأفشين في المطيرة. وفي جوف الليل «ذهب إليه أحمد ابن أبي داوود متنكراً فرآه وكلمه، ثم رجع إلى المعتصم فوصفه له، فلم يصبر المعتصم حتى ركب إليه. . . فدخل إليه متنكراً ونظر إليه وتأمله وبابك لا يعرفه»[١٠٨]. وفي اليوم التالي قتل بابك وصلب.

وتختلف الروايات في بيان عدد ضحايا حرب بابك. ويقدر الطبري عدد من قتله بابك في عشرين سنة بمائتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة إنسان[١٠٩]، ويبيّن بأن عدد الأسيرات المسلمات اللواتي استنقذن من يده بلغ سبعة آلاف وستمائة[١١٠]. ويقول المسعودي إن «من أدركه الإحصاء ممن قتله بابك في اثنين وعشرين سنة من جيوش المأمون والمعتصم من الأمراء والقواد وغيرهم من سائر طبقات الناس في القول المقلل خمسمئة ألف، وقيل أكثر من ذلك، وأن الإحصاء لا يحيط به كثرة»[١١١]. ولعل تقدير الطبري أقرب إلى الصحة لأنه كان يطلع على التقارير الرسمية.

٢ ـ ثورة الزط

يكتنف هؤلاء بعض الغموض. يبيّن البلاذري أن موطنهم الأصلي هو منطقة السند من بلاد الهند، وأنهم كانوا يربون الجواميس، فأتى بهم الحجاج وأسكنهم في جنوب العراق في أسافل كسكر ليحفظوا الأمن في منطقة البطيحة، وبخاصة أن الأسود تخاف من الجواميس[١١٢].

أما المسعودي، فيروي بأنه وقع غلاء في ناحية الهند التي يقطنها الزط، فهربوا من المجاعة وتنقلوا في بلاد كرمان وفارس وكور الأهواز، وأخيراً جاؤوا إلى البطيحة[١١٣].

ولعلنا نستنتج من هذا أن الزط من سكان السند، وأنهم كانوا يربون الجواميس

---

(١٠٧) **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٢٥.
(١٠٨) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣٣٢.
(١٠٩) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٣٣.
(١١٠) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٣٤.
(١١١) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٣٠٥.
(١١٢) أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٩٠١)، ص ٣٨٣، و A. Duri, «Studies on the Economic Life of Mesopotamia in the 10th Century,» (Ph.D. Thesis, University of London, School of Oriental and African Studies, [n. d.]), p. 22.
(١١٣) المسعودي، المصدر نفسه، ص ٣٠٧.

في أهوارها، ثم تركوا بلادهم وهاجروا غرباً لحدوث مجاعة في بلادهم. وقد سمح لهم الحجاج باستيطان منطقة الأهوار جنوب العراق ليستفيد منهم في استغلال تلك المنطقة[١١٤].

ويظهر أن وضع الزطّ المعيشي كان منخفضاً جداً، فأخذوا يقومون ببعض أعمال اللصوصية الصغيرة «بأن يسألوا الشيء الطفيف، ويصيبوا غرة من أهل السفينة فيتناولوا منها ما يمكنهم اختلاسه»[١١٥]. ولكنهم زاد عبثهم في أيام المأمون حتى صاروا خطراً على المواصلات والأمن. ويفسر البلاذري ذلك «بأنه ضوى إليهم قوم من أباق العبيد، وموالي بأهله. . . وغيرهم، فشجعوهم على قطع الطريق ومبارزة السلطان بالمعصية»[١١٦]. وهذا يدعو إلى الظن بأنهم كانوا يشاركون العبيد الهاربين (الآباق) في التذمر من سوء الوضع المعيشي، وأن ذلك التذمر كان سبب ثورتهم، ولذلك نجدهم «احتملوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة» بعد ثورتهم[١١٧].

وعاث الزط في جنوب العراق وغلبوا على الطريق بين واسط والبصرة وقطعوا طريق البصرة ـ بغداد «وانقطع عن بغداد ما كان يحمل إليها من البصرة في السفن»[١١٨].

ولما ولي المعتصم أرسل إليهم قائده عجيف بن عنبسة سنة ٢١٩ هـ، فحصرهم في البطيحة بأن سدّ أفواه الأنهار التي «كانوا يدخلون منها ويخرجون»، ثم حاربهم فأسر خمسمئة وقتل ثلاثمئة رجل، واستمر يشدد الخناق عليهم خمسة عشر يوماً حتى طلبوا الأمان في ذي الحجة سنة ٢١٩ هـ على دمائهم وأموالهم، فأجابهم إلى ذلك[١١٩]. ويبيّن الطبري أن عددهم كان في ما ذكر سبعة وعشرين ألفاً، المقاتلة منهم اثنا عشر ألفاً.

٣ ـ ثورة المازيار

المازيار أو ماه يزديار[١٢٠] بن قارن بن ونداهرز هو آخر الأمراء القارنيين في طبرستان. أخرجه شهريار بن شيرويه من طبرستان، فالتجأ إلى المأمون وأسلم وتسمى

---

(١١٤) يشير البلاذري إلى وجود جماعة من الزط (جاء بهم الساسانيون من السند) في منطقة البصرة بعد الفتح، انظر: البلاذري، المصدر نفسه، ص ٣٨١ـ ٣٨٢.

(١١٥) المصدر نفسه، ص ٣٨٣.

(١١٦) المصدر نفسه.

(١١٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣٠٦.

(١١٨) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٣٨٣.

(١١٩) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٠٦.

(١٢٠) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٣٤٧.

بمحمد. وفي سنة ٢١٠ هـ مات شهريار، فرجع مازيار إلى طبرستان واسترجع الجبل، ثم ولاه المأمون على طبرستان ورويان ودنباوند ولقبه الأصبهبذ[١٢١].

وكان المازيار طموحاً، فوطد حكمه في طبرستان، ويظهر أنه أراد أن ينفصل. ويفهم من الطبري وصاحب **العيون والحدائق** أنه كان تابعاً لولاية خراسان التي كانت لبني طاهر، وأنه كان يكره آل طاهر، فاستغل الخصومة بين الطاهريين والأفشين ليرفع راية الخلاف، إذ إن الأفشين كان يطمع بولاية خراسان، «وكان. . . يسمع من المعتصم أحياناً كلاماً يدل على أنه كان يريد عزل آل طاهر من خراسان»، فكاتب المازيار سراً وشجعه على الخلاف آملاً ألا يستطيع آل طاهر إخضاعه فيرسله المعتصم ضده، وعندئذ يتخذ ذلك ذريعة لانتزاع خراسان من الطاهريين[١٢٢].

ولكن لدينا ما يدل على أن الثورة لم تكن بهذه البساطة، وأن لحركة المازيار ولصلته بالأفشين معنى بعيد.

ويفهم من الطبري أن المازيار كان يكاتب بابك ويعرض عليه النصرة[١٢٣]. ويقول المسعودي إن المازيار «أقر على الأفشين أنه بعثه على الخروج والعصيان لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس»[١٢٤].

ويظهر أن المازيار كان من الخرمية ذلك المذهب الذي صار يمثل ثورة الوعي الإيراني ضد سلطان العباسيين وضد المجتمع الذي أقاموه. أما سلامه فكان سطحياً، إذ يقول البلاذري عنه إنه «كفر وغدر»[١٢٥]. ويبيّن ابن إسفنديار أن المازيار كان يمجّد مزدك وبابك والمجوس الآخرين الذين أرادوا محو الإسلام[١٢٦]. ويصرح البغدادي بأن المازيار كان خرمياً من المحمّرة[١٢٧].

وتدل تدابير المازيار بعد ثورته على نزعة الخرمية الاشتراكية، إذ أراد أخذ الأراضي من الملاكين الكبار وتوزيعها على الفلاحين[١٢٨]. وكان لنزع الأراضي من

---

(١٢١) انظر: مينورسكي، في: **دائرة المعارف الإسلامية**، ج ٣، ص ٤٣٥، مادة «مازيار».

(١٢٢) انظر الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩، و**العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٤٨ ـ ٥٠.

(١٢٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٤٩.

(١٢٤) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ١٦.

(١٢٥) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٤٧.

(١٢٦) مينورسكي، في: **دائرة المعارف الإسلامية**، ج ٣، ص ٤٣٦.

(١٢٧) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٢٥٢.

(١٢٨) **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٥٠، والطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣٤٩.

الملاكين الكبار معنى سياسي، إضافة إلى المعنى الاقتصادي. لقد كان المازيار يعرف بأن قسماً كبيراً من الملاكين كانوا من العرب ومواليهم(١٢٩)، وأن «هواهم مع العرب والمسودة»(١٣٠). ولذلك نرى سرخستان عامله على ساري وعضده الأيمن يجمع مئتين وستين من أبناء القواد ويسلمهم إلى الفلاحين كأناس خطرين، فيقتلونهم بحسب اقتراحه. وقد أغرى المازيار الفلاحين بقتل أرباب الضياع قائلاً لهم: «إني قد أبحتكم منازل أرباب الضياع وحرمهم... فاقتلوا أرباب الضياع جميعهم قبل ذلك، ثم حوزوا ما وهبت لكم من المنازل والحرم»(١٣١).

ومن هذا يتضح أن ثورة المازيار كانت حركة فارسية سياسية ترمي إلى التخلص من سلطان العرب، وإنها اتخذت المذهب الخرمي الثوري شعارها لتضم قوى الطبقات العامة ضد بني العباس. وقد انتبه الخليفة إلى مغزاها حين ضبط عبد الله بن طاهر رسالة من الأفشين إلى المازيار، وبعد أن حصل هو على الرسائل الأخرى من المازيار نفسه(١٣٢).

وتعاون عبد الله بن طاهر مع المعتصم للقضاء على هذه الثورة. فأرسل عمه حسن بن حسين ضد المازيار ليهاجم من جهة جرجان، وحيان بن جبلة مع أربعة آلاف فارس من جهة قومس على جبل شروين. وفي الوقت نفسه أرسل المعتصم قوات كبيرة بقيادة محمد بن إبراهيم الذي دخل رويان (غرب طبرستان) ومنصور بن حسن والي دنباوند من جهة الري، وأبو السباج من جهة لازر ودنباوند. ثم استغل المهاجمون الخصومة الداخلية لمازيار، فذهب قارن بن شهريار إلى حيان الذي عبر على سار وبدأ يفاوض «أخا المازيار». وفي الوقت نفسه تفرق جيش سرخستان وأفسح المجال لحسن بن حسين للتقدم. وخضع قوهيار الذي وعد بمحل مازيار لحسن. أما المازيار، فقد فقد شجاعته لما رأى جيوش العباسيين تحيط به وأتباعه خانوه، ووثق بأمان قوهيار الذي سلمه إلى حسن بن حسين، فأرسل إلى سامراء حيث ضرب أربعمئة سوط، فمات منها وصلب إلى جانب بابك سنة ٢٢٤ هـ(١٣٣).

---

(١٢٩) مينورسكي، في: **دائرة المعارف الإسلامية**، ج ٣، ص ٤٣٦.

(١٣٠) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٥٣.

(١٣١) المصدر نفسه.

(١٣٢) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١، و**العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(١٣٣) مينورسكي، في: **دائرة المعارف الإسلامية**، ج ٣، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧؛ الذهبي، **كتاب دول الإسلام**، ج ١، ص ١٠٥؛ الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٦٠، و**العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٤٩ ـ ٦٠.

٤ ـ نكبة الأفشين

وهذه قضية سياسية ألبست ثوباً دينياً. وهي ترجع إلى تعاظم نفوذ الأفشين وطموحه وعداء بعض رجال الدولة له.

أما تفاصيلها ففيها ارتباك، وخير مصادرنا هو الطبري، ثم صاحب **العيون والحدائق** الذي يكاد يوافقه حرفياً. وسنورد القصة كما نستخلصها من مجموع الروايات، مع الإشارة إلى نقاط الخلاف.

لم ينكب المعتصم قائده العظيم على أثر تهمة واحدة، بل تأنى كثيراً حتى توافرت لديه بوادر عديدة أقنعته بضرورة التخلص منه.

لقد بدأت شكوك الخليفة حين أخبره عبد الله بن طاهر بأن الأفشين خلال أيامه الأخيرة في حرب بابك كان لا تأتيه هدية ولا تجتمع عنده كمية من الدنانير إلا أرسلها سراً إلى موطنه الأصلي أشروسنة، وعندئذ كتب إلى ابن طاهر «يأمر بتعريف جميع ما يوجه به الأفشين من الهدايا إلى أشروسنة»[١٣٤].

ثم اطلع المعتصم على وجود صلة بين الأفشين والمازيار الثائر، وحصل على رسائل الأفشين نفسها، فزادت شكوكه[١٣٥].

وفي السنة التالية (٢٢٥ هـ) ثار منكجور الفرغاني خال ولد الأفشين وخليفته على آذربيجان، وذلك أن صاحب البريد كتب إلى الخليفة يبينّ أن منكجور احتجن أموالاً عظيمة في قرية بابك وفي بعض منازله، فلم يعترف بذلك مكنجور، ولما أراد المعتصم عزله ثار. وعندئذ طلب من الأفشين إحضار عامله، فوجه الأفشين جيشاً بقيادة أبي الساج لتأديب الثائر[١٣٦]. «ثم بلغ المعتصم أن منكجور إنما خلع بأمر الأفشين، وإنما وجه بأبي الساج مدداً له»[١٣٧].

وتغيّرت نية المعتصم، وأحسّ الأفشين بذلك، ففكر في الهرب عن طريق الموصل والزاب إلى أرمينية والخزر إلى بلاد الترك، ثم إلى أشروسنة، فلم يمكنه تنفيذ الفكرة. ثم فكر في عمل وليمة للمعتصم ولقواده، أو لقواده على الأقل لسمهم،

---

(١٣٤) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤، و**العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٦٢ ـ ٦٣.

(١٣٥) المصدران نفسهما، ج ١، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١، وص ٥٩ ـ ٦٠. ويعزو ابن العبري حبس الأفشين إلى هذه المراسلة. انظر: ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص ٢٤٢.

(١٣٦) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٦٢.

(١٣٧) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢٠٣، وهو يرى أن هذا هو السبب المؤدي إلى حبس الأفشين.

والهرب بعدئذ إلى أشروسنة «وثم يستميل الخزر على أهل الإسلام». وقد استغرق التحضير وقتاً طويلاً، وانكشفت مؤامرته، ونمي الخبر إلى المعتصم، فقبض عليه(١٣٨) وسجنه في رابع ذي القعدة سنة ٢٢٥ هـ(١٣٩).

ثم عقد المعتصم محكمة عليا لمناظرة الأفشين يوم ٥ ذي القعدة، وكانت تتألف من الوزير محمد بن عبد الملك الزيات رئيساً، ومن أحمد ابن أبي داوود وإسحاق بن إبراهيم. وقد دوّن الطبري وصاحب **العيون والحدائق** محضر الجلسة، وهو خال من كل إشارة إلى المؤامرة الأخيرة، وإنما هي مجموعة مهمة أريد بها إثبات أن الأفشين لم يسلم حقيقة، وأنه كان يسعى للقضاء على الإسلام وعلى سلطان العرب. ولعل غرض المعتصم من المحاكمة كان منع تسرب النفرة والشك إلى القواد الآخرين.

وها نحن أولاً نورد مجمل الجلسة.

ـ جلد الأفشين مؤذناً وإماماً بنيا مسجداً في أشروسنة. ف ـ لأنهما حولا بيت أصنام إلى مسجد. وهذا ينافي الاتفاق مع ملوك الصغد بترك كل قوم ودينهم.

ـ وجد عنده كتاب مزين بالذهب والجوهر والديباج فيه الكفر بالله تعالى. ف ـ هو كتاب ورثته عن أبي فيه آداب الملوك، وهو دين القوم الذي هو اليوم كفر، فكنت أستمتع بالأدب وأترك ما سوى ذلك.

ـ [الموبذ]: الأفشين يأكل المخنوقة ويحملني على أكلها ويزعم أنها أرطب لحماً من المذبوحة، وكان يقتل شاة سوداء كل يوم أربعاء يضرب وسطها بالسيف، ثم يمشي بين نصفيها ويأكل لحمها.

وقال لي يوماً: إني دخلت لهؤلاء القوم في كل شيء أكرهه حتى أكلت لهم الزيت وركبت الجمل ولبست النعل، غير أني إلى هذه الغاية لم تسقط عني شعرة

(١٣٨) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥، و**العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٦٣ ـ ٦٤.

(١٣٩) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٦٣، وينفرد الدينوري في أنه يعزو سبب نكبة الأفشين إلى خصومته مع أحمد ابن أبي داود قاضي القضاة. لقد أشار أحمد على المعتصم نكاية بالأفشين بتقسيم الجيش إلى قسمين، نصف مع الأفشين ونصف مع أشناس، ففعل المعتصم ذلك «فوجد الأفشين وطال حزنه واشتد حقده». واستمر أحمد يسعى ضد الأفشين، فخوف المعتصم من تعاظم سلطته وذكره بما عمله المنصور مع أبي مسلم، فقبض المعتصم عليه وقتله، وبعد ذلك «زعموا أنهم كشفوا عنه بوجوده غير مختون» ومع أننا نقر بوجود عداء بين الأفشين وأحمد، وخطر سلطة الأفشين، إلا أن الدينوري يهمل ذكر الأمور التي استغلها أحمد للوشاية بالأفشين. انظر: الدينوري، **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*، ص ٤٠١.

(يعني أنه لم يختتن). ف ـ يوبخ الموبذ على قلة وفائه، إذ «كنت أدخلك إليّ وأبثك سري **وأخبرك بالأعجمية وميلي إليها وإلى أهلها**».

ـ [المزبان بن تركش أحد ملوك الصغد]: إن أهل أشروسنة يكتبون إلى الأفشين «إلى إله الآلهة من عبده فلان بن فلان». ف ـ يعترف بذلك ويقول: «كانت هذه عادة القوم لأبي وجدي ولي قبل أن أدخل الإسلام، فكرهت أن أضع نفسي دونهم فتفسد عليّ طاعتهم».

ـ [المازيار] ـ كتب أخو الأفشين إلى قوهيار أخي المازيار «أنه لم يكن ينصر **هذا الدين الأبيض** (أي المجوسية) غيري وغيرك وغير بابك، فأما بابك فإنه بحمقه قتل نفسه، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت، فأبى حمقه إلا أن دلاه في ما وقع فيه، فإن خالفت لم يكن للقوم ما يرمونك به غيره، ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس، فإن وجهت إليك **لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة: العرب والمغاربة والأتراك**. والعربي بمنزلة الكلب أطرح له كسرة ثم أضرب رأسه بالدبوس. وهؤلاء الذباب، يعني المغاربة، إنما هم أكلة رأس. وأولاد الشياطين، يعني الأتراك، فإنما هي ساعة حتى تنفذ سهامهم، ثم تجول الخيل عليهم جولة، فتأتي على آخرهم **ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم**».

ـ إنه غير مختتن.

وبعد إيراد هذه التهم قال أحمد ابن أبي داوود: «الآن قد بان لكم أمره»، وبذلك ختمت الجلسة، وأرجع الأفشين إلى السجن(١٤٠).

وسجن الأفشين في حبس بني خصيصاً له داخل الجوسق، وكان «مرتفعاً شبيهاً بالمنارة، وجعل في وسطها قدر مجلسه، وكان الرجال ينوبون تحتها كما يدور»(١٤١). ثم أماته المعتصم جوعاً، إذ «أمر بمنع الطعام عنه إلا القليل، فكان يدفع إليه في كل يوم رغيف خبز حتى مات» سنة ٢٢٦هـ(١٤٢).

يظهر من محاكمة الأفشين أنه كان شديد الكره للعرب. ويؤكد بعض المؤرخين ذلك(١٤٣). ويذكر ابن خلكان شدة حسده لأبي دلف العجلي «للعربية

---

(١٤٠) انظر نص الجلسة في: الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٧، و**العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٦٣ ـ ٦٧. وقد أخذ الطبري المحضر من شاهد عيان، وهو هارون بن عيسى بن المنصور.

(١٤١) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٦٥.

(١٤٢) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٤.

(١٤٣) انظر: Browne, *Literary History of Persia*, vol. 1: *From the Earliest Times until Firdawsi*, p. 331.

والشجاعة»[١٤٤]. وكان الأفشين إيرانياً ينتسب إلى ملوك الفرس القدماء[١٤٥]. وتتضح فارسيته من رسالته إلى المازيار وفيها يعتبر العرب والأتراك أعداءه.

وتدل المحاكمة أيضاً على أن إسلامه كان سطحياً، وأنه كان يتعصب للدين الأبيض أو المجوسية، وأنه أراد مجد فارس والقضاء على سلطان الإسلام والعرب. وأنا أرجح أنه كان يميل إلى الخرمية[١٤٦].

٥ ـ الثورات الأخرى

وفي سنة ٢١٩ هـ ثار محمد بن القاسم بن علي. وكان ورعاً زاهداً يقطن الكوفة، ثم خاف على نفسه من المعتصم، فهرب إلى خراسان[١٤٧]. وكان «يذهب للقول بالعدل والتوحيد ويرى رأي الزيدية الجارودية»[١٤٨]، أي أنه يرى أن الخلافة «شورى في ولد الحسن وولد الحسين، فمن خرج منهم يدعو إلى سبيل ربه، وكان عالماً فاضلاً، فهو الإمام»[١٤٩].

وتنقل محمد في عدة كور من خراسان كمرو وسرخس والطالقان أبيورد، وكان يدعو إلى الرضا من آل محمد، فتبعه «خلق كثير». ولكن حركته لم تكن منظمة ولا خطرة، فتمكن عبد الله بن طاهر من أن يقبض عليه، وأرسله إلى سامراء حيث سجن، ولا ندري تماماً كيف كانت خاتمة حياته[١٥٠].

وقد تكوّنت فرقة زيدية خاصة تعتقد بإمامته، كانت موجودة سنة ٣٣٢ هـ «ومنهم خلق كثير يزعمون أن محمداً لم يمت، وأنه حي يرزق، وأنه يخرج فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً»[١٥١].

---

(١٤٤) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ١، ص ٣٢.

(١٤٥) Browne, Ibid., vol. 1: *From the Earliest Times until Firdaws!*, p. 331.

(١٤٦) ويظهر لي أنه كان بوذياً أو متأثراً بالبوذية في صباه لأنه وجد في داره «تمثال إنسان من خشب عليه حلية كثيرة من جوهر». انظر: الطبري، **تاريخ الأمم الملوك**، ج ١١، ص ٤؛ المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ١٦، وابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص ٢٤٢.

(١٤٧) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨.

(١٤٨) علي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين** (النجف: [د. ن.]، ١٣٥٣هـ/ [١٩٣٤م])، ص ٣٧٦.

(١٤٩) أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، تصحيح هـ. ريتر، ٢ ج (استانبول: [د. ن.]، ١٩٣٠)، ج ١، ص ٦٧.

(١٥٠) انظر: المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٨ ـ ٩، وأبو الفرج الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٤.

(١٥١) انظر: المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨، والأشعري، المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٧.

وثار جعفر بن مهرجيش الكردي بين الموصل وآذربيجان وأرمينية، ويظهر أن ثورته كانت واسعة، ولكنها أخمدت[١٥٢].

وفي سنة ٢٢٧ هـ ثار أبو حرب المبرقع اليماني في فلسطين لأسباب شخصية. وألبس وجهه برقعاً لئلا يعرف، وأخذ يحرّض الناس على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «ويذكر السلطان فيعيبه». وبث دعوته، فاستجاب له «قوم من الحراثين وأهل القرى وقال الذين استجابوا له: هذا هو السفياني»[١٥٣]. ولما كثر أتباعه من العامة دعا أهل البيوتات «فاستجاب له جماعة من رؤساء اليمانية» قوم من أهل دمشق[١٥٤]. وبلغ عدد أتباعه ما بين خمسين ومائة ألف رجل[١٥٥]. وأرسل إليه المعتصم أحد قواده، فطاوله حتى وقت الحصاد، فتفرق أصحابه إلى مزارعهم وبقي في ألفين، فهاجمه قائد المعتصم وأسره وجاء به إلى سامراء، وكان المعتصم في مرضه الأخير، فسجن في المطبق[١٥٦].

وفي السنة نفسها ثارت دمشق وطردت واليها الجديد، ولكنه أخمد الثورة بعد أن جاءته نجدة من العراق. وقد ذهب حوالى الألف من أهل دمشق ضحية الثورة[١٥٧].

ثالثاً: المعتصم والبيزنطيون

أمر المأمون سنة ٢١٧ هـ/ ٨٣٢ م بتحصين مدينة طوانة (Tyana) لوضع حامية فيها، وأرسل ابنه العباس في أيار/ مايو عام ٨٣٣ م للإشراف على البناء، ثم توفي المأمون، فتوقفت الحرب مع البيزنطيين لانشغال المعتصم بمشاكله الداخلية. ولعله أخطأ حين أمر بهدم «ما كان أمر المأمون ببنائه بطوانة»، وحمل ما قدر عليه من الأسلحة والمؤن منها وأحرق الباقي. «وأمر بصرف من كان المأمون أسكن ذلك من الناس إلى بلادهم»[١٥٨]. وبذلك أفسد خطة حكيمة وضعها سلفه لضرب البيزنطيين.

وفي سنة ٨٣٥ م هجم عمر أمير ملطية على الأراضي البيزنطية، فقابله تيوفيل

(١٥٢) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص ٣٠٨.
(١٥٣) السفياني هو الرجل المنتظر بحسب أساطير بني أمية.
(١٥٤) **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٧ ـ ١٠.
(١٥٥) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٦.
(١٥٦) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٥ ـ ٦، و**العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٧٢.
(١٥٧) الذهبي، **كتاب دول الإسلام**، ج ١، ص ١٠٦.
(١٥٨) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

وانتصر عليه. وفي السنة التالية تقوّت جيوش البيزنطيين بانضمام جماعة من الخرمية بقيادة نصر الكردي، وكانت الجيوش العربية منشغلة في حرب بابك، فهاجم تيوفيل أرمينية وقتل كثيراً من سكانها، ثم رجع يجر وراءه كثيراً من العوائل الأرمنية.

وفي سنة ٨٣٧ م عبر تيوفيل الحدود مرة ثانية نتيجة إلحاح بابك الخرمي الذي ضايقته جيوش الخليفة، فكتب إلى تيوفيل «يعلمه أن ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتلته إليه. . . حتى لم يبق على بابه أحد، فإن أردت الخروج فاعلم أن ليس في وجهك أحد يمنعك»، آملاً أن يحول الخليفة بعض جيوشه لمقاومة الخطر الجديد، فيخف الضغط عنه(١٥٩).

ويبيّن المسعودي أنه كان مع تيوفيل «ملوك برجان والبرغر (البلغار) والصقالبة وغيرهم ممن جاورهم»(١٦٠). وسمع الطبري أن عدد جيوش تيوفيل كان مائة ألف، وأنه كان «معه من المحمرة الذين كانوا خرجوا بالجبال فلحقوا بالروم حين قاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، جماعة رئيسهم بارسيس(١٦١). وكان ملك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم في أهم أموره إليه»(١٦٢).

ونزل تيوفيل على زبطرة (Dozopetra)، فارتكب الفظائع فيها، إذ قتل رجالها وأحرقها وسبى الذراري والنساء التي فيها. وكانت المذبحة عامة شملت اليهود والمسيحيين والمسلمين(١٦٣). ثم حاصر شمشاط (Arsamosata)، وبعد أن هزم نجدة أتت لإنقاذها، فتحها وأحرقها، وأعمل الخراب في أرمينية الصغرى وسبى كثيراً من أهلها. ثم تقدم على ملطية، ولكنه لم يدخلها، بل اكتفى بأخذ الرهائن والأموال وتراجع لأنه كان يتوقع هجوم العباسيين(١٦٤). وعلى كل، فإن المصادر العربية تكثر من وصف فظائع تيوفيل من قتل وتحريق وسبي وتمثيل في هذه الحملة(١٦٥).

---

(١٥٩) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٠٤، و**العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٢٨ ـ ٢٩.

(١٦٠) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ١٤.

(١٦١) يذكر أكراد نصر كل الفقرات التي لا أرقام عليها وتستند إلى هذا الكتاب، إذ استفاد كاتب الفصل الخاص بهذه الغزوات من مصادر بيزنطية لا أستطيع الحصول عليها. انظر: *Cambridge Medieval History*, vol. 4: *The Eastern Roman Empire (717-1453)*, p. 129.

(١٦٢) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣٣٤.

(١٦٣) انظر: المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٣٥؛ **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٢٨؛ اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٢٩، و *Cambridge Medieval History*, vol. 4: *The Eastern Roman Empire (717-1453)*, p. 130.

(١٦٤) *Cambridge Medieval History*, vol. 4: *The Eastern Roman Empire (717-1453)*, p. 129.

(١٦٥) انظر: **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٢٩؛ ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص ٢٤٢؛ الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٣٥، والمسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، =

ووصلت أخبار مآسي زبطرة إلى المعتصم، فهالته، ودخل إبراهيم بن المهدي عليه وذكّره بما نزل وحثه بقصيدة على الجهاد[166]. وضجّ الناس في الأمصار، فأسرع الخليفة بإرسال عجيف بن عنبسة وجماعة من القواد إلى زبطرة «إعانة لأهلها»[167]، فلما سمع تيوفيل بقدوم عجيف، ترك ملطية واصطدم بالعباسيين، ومزق قوتهم الصغيرة[168].

ويظهر أن خبر زبطرة وصل بعيد أسر بابك[169]، فأسرع الخليفة بإرسال عجيف ليستعد هو لحملة كبرى. ونادى بالنفير العام (٢ جمادى الأولى ٢٢٣ هـ) «وتعمم بعمامة الغزاة» وعسكر غربي دجلة، ونصبت الأعلام على الجسر «ونودي الأمصار بالنفير... فسارت إليه العساكر المتطوعة من سائر (بلاد) الإسلام»[170]. ويبيّن الطبري أنه «خرج أهل ثغور الشام... وأهل الجزيرة إلا من لم يكن عنده دابة ولا سلاح»[171]. وكانت استعدادات المعتصم كبيرة، فيقول الطبري: «وتجهز جهازاً لم يتجهز مثله خليفة قط من السلاح والعدد والآلات وحياض الأدم والروايا والقرب والبغال والدروع والجواشن والزرديات وآلة النار والنفط»[172].

ثم تحرك المعتصم من سامراء، يوم الخميس ٦ جمادى الأولى ٢٢٣ هـ/ نيسان (أبريل) ٨٣٨ م وجعل أشناس على مقدمته[173]. وكان جيشه ضخماً «فالمكثر يقول خمسمئة ألف، والمقلل مئتي ألف»[174].

= ص ١٤. يشير الفخري إلى قصة الهاشمية في السبي، بينما يذكر **العيون** امرأة صاحت: وامعتصماه. انظر: ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص ٢٠٩.**

(١٦٦) المسعودي، المصدر نفسه.

(١٦٧) **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٣٠، والطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٣٥.

(١٦٨) بينما يذكر الطبري أن عجيفاً «وجد ملك الروم قد انصر إلى بلاد». انظر: المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٣٥، و *Cambridge Medieval History*, vol. 4: *The Eastern Roman Empire (717-1453)*, p. 129.

(١٦٩) يقول: واتفق من لطف الله تعالى أن المعتصم ظفر ببابك الخرمي عند ورود الخبر بخروج ملك الروم، انظر: الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٣٥، و**العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٣٠. ولا أدري كيف استنتج بروكس (Brooks) بأن خبر زبطرة وصل قبيل أسر بابك، فهذا خطأ بين. انظر: E. W. Brooks, «The Struggle with the Saracens,» in: *Cambridge Medieval History*, vol. 4: *The Eastern Roman Empire (717-1453).*

(١٧٠) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ١٤.

(١٧١) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٣٥.

(١٧٢) المصدر نفسه، و**العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٣٠ ـ ٣١.

(١٧٣) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٩٧.

(١٧٤) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ١٤ ـ ١٥.

ويقترح بعض المؤرخين أن المعتصم قرّر قصد عمورية، وهو في سامراء[١٧٥]، إلا أن الأرجح أن ذلك تم خلاله الحملة[١٧٦]. ولما وصل المعتصم إلى سروج (Batnae) أرسل الأفشين أمامه من «درب الحدث» وسار عامة جيشه إلى طرسوس. وهناك قسم الجيش من جديد، فأرسل أشناس من الدرب (Cilician Gates)، ثم تبعه بعد يومين، أو كان غاية الفرق الثلاث أنقر (Ancyra).

واتبع الأفشين طريق سيواس (Sebastea) ليجتمع بجيش ملطية. ولما سمع المعتصم أن تيوفيل معسكر على نهر ألس (Halys) أمر أشناس أن ينتظر. ولكن الإمبراطور سار لمقابلة الأفشين، فاشتبك الجيشان قرب (Dazimon)، فكان التفوق للإمبراطور في البدء، ولكن المسلمين كروا بعد الظهر، كما إن الضباب والمطر الكثيف ولدا فوضى في الجيش البيزنطي، ولم يستطع أكثره معرفة محل الامبراطور فتفرقوا. أما تيوفيل، فقد خاف خيانة أتباعه الفرس، فهرب مع بعض أتباعه، بينما أشعل الباقون النيران ليخدعوا العرب وتراجعوا[١٧٧].

وأخليت أنقرة عند ورود خبر المعركة، وأمر تيوفيل بتركيز القوات كافة في عمورية (Amorium) تحت قيادة ياطس (Aetius) خال تيوفيل وحاكم ولاية (Theme) في أناطوليا، بينما ذهب هو إلى القسطنطينية لسماعه بخبر مؤامرة عسكرية ضده. وفي هذه الأثناء احتل أشناس قرة (Corum)، وبعد أن خرب (Nyssa) وسمع من اللاجئين بانكسار الإمبراطور دخل أنقرة، وهناك وافته جيوش المعتصم والأفشين.

وبعد تدمير أنقرة تقدمت القوات العربية إلى عمورية (وهي المدينة الرئيسية في ولاية أناطوليا ومسقط رأس والد تيوفيل) في ٢ آب/ أغسطس. وكانت مقاومة البيزنطيين عنيفة، فطال الحصار حتى دلّ أسير عربي كان قد تنصّر باسم (Manicophagus) واستوطن عمورية، على نقطة ضعيفة في السور فركّز الهجوم عليها. وأخيراً وجد قائد تلك الجهة وندو (Boiditzes)[١٧٨] أن المقاومة لا تجدي، فسلّم

(١٧٥) يقول كتاب **العيون** إن المعتصم سأل: «أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل: عمورية لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام، وهي عين النصرانية... وهي أشرف عندهم من القسطنطينية»، فقصدها المعتصم. انظر: **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٣٠، والطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣٣٥.

(١٧٦) انظر: ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ٢١٠.

(١٧٧) يتحدث المسعودي عن انتصار الأفشين ومقتل أكثر البطارقة وهزيمة الإمبراطور. انظر: **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٣٢ ـ ٣٣؛ المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ١٤ـ ١٥، و *Cambridge Medieval History*, vol. 4: *The Eastern Roman Empire (717-1453)*, pp. 129-130.

(١٧٨) انظر اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٩٧.

للعرب، فدخلوا المدينة يوم ١٣ آب/ أغسطس وانتقموا منها انتقاماً مروّعاً(١٧٩). وكانت الغنائم كبيرة إلى درجة أن المعتصم «أمر . . . لكثرة السبي والغنائم أن لا ينادى على السبي أكثر من ثلاثة أصوات، وكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة، وعلى المتاع جملة واحدة»(١٨٠).

وكان تيوفيل قد أرسل قبل سقوط عمورية هدايا للمعتصم ورسالة يعتذر فيها عن مذابح زبطرة، ويؤكد أنها حصلت ضد رغبته، ويعد أن يبنيها ويرجع من سبى من أهلها، وأن يطلق جيمع الأسرى على أن يعقد الصلح، ولكن المعتصم رفض مقابلة رسوله حتى سقطت عمورية ولم تثمر المفاوضة شيئاً.

ويبيّن المسعودي أن المعتصم «أراد السير إلى القسطنطينية والنزول على خليجها في فتحها براً وبحراً»(١٨١). كما اضطرب تيوفيل على عاصمته إلى درجة أنه أرسل إلى البندقية وإلى ملك الإفرنج وإلى البلاط الأندلسي يطلب النجدة(١٨٢). ولكن الخليفة اطلع على مؤامرة في الجيش لقتله، ولمبايعة العباس بن المأمون، فأثناه ذلك عن عزيمته. وكان الباعث على تلك المؤامرة القائد العربي عجيف بن عنبسة الذي أغضبه سوء تصرف القواد الترك تجاهه، فسخط على المعتصم تقريبه لهم، وأقنع العباس بالسعي للخلافة(١٨٣)، وبث الدعاية له سراً في الجيش، ودبر مؤامرة اشترك فيها قواد عرب آخرون وحتى بعض الأتراك، وأجل التنفيذ إلى ما بعد فتح عمورية وعند توزيع الغنائم. ولكن المؤامرة اكتشفت، فنكّل المعتصم بالمتآمرين أشد تنكيل(١٨٤). ولعل أسوأ أثر للمؤامرة أنها زادت في حذر المعتصم من العرب في الجيش، وزادت في تقريبه الأتراك واعتماده عليهم(١٨٥).

واستمرت المناوشات بين العرب والبيزنطيين حتى سنة ٨٤١ ـ ٨٤٢ م حين

---

(١٧٩) لمزيد من التفاصيل، انظر: المصدر نفسه؛ المسعودي، المصدر نفسه؛ **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٣٩، وابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص ٢٤٢.

(١٨٠) **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٤٠.

(١٨١) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤ ـ ١٥.

(١٨٢) Hitti, *History of the Arabs*, p. 301.

(١٨٣) ويتهم المسعودي العباس بن المأمون بأنه «كاتب طاغية الروم». انظر: المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٥.

(١٨٤) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٢٤٢ وما بعدها؛ اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢، و**العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٤١ ـ ٤٦.

(١٨٥) Hitti, *History of the Arabs*, p. 301, and Muir, *The Caliphate, its Rise, Decline, and Fall: From Original Sources*, p. 517.

أرسل الإمبراطور البيزنطي هدايا إلى الخليفة واقترح تبادل الأسرى. ولم يرض المعتصم بحصول الفداء رسمياً، ولكنه أرسل هدايا أكثر، ووعد بأن يطلق ضعف عدد الأسرى المسلمين الذين يطلقون. وعلى هذا الأساس حصلت الهدنة[١٨٦].

رابعاً: الإداريات

١ ـ الوزارة

حصل بعض التصادم بين سلطة الوزير وقوة الخليفة، كما في حالة الفضل بن مروان أول وزراء المعتصم. كان الفضل كاتب المعتصم قبل الخلافة «وغلب عليه كثيراً» آنئذ، ولما توفي المأمون أخذ لسيده البيعة في بغداد فحفظها له، واستوزره «ورد أموره كلها إليه»[١٨٧]. وأصبحت منزلته عالية جداً حتى إن الطبري يقول: «وحل من قلبه (المعتصم) المحل الذي لم يكن أحد يطمع في ملاحظته، فضلاً عن منازعته، ولا في الاعتراض في أمره ونهيه وإرادته وحكمه»[١٨٨]. ويقول صاحب **العيون والحدائق**: «فلما أفضت الخلافة إلى المعتصم صار الفضل هذا صاحب الخلافة والأمر والنهي والدواوين بحكمه»[١٨٩]. ولكن الخليفة كان على الرغم من هذا التفويض يعتبره وزيره ومشاوره والمنفذ لأوامره. ولذا كان التصادم حتمياً بين وزير قوي وخليفة حازم. إذ تطرف الفضل وأظهر استقلالاً في تصرفاته[١٩٠]. وكان يجرؤ على مناقشة آراء خليفته ومعارضتها، فكان ذلك يسوء المعتصم[١٩١]، وحاول تقييد سيده في نفقاته. يقول الطبري: «حملته الدالة وحركته الحرمة على خلافة (المعتصم) في بعض ما كان يأمر به، ومنعه ما كان يحتاج إليه من الأموال في مهم أموره»[١٩٢]. ويظهر أن الخليفة لم يرتح لكثرة الأموال التي جمعها وزيره حتى قال بعد أن نكبه: «ما كنت أعلم أن في الدنيا من له هذا المال»[١٩٣]. واستغل أعداء الوزير هذه الأوضاع

---

(١٨٦) *Cambridge Medieval History*, vol. 4: *The Eastern Roman Empire (717-1453)*, pp. 130-131.

(١٨٧) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ١، ص ٣١٢.

(١٨٨) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣١٢.

(١٨٩) **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ١٣.

(١٩٠) «واستقل بالأمور»، انظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ١، ص ٤١٤

(١٩١) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣١٣.

(١٩٢) المصدر نفسه.

(١٩٣) **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ١٣.

للوشاية به[١٩٤]، فعزله المعتصم في رجب أو صفر سنة ٢٢٠ هـ وحبسه خمسة أشهر، ثم أطلقه[١٩٥].

ومن ناحية أخرى، نلاحظ في استيزار الفضل بعض التدهور في تقاليد الوزارة لأنه لم يكن من الكتّاب، بل كان على حد قول الفخري: «عامياً لا علم عنده ولا معرفة، وكان رديء السيرة جهولاً بالأمور»[١٩٦]. ويصفه ابن خلكان بأنه «كان. . . قليل المعرفة بالعلم، حسن المعرفة بخدمة الخلفاء»[١٩٧].

أما الوزير الثاني، أحمد بن عمار، فكان يتميز بثرائه وبقلة ثقافته، وبأمانته. وكانت قلة ثقافته سبب عزله[١٩٨].

وكان الوزير الثالث محمد بن عبد الملك الزيات الذي لقب بذلك اللقب لأن جده كان زياتاً. وكان من أبرع الكتّاب ولذلك استوزر. ويطنب المؤرخون في تمجيد ثقافته، فيقول الفخري: «نشأ محمد فتأدب وقرأ وفهم، وكان ذكياً فبرع في كل شيء حتى صار نادرة وقته عقلاً وفهماً وذكاء وكتابة وشعراً وأدباً وخبرة بآداب الرئاسة وقواعد الملوك»[١٩٩]. ويقول ابن خلكان: «وكان من أهل الأدب الظاهر والفضل الباهر أديباً فاضلاً بليغاً عالماً بالنحو واللغة»[٢٠٠].

وكان الزيات وزيراً قديراً أعاد هيبة الوزارة مرة ثانية، فيذكر الفخري أنه «نهض بالوزارة نهوضاً لم يكن لمن تقدمه من أضرابه، وكان جباراً متكبراً فظاً غليظ القلب خشن الجانب مبغضاً إلى الخلق»[٢٠١]. ويمكننا اعتباره خاتمة تلك السلسلة الذهبية من وزراء العصر العباسي الأول الذين ندر أن أنتجت العصور المتأخرة مثلهم.

٢ ـ الجيش

أدخل المعتصم عناصر جديدة في الجيش أهمها الأتراك، وكان أكثرهم من

(١٩٤) انظر: الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣١٢ ـ ٣١٣، وابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ٢١٢.

(١٩٥) وأظهر المعتصم أنه عزله حفظاً لمصالح الرعية، إذ قال: «عصى الله في طاعتي، فسلطني عليه». انظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**، ج ١، ص ٤١٥.

(١٩٦) ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ٢١٢.

(١٩٧) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١٥.

(١٩٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٤، ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

(١٩٩) ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ٢١٢.

(٢٠٠) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٤.

(٢٠١) ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ٢١٤.

مقاطعتي أشروسنة وفرغانة[٢٠٢]. ويقول البلاذري: «فكان جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السند (هكذا) والفراغنة والأشروسنة وأهل الشاش وغيرهم، وحط ملوكهم بابه»[٢٠٣]. وحاول أن يفصلهم عن بقية جنده لئلا يتأثروا بهم. ولما بنى سامراء «أفرد قطائع الأتراك عن قطائع الناس جميعاً وجعلهم معتزلين عنهم لا يختلطون بقوم من المولدين ولا يجاورهم إلا الفراغنة، وجعل محلاتهم بعيدة عن الأسواق والزحام»[٢٠٤]. ويقول المسعودي: «فجعل للأتراك قطائع متميزة وجاورهم بالفراغنة والأشروسنية وغيرهم من مدن خراسان (لعله يقصد ما وراء النهر) على كل قدر قربهم منهم في بلادهم»[٢٠٥]. ولم يكتف بذلك، بل ذهب في سياسته هذه إلى حد أنه «اشترى لهم (الأتراك) الجواري، فأزوجهم منهن ومنعهم من أن يتزوجوا ويصاهروا إلى أحد من المولدين إلى أن ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم إلى بعض. وأجرى لجواري الأتراك أرزاقاً قائمة وأثبت أسماءهن في الدواوين، فلم يكن أحد منهم يقدر أن يطلق امرأته ولا يفارقها»[٢٠٦].

وقد ألبس المعتصم أتراكه زياً خاصاً[٢٠٧]. ويصفهم الطبري بأنهم كانوا «عُجماً جفاة»[٢٠٨]. وكوّن المعتصم فرقاً من المصريين، فيذكر المسعودي أنه اصطنع «قوماً من حوفي مصر، من حوف اليمن، وحوف قيس، فسماهم المغاربة»[٢٠٩]. ويظهر أنه كان في جيشه فرقة أو فرقاً من الخزر[٢١٠].

ولم يهمل المعتصم الفرس، بل كان في جيشه فرق خراسانية تحوي إضافة إلى الخراسانيين، فرساً من أقسام أخرى من إيران[٢١١]. وكذلك كان في جيشه فرق عربية. وهذه كما يظهر هي الفرق القديمة.

وهناك جماعات من المتطوعة كانت تنضم إلى جيوش المعتصم مدفوعة في

(٢٠٢) انظر: اليعقوبي، **البلدان**، ص ٢٦، والمسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٩.
(٢٠٣) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٤٧٣.
(٢٠٤) اليعقوبي، المصدر نفسه، ص ٢٦.
(٢٠٥) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ١٠.
(٢٠٦) اليعقوبي، المصدر نفسه، ص ٢٦.
(٢٠٧) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٩.
(٢٠٨) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣١١.
(٢٠٩) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٩. وهؤلاء كان أكثرهم عرباً.
(٢١٠) اليعقوبي، **البلدان**، ص ٢٩.
(٢١١) «ثم قطائع قواد خراسان وأسبابهم من العرب ومن أهل قم وأصبهان وقزوين والجبل وآذربيجان». انظر: المصدر نفسه، ص ٢٧ ـ ٢٨.

الدرجة الأولى بدافع الحماس الديني وراغبة في الثواب. ويروي الطبري أن بعضهم قال للأفشين وهو أمام بابك: «أيها الأمير لا تحرمنا شهادة إن كانت قد حضرت، وإنما قصدنا وطلبنا ثواب الله ووجهه»(٢١٢). وقد ساهموا بصورة قوية في حرب بابك وفي الحرب مع البيزنطيين، ولكنهم لم يكونوا جنداً نظامياً(٢١٣).

٣ ـ العاصمة

كان سبب نقل العاصمة اصطناع المعتصم للأتراك، فمن جهة ضاقت بغداد بالجند الجدد. ويقول صاحب **العيون والحدائق**: «إن المساكن والطرق ضاقت على الناس ببغداد لكثرة العساكر التي تجمعت مع المعتصم»(٢١٤). ويقول الفخري: «قيل إن المعتصم استكثر من المماليك فضاقت بهم بغداد»(٢١٥). ومما زاد في حراجة الوضع سوء تصرف الأتراك، إذ إنهم كانوا «عجماً جفاة يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها، فيصدمون الرجل والمرأة ويطأون الصبي»(٢١٦). ولم يرضخ البغداديون لمنكرات الأتراك، بل كان «يثب عليهم (على الأتراك) الغوغاء، فيقتلون بعضاً ويضربون بعضاً وتذهب دماؤهم هدراً ولا يعدون على من فعل ذلك(٢١٧). وثقل وجود الأتراك على أهل بغداد، فتذمروا منه بشدة، كما عز على المعتصم فقد رجاله، فقرر الانتقال(٢١٨).

ويظهر أن المعتصم كان يخشى الفتنة وثورة أهل بغداد وبعض العساكر فيها لسخطهم على تقريب الأتراك. ويروي الطبري أن المعتصم قال لأحمد بن أبي خالد: «إني أتخوف أن يصيح بي هؤلاء الحربية(٢١٩)، فيقتلوا غلماني حتى أكون فوقهم، فإن رابني منهم ريب أتيتهم في البر والبحر حتى آتي عليهم»(٢٢٠). ويبينّ الفخري أن المعتصم خاف من في بغداد من الجند ولم يثق بهم، فقال: «أطلبوا لي موضعاً أخرج

---

(٢١٢) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣٢٤.

(٢١٣) للاطلاع على حرب بابك، انظر: المصدر نفسه، وج ١٠، ص ٣٣٥، والمسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ١٤.

(٢١٤) **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، ص ٥.

(٢١٥) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ٢١٠.

(٢١٦) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٣١١.

(٢١٧) اليعقوبي، **البلدان**، ص ٢٤.

(٢١٨) انظر: المصدر نفسه، ص ٢٤؛ المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٩؛ الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣١١ ـ ٣١٢، وابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ٢١٠.

(٢١٩) أهل محلة الحربية، وهي القسم الشمالي الغربي من بغداد الغربية.

(٢٢٠) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣١١.

إليهم وابني فيه مدينة وأعسكر به، فإن رابني من عساكر بغداد حادث كنت بنجوة وكنت قادراً على أن آتيهم في البر وفي الماء»[٢٢١]. وهكذا كان عدم اطمئنان المعتصم للجند القدماء في بغداد وشكه في نيات أهل تلك المدينة عاملاً مهماً في الانتقال.

وراح الخليفة يفتش عن موضع لبناء عاصمته الجديدة. وأراد أول الأمر البناء في الشماسية (طرف بغداد الشرقية الشمالي)، فتركها لضيق المحل، «وكره أيضاً قربها من بغداد»[٢٢٢]. ثم اقترح الفضل بن مروان أن يبني في البردان، فلم يستحسنها المعتصم، ثم خرج في ١٥ ذي القعدة سنة ٢٢٠ هـ[٢٢٣]، وقرر أن يبني على القاطول «فصير النهر المعروف بالقاطول وسط المدينة ويكون البناء على دجلة والقاطول». وفعلاً بدأت أعمال البناء حتى ارتفعت الجدران واختطت الأسواق، ثم لاحظ الخليفة عبث الاستمرار في البناء لصعوبة الأرض ولضيق المساحة، فترك القاطول وخرج يتقرى المواضع حتى وصل محل سامراء، فوجد فيه ديراً للمسيحيين. وأقام يتصيد ثلاثة أيام ليتأكد من ملاءمة المحل، فاستحسنه واستطاب هواءه، وأمر بشراء أرض الدير بأربعة آلاف دينار، ثم بنى مدينة سر من رأى[٢٢٤].

وفي بناء سر من رأى نلاحظ التاكيد على الأسوار أو على بناء مدينة محصنة، وذلك لثبوت أركان الدولة العباسية، بل كان التأكيد على العمارة. وقد كتب المعتصم «في أشخاص الفعلة والبنائين وأهل المهن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات»[٢٢٥]، واهتم بأن تكون عاصمته مجمعاً للصناعات المعروفة، فأقدم «من كل بلد من يعمل عملاً من الأعمال أو يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والنخل والغرس وهندسة المياه ووزنه واستنباطه والعلم بمواضعه من الأرض، وحمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها، وحمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر، وحمل من الكوفة من يعمل الأدهان ومن سائر البلدان من أهل كل مهنة وصناعة»[٢٢٦].

واعتنى بالناحية التجارية، فوسع «صفوف الأسواق»[٢٢٧] وعمل شارعاً على دجلة جعله رصيفاً مرسى لسفن التجارة «التي ترد من بغداد وواسط وكسكر وسائر

---

(٢٢١) ابن الطقطقى، المصدر نفسه، ص ٢١٠.

(٢٢٢) اليعقوبي، **البلدان**، ص ٢٤.

(٢٢٣) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٩٩.

(٢٢٤) انظر: المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٩ ـ ١٠، واليعقوبي، **البلدان**، ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٢٢٥) اليعقوبي، **البلدان**، ص ٢٥.

(٢٢٦) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٢٢٧) المصدر نفسه، ص ٢٥.

السواد والبصرة والإبلة والأهواز وما يتصل بذلك، ومن الموصل وبعربايا وديار ربيعة وما اتصل بذلك»[٢٢٨].

وبينما بنى مدينته على الجانب الشرقي لدجلة، اهتم بزراعة القسم الغربي، فحفر الترع فيه «وحمل إليه الغروس من كافة البلدان» وشجع قواده ورجاله على المساهمة في الزرع[٢٢٩].

وكان اهتمامه شديداً في فصل الجيش والدواوين عن السكان، وفي إنزال الأهلين في أحياء خاصة بحسب مهنهم. وقد أسكن كل صنف من جيشه في جهة بحسب جنسياتهم، ثم وضع كل فرقة تحت قائدها وفي محلة خاصة، وجعل «كل تجارة منفردة وكل قوم على حدتهم على مثل ما رسمت عليه أسواق بغداد»[٢٣٠]. وكان تقسيم المدينة تقسيماً اجتماعياً عسكرياً يتناسب وكونها معسكراً أولاً، ومركزاً حضرياً ثانياً.

خامساً: تقدير

قضى المعتصم على الثورات التي كانت تهدّد الامبراطورية، وأخطرها ثورة بابك، ووضع حداً لفوضى الزط، وصدم الروم صدمة قوية.

وبنى عاصمة جديدة، ولكن جلّ سكانها كانوا جنداً، فأصبح الخليفة شبه سجين بينهم، فكان لذلك نتائج فظيعة في عهد أخلافه.

وقد عجز عن إخضاع الطاهريين، فتركهم شبه مستقلين في خراسان.

ولعله أراد تقوية ركن الدولة المتصدع بتقريب الترك، فأهمل الفرس والعرب، وقرب أناساً لا ولاء لهم ولا ثقافة ولا يهمهم إلا الكسب، وبذلك زاد في ضعف الرابطة بين الخلافة وإيران، وبينها وبين العرب إلى درجة خطرة. وكانت سياسته هذه إعلاناً لبدء انحلال مؤسسات الدولة وقوتها.

والمتفحص أعماله يرى فيه قائداً عبقرياً، إلا أنه ليس سياسياً قديراً. ونحن لا نحمّله كل مسؤولية الأخطاء التي نجمت عن حكمه، فبعضها ناتج من سياسة أسلافه، ولكننا نحكم بخطأ سياسته استناداً إلى نتائجها المريعة في ما بعد.

---

(٢٢٨) اليعقوبي، **البلدان**، ص ٣٠.

(٢٢٩) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٢٣٠) المصدر نفسه، ص ٢٥.

الفصل العاشر

نظام الضرائب في العصر العباسي الأول

تمهيد

١ ـ لما انتقل مركز الخلافة إلى العراق زاد اهتمام الخلفاء به، وبخاصة بقسمه الجنوبي المعروف بالسواد[١]. فأحيوا نظام الري القديم ونظموه، وكروا الترع وحفروا قنوات جديدة، وبخاصة في منطقة بغداد[٢].

ومن أعمال الري الجديدة: نهر أبي الأسد عند البطيحة، وقد حفره أو وسع فوهته أبو الأسد قائد المنصور[٣]، ونهر الصلة الذي أمر المهدي بحفره في أعمال واسط «وأحيا ما كان عليه من الأرضين وجعلت غلاته لصلات أهل الحرمين والنفقات هناك»[٤]، ونهر الريان الذي حفرته الخيزران[٥]، ونهر القاطول المدعو بـ «أبي الجند» حفره الرشيد «لقيام ما يسقى من الأرضين بأرزاق جنده» وأنفق عليه عشرين ألف ألف درهم[٦]، ونهر الميمون الذي «حفره وكيل لأم جعفر زبيدة»[٧].

واهتم الخلفاء بالمحافظة على نظام الري، حتى نجد أبا يوسف يفصل في واجبات الدولة في هذا المضمار فيقول: «وإذا احتاج أهل السواد إلى كري أنهارهم العظام التي

---

(١) اتضح للمؤلف من مقارنة المصادر العربية أن السواد يمتد بين حربي والعلث شمالاً إلى الخليج العربي جنوباً، ومن حلوان شرقاً إلى القادسية غرباً، انظر: A. Duri, «Studies on the Economic Life of Mesopotamia in the 10th Century,» (Ph.D. Thesis, University of London, School of Oriental and African Studies, [n. d.]), p. I.

(٢) في تفصيل أنهار هذه المنطقة، انظر: سهراب، **عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة وكيف هيئة المدن وإحاطة البحار بها وتشقق أنهارها ومعرفة جبالها وجميع ما وراء خط الاستواء والطول والعرض بالمسطرة الحساب والعدد والبحث على جميع ما ذكر**، اعتنى بنسخه وتصحيحه هانس فون مزيك (فينا: أدولف هولزهوزن، ١٩٢٩)، ص ١٢٩ ـ ١٣٥.

(٣) أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٩٠١)، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٤) أبو الفرج قدامة بن جعفر، **الخراج وصناعة الكتابة**، باعتناء جان دو غويه، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦ (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٩)، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٥) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٢٧٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٩٧، وأبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، عني بتصحيحه وتحقيقه عبد الله اسماعيل الصاوي (القاهرة: عبد الحميد أحمد حنفي، ١٩٣٨)، ص ١٧٧.

(٧) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٢٩١.

تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج(٨). ويقول أيضاً: «فأما البثوق والمسنيات التي تكون في دجلة والفرات وغيرها من الأنهار العظام، فإن النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحل على أهل الخراج من ذلك شيء لأن مصلحة هذا على الإمام، وبخاصة لأنه أمر عام لجميع المسلمين»(٩). وكانوا يوجهون عناية خاصة لحفظ السدود من الانفجار ومنع خطر الفيضان.

فلا عجب في أن أصبح السواد مغطى بشبكة واسعة من القنوات، مكتسياً بالمزارع والقرى(١٠). ومن هذا ندرك أهمية الخراج أو ضريبة الأرض التي كانت المورد الرئيسي لبيت المال.

٢ ـ ولننظر الآن في الضرائب المختلفة في هذا العصر.

أولاً: الخراج

وقد كان يؤخذ من الجزء الأكبر من أراضي السواد، ولذلك اهتم العباسيون بجبايته وبتنظيمه، وبأن اهتمامهم به لأول مرة في خراسان، فإن خالداً بن برمك «كان . . . في عسكر قحطبة يتقلد خراج كل ما افتتحه قحطبة من الكور . . . فكان يقال إنه ما من أحد من أهل خراسان إلا ولخالد عليه يد ومنّة لأنه **قسط الخراج**، فأحسن فيه إلى أهله»(١١). ومن هذا يظهر أنهم حاولوا تنظيم جباية الخراج وتخفيفه في خراسان عند مجيئهم إلى الحكم.

أما في السواد، فكان الخراج يؤخذ نقداً وعلى المساحة أزرعت الأرض أم لم تزرع بحسب الأسس التي وضعها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)(١٢). واستمر ذلك حتى

---

(٨) يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ط ٢ (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٥٢هـ/ [١٩٣٣م])، ص ١٣١.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

(١٠) انظر: أبو القاسم محمد بن حوقل، **كتاب صورة الأرض: وهو يحتوي على نص النسخة المرقومة ٣٣٤٦ المحفوظة في خزانة السراي العتيق في استانبول: وكذلك على صور هذه النسخة وقد استتم بمقابلة نص الطبعة الأولى وبعض المصادر الأخرى**، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٢، ٢ ج، ط ٢ (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٣٩)، ج ١، ص ٢٤٣، وأبو اسحق ابراهيم بن محمد الاصطخري، **كتاب المسالك والممالك: وهو معول على كتاب صور الأقاليم لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي**، باعتناء جان دو غويه، المكتبة الجغرافية العربية؛ ١ (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٧٠)، ص ٨٤.

(١١) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٨٦.

(١٢) انظر نظام عمر بن الخطاب بالتفصيل في: عبد العزيز الدوري، «التنظيمات المالية لعمر بن الخطاب،» **القضاء**، العدد ٥ (١٩٤٤)، ص ٥٥١ ـ ٥٦٨، و**القضاء**، العدد ١ (١٩٤٥). ويدعى هذا النوع من الخراج «خراج الوظيفة».

أبدله المهدي بنظام المقاسمة على الحقول، وهو أخذ نسبة معينة من الحاصل [النصف على ما يسقى سيحاً، والثلث على ما يسقى بالدوالي (الكرود)، والربع على ما يسقى بالجواليب (النواعير)]، مراعياً في ذلك تكاليف السقي بنسبة عكسية(١٣). ولكنه غير هذه النسب في حالات خاصة، فعندما حفر نهر الصلة «جلب المزارعين وأغراهم أن يقاسموا على الخمسين [لمدة] خمسين سنة، فإذا انقضت الخمسين لم يجروا على الشرط المشترط لهم»(١٤).

ولم يشمل نظام المقاسمة النخل والشجر والكرم، إذ بقي على «خراج الوظيفة» وروعي في تقدير ضريبته «قربه من الأسواق»(١٥).

لكن ضريبة الخراج لم تكن ثابتة، بل تغيّرت تبعاً للظروف. فعندما ولي خالد البرمكي فارس زمن المهدي «وضع عنهم خراج الشجر، وكانوا يلزمون له خراجاً ثقيلاً»(١٦). كما إن نسبة المقاسمة تغيرت، إذ أضيف العشر إلى النصف، فصارت الضريبة ٦٠ في المئة من الغلة(١٧)، والراجح أن هذا حصل في أواخر أيام المهدي لكثرة نفقاته وإفلاس خزائنه(١٨).

ويظهر أن هذه النسبة (٦٠ في المئة) كانت باهظة على الزراع، كما إن إبقاء ضريبة النخل والشجر والكرم على «خراج الوظيفة» كان أكثر من طاقتهم. وقد أكد أبو يوسف ذلك مبيناً أن «ما كان حصل على أرضهم من الخراج يصعب عليهم، ورأينا أرضهم غير محتملة له، ورأينا أخذهم بذلك داعياً إلى جلائهم عن أرضهم وتركهم لها»(١٩).

وكان العمال والجباة يأخذون علاوة على حصة المقاسمة، رسوماً إضافية يشير إليها أبو يوسف «كرزق عامل» و«أجرمدي» و«نزولة وحمولة طعام للسلطان» و«ثمن

---

(١٣) انظر: الفصل الرابع، الفقرة المتعلقة بـ «السياسة المالية» ومابعدها ص ١٠٩ ـ ١١٠، والفصل الخامس، الفقرتين المتعلقتين بـ «المالية» و«التنظيمات الإدارية» ص ١٣٠ ـ ١٣٢ من هذا الكتاب.

(١٤) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(١٥) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، **الأحكام السلطانية** (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٠٩)، ص ١٦٨.

(١٦) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٥١.

(١٧) محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** (القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ/[١٨٩٩م])، ص ١٦٢.

(١٨) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، راجع أصوله، ورقمه، وضبط مبهمه، وعلق عليه محمد محي الدين عبدالحميد، ٤ ج (القاهرة: دار الرجاء، ١٩٣٨)، ج ٣، ص ٢٩٦.

(١٩) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٠١.

صحف وقراطيس» و«أجور الكيالين» والادعاء «عليهم بنقيصة فتؤخذ منهم» و«ما قد يسمونه رواجاً لدراهم يؤدونها في الخراج... إن الرجل منهم يأتي بالدراهم ليؤديها في خراجه، فيقتطع منها طائفة، فيقال هذا رواجها وصرفها»[٢٠]. وإضافة إلى كل هذا، كان يطلب إلى المزارعين أحياناً ري القنوات على نفقتهم[٢١]، مع العلم أن «الأنهار التي يجرونها إلى أرضهم ومزارعهم وبساتينهم ومباقلهم وما أشبه ذلك فكريها عليهم بخاصة، وليس على بيت المال من ذلك شيء»[٢٢].

وفي زمان المنصور كان إذا أصاب الزرع خراب أو حيف، لم يسقط عنه الخراج وإنما يؤجل إلى السنة المقبلة. وعندما توسط عمارة بن حمزة إلى كاتب المهدي (أبي عبيد الله، وكان المهدي آنئذ ينوب عن المنصور في بغداد) في أمر رجل «ضياعه تحيفت فخربت... وسأله إسقاط خراجه وهو مئتا ألف درهم... (قال له أبو عبيد الله) هذا لا يمكنني ولكن أؤخره بخراجه إلى العام المقبل»[٢٣]. ولكن إسقاط الخراج عن المقربين أصبح من أعمال العمال المعروفة، حتى نبّه أبو يوسف إلى ذلك ومنع فعله[٢٤]. ولم تفد نصيحة أبي يوسف، فلما ولي عيسى بن فرخانشاه خراج مصر زار محمداً بن يزيد الأموي وأسقط «عنه جميع خراجه في تلك السنة»[٢٥].

وكان الولاة أحياناً يهبون الخراج أو شيئاً منه لمقربيهم، فوهب الفضل بن يحيى البرمكي (عامل خراسان آنئذ) عامله على سجستان خراج مقاطعته لسنة كاملة وقدره أربعة ملايين درهم[٢٦].

ولما جاء الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ) اهتم بقضية الخراج وطلب إلى الفقيه أبي يوسف أن «أضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جبايته الخراج والعشور والصدقات والجوالي وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم»[٢٧]. وقد كتب أبو يوسف كتابه العظيم **الخراج** موضحاً

---

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٣٠.

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٣١.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

(٢٣) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٩١ ـ ٩٢.

(٢٤) أبو يوسف، المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(٢٥) أبو علي المحسن بن علي التنوخي، **الفرج بعد الشدة**، ٢ ج (القاهرة: [د. ن.]، ١٩٣٨)، ج ١، ص ٧٩.

(٢٦) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ١٣ ج في ٥ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٣٦هـ/١٩١٧م)، ج ١٠، ص ٦٤.

(٢٧) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٠١.

فيه الأسس الصحيحة لكمية الضرائب المذكورة وكيفية جبايتها، وكانت اقتراحاته بشأن الخراج هي:

١ ـ «أن يقاسم عمل الحنطة والشعير من أهل السواد جميعاً على خمسين للسيح منه، وأما الدوالي فعلى خمس ونصف (٣٠ في المئة)... وأما غلال الصيف فعلى الربع» مراعياً في ذلك مشاكل السقي وتكاليفه وطاقة أهل الخراج.

٢ ـ «أن يقاسم أهل الخراج... ما أثمر النخل والشجر والكرم»، أي تطبيق نظام المقاسمة على الأشجار المثمرة بدل خراج الوظيفة. وحدد كمية الضريبة «وأما النخل والكرم والرطاب والبساتين فعلى الثلث»[٢٨]. وقد دافع أبو يوسف عن اقتراح هذه التعديلات في نظام عمر بن الخطاب قائلاً: «وقد كان عمر وهو الذي جعل الخراج عليهم يسأل عنهم: أيطيقون ذلك أم لا، وتقدم في أن لا يكلفوا فوق طاقتهم»[٢٩].

٣ ـ واقترح إلغاء الرسوم الإضافية، ومساعدة الحكومة للزراع في كري القنوات الرئيسية[٣٠].

على أنه ليس هناك ما يدل على أن الرشيد طبق نصائح أبي يوسف خارج السواد، لأنه وإن كان يميل إلى العدل، إلا ان قلة مراقبته العمال أفسحت لهم المجال لجمع الأموال والإثراء على حساب الرعية، كما فعل علي بن عيسى بن ماهان الذي بلغت مصادرته بعد توليته خراسان لعشر سنين ثمانين مليوناً من الدراهم[٣١]، ولكنه متى تأكد من ظلم الولاة عزلهم كما فعل بعلي بن عيسى وبوالي مصر موسى بن عيسى الهاشمي بعد أن «كثر التظلم منه واتصلت السعايات به»[٣٢]. أما في السواد، فقد أنقص الرشيد مقدار الخراج سنة ١٧٢ هـ بحذف «العشر الذي كان يؤخذ بعد النصف»[٣٣].

واستمرت جباية الخراج في السواد على النصف حتى سنة ٢٠٤ هـ حين جعل المأمون «مقاسمة أهل السواد بالخمسين بدل النصف»[٣٤]. ويظهر أن المامون اهتم

---

(٢٨) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١٠١.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ١٣١.

(٣١) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ٩٥ ـ ٩٦ و١٠٠، حيث يقول إنه ظلم الناس وعسر عليهم ـ وأنه «وتر أشرافها وأخذ أموالهم واستخف برجالهم».

(٣٢) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢١٧.

(٣٣) الطبري، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٥١.

(٣٤) ابن الطقطقى، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص ١٦٢.

بتخفيف وطأة الخراج (وإن كانت دوافعه سياسية)، إذ إنه «حط عن خراسان ربع الخراج»[٣٥]. كما إن عامله عبد الله بن طاهر في محاولته تهدئة الحالة في الشام «حط عن بعضها الخراج» حوالى سنة ٢١٠هـ[٣٦]. وفي سنة ٢١٤هـ، أقام المأمون في دمشق لمسح أراضي الشام، وجاء بالمساح من العراق والأهواز والري «فعدل أرضها (دمشق والأردن) الخراجية وحمّل كل أرض ما تستحقه». وفي سنة ٢١٨ هـ أوصى عماله في الشام «بحسن السيرة وتخفيف المؤنة وكف الأذى»[٣٧].

أما المساوئ المتعلقة بطرق الجباية فكانت فظيعة، وقد أكثر أبو يوسف من التنبيه على عسف الجباة. فمن المساوئ «حزر» ما في البيادر، فتقدر بأكثر من محتوياتها الحقيقية، وعندئذ «يؤخذوا بنقائص الحزر». ونبّه أبو يوسف إلى أن «في هذا إهلاك لأهل الخراج وخراب للبلاد. وكان العامل أحياناً يدّعي على أهل الخراج ضياع غلة، فيأخذ بذلك السبب أكثر من الشرط». وكان العامل أحياناً يكيل الحاصل بعد الدوس «ثم يدعه في البيادر الشهر والشهرين، ثم يقاسمهم (أهل الخراج)، فيكيله ثانية، فإن نقص عن الكيل الأول قال أوفوني وأخذ منهم ما ليس له»[٣٨]. ويشير أبو يوسف إلى سوء تصرف أعوان جباة الخراج الذين قد يكونون «ليسوا بأبرار ولا صالحين يستعين بهم (العامل) ويوجههم في أعماله، يقتضي بذلك الذمامات، فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه، ولا ينصفون من يعاملون، إنما مذهبهم أخذ شيء من الخراج كان أو من أموال الرعية، ثم إنهم يأخذون ذلك . . . بالعسف والظلم والتعدي»[٣٩]. وكان أعوان العمال أحياناً يطالبون بأجور خاصة «فإن لم يعطه (الزارع) ضربه وعسفه وساق البقر والغنم ومن أمكنه من ضعفاء المزارعين حتى يأخذ ذلك ظلماً وعدواناً»[٤٠].

ومن مساوئ وضع الخراج جباية الضريبة قبل نضوج الزرع. يروي المقريزي نقلاً عن كتاب ضائع وهو **أخبار أمير المؤمنين المعتضد بالله**، لأبي الحسين عبد الله بن أحمد ابن أبي طاهر، رواية عن أحد جلساء المتوكل، أن هذا الخليفة «مرّ بزرع فرآه أخضر، فقال (لجليسه): يا علي إن الزرع أخضر بعدما أدرك، وقد استأذنني عبيد الله

---

(٣٥) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٢٧٩.

(٣٦) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ٣ ج في ١ (النجف: المكتبة المرتضوية، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م)، ج ٢، ص ١٩١.

(٣٧) **محاضرات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٢٥ ـ ١٩٥٤**، ٣ ج (دمشق: المجمع، [١٩٥٤])، ج ١، ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٣٨) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٣٠.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ١٢٩.

بن يحيى في استفتاح الخراج، فكيف كانت الفرس تستفتح الخراج في النوروز والزرع لم يدرك بعد؟ قال: فقلت له: ليس يجري الأمر اليوم على ما كان يجري عليه أيام الفرس. . . لأنها كانت تكبس في كل مائة وعشرين سنة شهراً، وكان النوروز إذا تقدم شهراً وصار في خمس من حزيران/ يونيو، كبست ذلك الشهر فصار في خمس من أيار/ مايو، وأسقطت شهراً وردته إلى خمس من حزيران/ يونيو فكان لا يتجاوز هذا. ولما تقلد العراق خالد بن عبد الله القسري، وحضر الوقت الذي كبس فيه الفرس، منعها من ذلك وقال: هذا هو الشيء الذي نهى الله عنه. . . وأنا لا أطلقه حتى أستاذن فيه أمير المؤمنين، فبذلوا على ذلك مالاً جليلاً، فامتنع عليهم من قبوله وكتب إلى هشام بن عبد الملك يعرفه ذلك. . . فأمر بمنعهم من ذلك، فلما امتنعوا من الكبس تقدم النوروز تقدماً شديداً حتى صار يقع في نيسان/ أبريل والزرع كله أخضر»[٤١]. ويضيف البيروني: «فلما كان أيام الرشيد اجتمعوا إلى يحيى بن خالد بن برمك، وسألوه أن يؤخر النوروز نحو الشهرين، فعزم على ذلك، فتكلم أعداؤه فيه وقالوا إنه يتعصب للمجوسية، فأضرب عن ذلك». وبقي الحال حتى زمن المتوكل، حين أخبر «أن هذا قد أضرّ بالناس، فهم يقترضون ويتسلفون وينجلون عن أوطانهم وكثرت شكاياتهم وظلمهم». عندئذ أمر المتوكل جليسه (أو أحد الموابذة على حدّ قول البيروني) «فعمل لهذا. . . عملاً ترد النوروز فيه إلى وقته الذي كان فيه في أيام الفرس، وعرّف بذلك عبيد الله بن يحيى، وأدّ إليه رسالة مني في أنه يجعل استفتاح الخراج فيه. . .». وعندما أخبر الجليس الوزير بالأمر، فقال الوزير: «يا أبا الحسن، قد والله فرجت عني وعن الناس وعملت عملاً كثيراً يعظم ثوابك عليه، وكسبت لأمير المؤمنين أجراً وشكراً». وعمل إحصاء لمقدار الكبس، فأخّر وقت جباية الخراج من نيسان/ أبريل إلى «خمس من حزيران/ يونيو» (المقريزي) أو «سبعة عشر» منه (البيروني)، وأنشئ كتاب إلى النواحي بالأمر بذلك في محرم سنة ٢٤٣ هـ، فقال البحتري في ذلك قصيدة يمدح فيها المتوكل ويقول:

إن يوم النوروز قد عاد للعهـ ... ـد الذي كان سنه أردشير
أنت حولته إلى الحالة الأ ... ولى وقد كان حائراً يستدير
فافتتحت الخراج فيه فللأ ... مة في ذاك مرفق مذكور
منهم الحمد والثناء ومنك العد ... ل فيهم والنائل المشكور

---

(٤١) أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، **الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها**، ٥ ج (القاهرة: مكتبة المليجي، [١٩٠٦ - ١٩٠٨])، ج ٢، ص ٣٩ - ٤١.

لكن المتوكل قتل «ولم يتم ما دبر حتى قام المعتضد» (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ)[٤٢].

٤ ـ أما في مصر، فقد اتبع نظام كبس السنوات طوال العصر العباسي الأول[٤٣].

وكان أهل الخراج يعاملون معاملة قاسية، إذ إنهم حتى مجيء المهدي إلى الخلافة كانوا «يعذبون بصنوف من العذاب من السباع والزنابير والسنانير. . . فلما تقلد (المهدي) الخلافة شاور محمداً بن مسلم فيهم، فقال له محمد: يا أمير المؤمنين هذا موقف له ما بعده، وهم غرماء المسلمين، فالواجب أن يطالبوا مطالبة الغرماء». وعندئذ أمر الخليفة وزيره «بالكتاب إلى جميع العمال برفع العذاب عن أهل الخراج»[٤٤]. ولكن يظهر أن هذا لم يدم طويلاً، إذ قال أبو يوسف يخاطب الرشيد: «فإنه بلغني أنهم (الجباة) يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة، وهذا عظيم عند الله شنيع في الإسلام»[٤٥].

ومن النوادر التي يذكرها المقريزي أنه ولي خراج مصر سنة ١٧٨ هـ عامل ضمن جباية الخراج كله «بلا سوط ولا عصا»[٤٦]. واستمر تعذيب دافعي الخراج بصنوف العذاب في عهد الرشيد حتى سنة ١٨٤ هـ حين أمر الخليفة برفع العذاب عنهم[٤٧]. ولكن أثر هذا كان وقتياً، إذ رجع الجباة إلى طرقهم، واستمر التعذيب في زمن المأمون. ويصف ديونيسيوس المهري جباة الخراج في العراق حوالى عام ٢٠٠ هـ/ ٨١٥ م بأنهم «قوم من العراق والبصرة والعاقولاء، وهم عتاة ليس في قلوبهم رحمة ولا إيمان، شر من الأفاعي، يضربون الناس ويحبسونهم ويعلقون الرجل البدين من ذراع واحد حتى يكاد يموت»[٤٨].

٥ ـ ومن المساوئ، ضمان الخراج في منطقة ما من قبل أفراد يدفعون قدراً معيناً

---

(٤٢) انظر: المصدر نفسه، وأبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*، تحقيق إدوارد ساخو (ليبزج: [د. ن.: ١٨٧٨])، ص ٣١ ـ ٣٣.

(٤٣) البيروني، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤١ ـ ٤٢.

(٤٤) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٤٥) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٣٢.

(٤٦) المقريزي، **الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها**، ج ٢، ص ٩٧.

(٤٧) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٤٦.

(٤٨) نقله: آدم متز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، ٢ ج (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠ ـ ١٩٤١)، ج ١، ص ١٢٢.

من المال وتطلق أيديهم في الجباية. يروي الفضل بن يحيى البرمكي أن أباه «كان تضمن فارس من المهدي فحل عليه ألف ألف درهم»(٤٩). وقد حذر أبو يوسف من هذا وشرح أثره، قائلاً: «ورأيت أن لا تقبّل (تضمن) شيئاً من السواد ولا غير السواد من البلاد، فإن المتقبل إن كان في قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما دخل فيه، وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية، والمتقبل لا يبالي بهلاكهم لصلاح أمره في قبالته، ولعله أن يستفضل بعدما يتقبل به فضلاً كثيراً. وليس يمكن ذلك إلا بشدة منه على الرعية، وضرب لهم شديد، وإقامة لهم في الشمس، وتعليق الحجارة في الأعناق، وعذاب عظيم ينال أهل الخراج»(٥٠).

وكان الضمان متبعاً بصورة خاصة خارج العراق، فبعد اضطرابات سنة ١٨٣ هـ في مصر «خرج ليث (والي مصر) إلى الرشيد وسأله أن يبعث معه بالجيوش، فإنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الأحواف إلا بجيش، فرفع محفوظ بن سليمان أنه يضمن خراج مصر عن آخره بغير سوط ولا عصا، فولاه الرشيد الخراج»(٥١). ويظهر أن نظام الضمان كان شائعاً بصورة خاصة في مصر. يقول المقريزي: «إن متولي خراج مصر كان يجلس في جامع عمرو بن العاص من الفسطاط في الوقت الذي تتهيأ فيه قبالة الأراضي، وقد اجتمع الناس في القرى والمدن، فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات صفقات، وكتّاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما انتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس. وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ أو الاستجار وغير ذلك، فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبل أرضاً وضمنها إلى ناحيته، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك، ويحمل ما عليه من الخراج أبّانة على أقساط، ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضرّابة مقدرة في ديوان الخراج، ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة من جهات الضمان والمتقبلين»(٥٢). ولم ينتشر نظام الضمان في العراق إلا في أواخر القرن الثالث الهجري وفي القرن الرابع الهجري(٥٣).

---

(٤٩) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٩٧.

(٥٠) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٥١) المقريزي، **الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها**، ج ٢، ص ٩٧.

(٥٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٢.

(٥٣) انظر: أبو الحسين هلال بن المحسن الصابئ، **الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج (القاهرة: البابي، ١٩٥٨)، ص ١٠ ـ ١١.

وهناك نوع ثان من الضمان، وهو أن يضمن رجل موسر عن أهل المنطقة خراجها، برضى منهم. وذلك يستحسنه أبو يوسف، على أن يعيّن الخليفة مع الضامن «أميناً من قبل بيت المال يوثق بدينه وأمانته ويجري عليه من بيت المال»(٥٤). وهذا الضمان يطلق عليه لفظ الإيغار(٥٥).

ولما كان العراق مركز الخلافة، فإن مساوئ الجباية فيه كانت أقل منها في الولايات. ولنأخذ مصر كمثل لذلك، وبخاصة أن المقريزي يعطي أمثلة عديدة من عسف الولاة العباسيين فيها. ففي سنة ١٧٧ هـ ولي إسحاق بن سليمان بن علي الصلات والخراج «فكشف أمر الخراج وزاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم، فخرج عليه أهل الحوف فحاربهم»(٥٦). وفي سنة ١٨٢ هـ، ثار أهل الحوف «ومنعوا الخراج»(٥٧). وفي سنة ١٩٠ هـ «خرج أهل الحوف وامتنعوا عن أداء الخراج»(٥٨). وفي سنة ١٩٨ هـ ولي العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد من قبل المأمون على الصلات والخراج «وتحامل على الرعية وعسفها وتهدد الجميع فثاروا»(٥٩). وفي سنة ١٢٣ هـ ولي الأمير أبو إسحق المعتصم على مصر «وجعل على الخراج صالح بن شيرزاد، فظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم، فانتفض أهل أسفل الصعيد»، واستمرت الثورة حتى بلغت أوجها سنة ٢١٦ هـ حين ولي عيسى بن منصور (من قبل أبي إسحق) على الصلات «فانتقضت أسفل الأرض عربها وقبطها في جمادى الأولى وأخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة»، واضطر المأمون إلى المجيء بنفسه (١٠ محرم سنة ٢١٧ هـ) «فسخط على عيسى وحل لواءه. . . ونسب الحدث إلى عماله، وأوقع بأهل الفساد وسبى القبط وقتل مقاتلتهم»(٦٠). وتتضح نظرته إلى الثوار من قوله: «هؤلاء كفار لهم ذمة إذا ظلموا وتظلموا وليس لهم أن يستنصروا بأسيافهم»(٦١) وهكذا صارت مصر بؤرة للثورات لسوء تصرف العمال وظلمهم في الجباية.

---

(٥٤) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٥٥) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ١٠ ج (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧ ـ ١٣٥٨هـ/[١٩٣٨ ـ ١٩٣٩م؟])، ج ٥، ص ٥٣، وأبو عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمي، **كتاب مفاتيح العلوم**، نشره فان فلوتن (ليدن: [مطبعة بريل]، ١٨٩٥)، ص ٦٠.

(٥٦) المقريزي، **الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها**، ج ٢، ص ٩٦.

(٥٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٧.

(٥٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٨.

(٥٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٩.

(٦٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٠.

(٦١) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ١٩٢ ـ ٣.

وفي ولاية فارس كان الخراج ثقيلاً. يقول المقدسي: «قرأت في كتاب بخزانة عضد الدولة «أهل فارس أنجع الناس بطاعة السلطان وأصبرهم على الظلم وأثقلهم خراجاً، وأذلهم نفوساً. وفيه: أهل فارس لم يعرفوا عدلاً قط»[٦٢]. ويقول في معرض الحديث عن فارس: «ولا تسأل عن ثقل الضرائب وكثرتها»[٦٣]. وكان فيها عدد واسع من النبلاء الإقطاعيين ممن يمتلكون أراضي واسعة، إذ يقول المقدسي: «وأكثر الضياع (بها) مقتطعة»[٦٤]. وقد اجتمع عسف النبلاء إلى ظلم الجباة. وكان مقدار الخراج فيها يعتمد على طريقة السقي، فخراج ما يسقى بآلة يبلغ ثلثي خراج ما يسقى سيحاً، «والبخوس خراجه ثلث السيح»[٦٥].

٦ ـ وقد دفع ظلم الجباة بعض المزارعين إلى الاحتماء باسم أحد كبار رجال الدولة كالوزير على أن يدفع له مقابل ذلك مقداراً من المال في السنة، وهذا ما يدعى بـ «الإلجاء». جاء في الجهشياري (على لسان أردشير بن سابور) وفي ابن أبي الحديد: «إن من أهل الخراج من يلجئ أرضه وضياعه إلى خاصة الملك وبطانته لأحد أمرين: **إما لامتناع من جور العمال وظلم الولاة**، فتلك منزلة يظهر بها سوء أثر العمال. . . **وإما لدفع ما يلزمهم من الحق** والكسر له»[٦٦]. ويعطي الجهشياري مثلاً واضحاً للإلجاء إذ يقول: جاء رجل من أهل الهواز إلى أبي أيوب (المورياني) وهو وزير (المنصور) فقال له: إن **ضيعتي بالأهواز قد حمل علي فيها العمال، فإن رأى الوزير أن يعيرني اسمه أجعله عليها وأحمل إليه كل سنة مائة ألف درهم!** فقال: قد وهبت لك اسمي، فافعل ما بدا لك». وفي العام التالي «أحضر الرجل المال ودخل على أبي أيوب. . . وأعلمه أنه قد انتفع باسمه، وأنه قد حمل المال»، فسر ابو أيوب كثيراً[٦٧].

ويذكر الاصطخري «وبفارس ضياع قد ألجأها أربابها إلى الكبراء من حاشية

---

(٦٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، حققه ميخائيل جان دوغويه (ليدن: [مطبعة بريل]، ١٨٧٦)، ص ٤٤٨.

(٦٣) المصدر نفسه، ص ٤٥١.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٤٢١.

(٦٥) الاصطخري، **كتاب المسالك والممالك: وهو معول على كتاب صور الأقاليم لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي**، ص ١٥٧ ـ ١٥٧، ومتز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ج ١، ص ٢٠٦.

(٦٦) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٧، و**محاضرات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٢٥ ـ ١٩٥٤**، ج ١، ص ٥٦.

(٦٧) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ١١٨.

السلطان بالعراقن فهي تجري بأسمائهم، وخفف عنهم الربع، فهي بأيدي أهلها بأسماء يتوارثونها ويتبايعونها»[٦٨].

ولا بد من الإشارة إلى صنف خاص من الأراضي كانت تدفع ضرائب خاصة، وهي أراضي بعض كبار أهل الضياع والدهاقنة الذين عقد أجدادهم عقوداً خاصة مع العرب عند الفتح يدفعون بموجبها مقداراً معيناً من الخراج لا يتغير. وكان ذلك بصورة خاصة في فارس وخراسان[٦٩].

٧ ـ وهناك «الضياع السلطانية» أو «ضياع الخلافة»[٧٠]، وهي واسعة ومتفرقة في مختلف أراضي الخلافة كالعراق[٧١] والشام ومصر[٧٢] وطبرستان واليمامة[٧٣] وخراسان وفارس[٧٤]. وأنشئ لها ديوان الضياع[٧٥].

وكانت هذه الضياع تعطى بالمزارعة بحسب اتفاق يعقد بين الزارع والديوان. وقد ذكر الاصطخري في حديثه عن فارس أن «الضياع السلطانية خارجة عن المساحة وإنما تؤخذ من السلطان بالمقاسمة أو المقاطعة»[٧٦].

وأصل ضياع الخلافة أراضي الأمويين التي صادرها بنو العباس عند مجيئهم إلى الحكم[٧٧]، ثم توسعت تدريجياً بطرق مختلفة، نذكر أمثلة منها. يقول البلاذري: «أحب المنصور أن يستخرج ضيعة في البطيحة، فأمر باستخراد السبيطية (أي تجفيف المياه التي تغمرها) فاستخرجت له»[٧٨]. ويقول في محل آخر: «حدثني بعض أهل العلم بضياع البصرة قال: كان أهل الشعيبية من الفرات جعلوها لعلي بن الرشيد... في خلافة الرشيد على أن يكونوا مزارعين له ويخفف مقاسمتهم

---

(٦٨) الاصطخري، **كتاب المسالك والممالك: وهو معول على كتاب صور الأقاليم لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي**، ص ١٥٨.

(٦٩) ف. بارتولد، **تاريخ الحضارة الإسلامية**، نقله من التركية إلى اللغة العربية حمزة طاهر؛ قدم له عبد الوهاب عزام (القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٢)، ص ٦٥ ـ ٦٦.

(٧٠) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٩٤.

(٧١) قدامة بن جعفر، **الخراج وصناعة الكتابة**، ص ٢٤١.

(٧٢) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٩٠، والتنوخي، **الفرج بعد الشدة**، ج ١، ص ٥٢.

(٧٣) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٩٠ و٩٨.

(٧٤) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج ٦، ص ٢٥.

(٧٥) التنوخي، **الفرج بعد الشدة**، ج ١، ص ٥٢.

(٧٦) الاصطخري، **كتاب المسالك والممالك: وهو معول على كتاب صور الأقاليم لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي**، ص ١٥٨.

(٧٧) قدامة بن جعفر، **الخراج وصناعة الكتابة**، ص ٢٤١، والبلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣٦٨.

(٧٨) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٣٧١.

فيها، فجعلت عشرية من الصدقة، وقاسم أهلها على ما رضوا به»[٧٩].

وأخذ العباسيون ضياع السيبين من أولاد مسلمة بن عبد الملك وأقطعوها لداود بن علي، ثم «ابتيع ذلك من ورثته في ما بعد، فصار في عداد الضياع السلطانية»[٨٠]. ومثل آخر الضياع المسماة بإيغار يقطين وقصتها «أن يقطين صاحب الدعوة أوغرت له ضياع من عدة طساسيج، ثم صار إلى السلطان فنسب إلى إيغار يقطين»[٨١].

وكان بعض هذه الضياع يجعل أحياناً وقف ذرية، فقد «وقف المعتصم على ولده بعض ضياع اليمامة»[٨٢].

٨ ـ كانت بعض الأراضي تدفع العشر فقط، فالأراضي المحيطة بالبصرة كانت عشرية لأن «ضياع البصرة أحياء موات في الإسلام»[٨٣]. ويشير ابن خرداذبة إلى أراضي «السيبين» وأراضي الوقف في السواد كأراضٍ عشرية[٨٤]. وكانت أراضي القطائع أو الإقطاعات عشرية، تدفع «عشر ما يكالُ» في مناطق المقاسمة، والعشر النقدي في مناطق خراج الوظيفة[٨٥]. وهذه الأراضي من الصوافي[٨٦]. ويقول أبو يوسف: «وإنما يؤخذ العشر لما يلزم صاحب الإقطاع من المؤنة في حفر الأنهار والبيوت وعمل الأرض»[٨٧]. وقد قدر أبو يوسف وارد هذه الإقطاعات في

---

(٧٩) المصدر نفسه، ص ٢٧١.

(٨٠) المصدر نفسه، ص ٣٦٨، وقدامة بن جعفر، المصدر نفسه، ص ٢٤١. وكان شراء أراضي السيبين قبل خلافة المأمون. انظر: الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٣٠٦.

(٨١) قدامة بن جعفر، المصدر نفسه، ص ٢٤١.

(٨٢) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١٠، ص ٩٨.

(٨٣) الاصطخري، **كتاب المسالك والممالك: وهو معول على كتاب صور الأقاليم لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي**، ص ٨٢، وابن حوقل، **كتاب صورة الأرض: وهو يحتوي على نص النسخة المرقومة ٣٣٤٦ المحفوظة في خزانة السراي العتيق في استانبول: وكذلك على صور هذه النسخة وقد استتم بمقابلة نص الطبعة الأولى وبعض المصادر الأخرى**، ج ١، ص ٢٣٩.

(٨٤) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة، **كتاب المسالك والممالك**، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦، باعتناء ميخائيل جان دوغويه (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٦٧)، ص ١٢.

(٨٥) انظر: البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٢٧٢.

(٨٦) أما الصوافي في السواد فأصلها أراضي كسرى والبيت الساساني المالك، وأوقاف البريد وأوقاف بيوت النار، والآجام، وأراضي قتلى الحرب عند الفتح الإسلامي ومغايض الماء والمستنقعات «البطيحة» وأراضي من هرب من أهل البلاد في أثناء الفتح الإسلامي. انظر: المصدر نفسه، ٢٧٢ ـ ٢٧٣؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ٤، ص ١٤٦؛ أبو زكريا يحيى بن سليمان بن آدم القرشي، **كتاب الخراج**، صححه وشرحه أحمد محمد شاكر (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م)، رقم ١٩٩؛ أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، **تاريخ الكامل**، ١٢ ج في ٦ (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٠٣هـ/[١٨٨٥م])، ج ٢، ص ٤٠٧، وأبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ٦٨.

(٨٧) أبو يوسف، المصدر نفسه، ص ٦٩.

السواد بأربعة ملايين درهم سنوياً[٨٨]. وذكر قدامة أن «صدقات البصرة (أي أعشار منتوجات أراضيها) ترتفع في السنة ستة آلاف ألف درهم» بحسب معدل سنة ٢٠٤ هـ[٨٩].

وهناك أراض نقلت من الخراج إلى العشر، فيذكر البلاذري: «وبالفرات أرضون أسلم عليها أهلها حين دخلها المسلمون، وأرضون خرجت من أيدي أهلها إلى قوم مسلمين بهبات وغير ذلك من أسباب الملك، فصيرت عشرية وكانت خراجية، فردها الحجاج إلى الخراج، ثم ردها عمر بن عبد العزيز إلى الصدقة»، ثم أرجعت بعده إلى الخراج حتى حاء المهدي وجعلها كلها من أراضي الصدقة[٩٠].

ويروي الطبري في حوادث سنة ٢٤١ هـ أن المتوكل «جعل كورة شمشاط عشراً ونقلهم من الخراج إلى العشر وأخرج بذلك كتاباً»[٩١].

ثانياً: الجزية

سارت جباية الجزية في السواد على سنة عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣ هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤ م). وتتفق أكثر الروايات على أنه جبى ٤٨ درهماً من الأغنياء، و٢٤ درهماً من متوسطي الحال، و١٤ درهماً من الفقراء في السنة[٩٢]. وقد سار العباسيون عليها، فيذكر ديونيسيوس (حوالى ٢٠٠ هـ) «أنه بحسب قانون العراق... يدفع الغني ٤٨ درهماً، والمتوسط ٢٤ درهماً، والفقير ١٢ درهماً»[٩٣].

كما إن شروط الجزية التي يعطيها الفقهاء كانت متبعة (نظرياً) لدى الخلفاء، فجاء في عهد الخليفة الطائع بتاريخ ٣٦٦ هـ «وإلى جباة جماجم أهل الذمة أن يأخذوا منهم الجزية... بحسب منازلهم في الأموال وذات أيديهم في الأعمال، وعلى الطبقات المطبقة فيها والحدود المحدودة المعهودة لها، ولا يأخذوها من النساء ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجال ولا من ذي سن عالية ولا ذي عاهة بادية ولا فقير معدم ولا

---

(٨٨) المصدر نفسه، ص ٦٨.

(٨٩) قدامة بن جعفر، **الخراج وصناعة الكتابة**، ص ٢٥١.

(٩٠) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٣١٨.

(٩١) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٥٢.

(٩٢) أبو عبيد القاسم الهروي بن سلام، **الأموال**، صححه وعلق هوامشه محمد حامد الفقي، ٤ ج في ١ (القاهرة: مطبعة حجازي، ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م)، ص ٣٩ ـ ٤١، وأبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٢ـ ١٢٤.

(٩٣) ديونيسيوس، نقله: متز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ج ١، ص ٧٦.

مترهب متبتل»[٩٤]. وجاء في عهد آخر «وأن يراعيهم حتى يمتثلوا ويمنعهم حتى يغيّروا»[٩٥]. وهذه العهود وإن كانت متأخرة إلا أنها تنطبق على نظرة الخلفاء في العصر العباسي الأول.

ولكن جباية الجزية كانت تترك غالباً إلى العمال، فيسيئون التصرف ويعسفون. وقد نصح أبو يوسف الرشيد «أن لا يضرب أحد من أهل الذمة في استيدائهم الجزية ولا يقاموا في الشمس ولا غيرها ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره، ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم، ولا يخرجون من الحبس حتى تستوفى منهم الجزية»[٩٦].

فوق هذا التعذيب، كان الجباة أحياناً يأخذون من أهل الذمة «شيئاً من أموالهم» دون حق «ويكلفوا فوق طاقتهم»[٩٧]. ومن أمثلة الظلم والتفريط في الجزية ما يرويه ديونيسيوس الذي زار مصر حوالى عام ٢٠٠ هـ عن مدينة تنيس المشهورة بصناعة النسيج، إذ يقول: «ومع أن مدينة تنيس عامرة بالسكان كثيرة الكنائس، فإني لم أر من البؤس في بلد أكثر من بؤس أهلها، وقد سألتهم عن مصدر هذا البؤس فأجابوني: إن مدينتنا محاطة بالماء، فلا نستطيع زرعاً ولا تربية ماشية والماء الذي نشربه يجلب لنا من بعيد، ونشتري الجرة منه بأربعة دراهم، ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان، فنساؤنا تغزله ونحن ننسجه، ونعطى على ذلك نصف درهم في اليوم من تجار الأقمشة، ومع أن أجرتنا لا تكفي لإطعام كلابنا، فإن على كل منا أن يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنانير، وفي ذلك نضرب ونسجن ونلزم بإعطاء أبنائنا وبناتنا رهائن، فيلزمون بالعمل كالعبيد سنتين لأجل كل دينار، ولو ولدت عندهم امرأة أو بنت طفلاً فإنهم يأخذون قسمنا بألا نطالب به، وقد يحدث أن تحلّ ضرائب جديدة قبل إطلاق هؤلاء النساء»[٩٨].

ثم إن المتوكل الذي كان شديداً على أهل الذمة، «أمر . . . بأخذ العشر من منازل أهل الذمة» علاوة على الجزية في سنة ٢٣٥ هـ[٩٩].

---

(٩٤) أبو الحسين هلال بن المحسن الصابئ، **رسائل الصابي**، [اعتنى برسائل الجزء الأول شكيب أرسلان] (بعبدا، لبنان: [د. ن.]، ١٨٩٨)، ج ١، ص ١١٢.

(٩٥) المصدر نفسه، ص ١٣٩ ـ ١٤١.

(٩٦) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٣.

(٩٧) المصدر نفسه، ص ١٤٩.

(٩٨) نقله: متز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ج ١، ص ٧٦.

(٩٩) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ١٥.

وكانت جزية القرية أو المنطقة تضمن أحياناً من قبل أحد مثريها أو رؤسائها، بأن يدفع مقداراً معيناً للخزينة وله أن يجبي الجزية بعد ذلك[(١٠٠)].

ويذكر قدامة أن جزية أهل الذمة في بغداد بعبرة سنة ٢٠٤ هـ بلغت ٢٠٠,٠٠٠ درهم سنوياً[(١٠١)].

لم يكن التقويم المراعى في جباية الجزية أو الجوالي واحداً «لأن الجوالي (في سر من رأى) ومدينة السلام وقصب المدن المشهورة كانت تجبى على شهور الأهلّة، وما كان من جماجم أهل القرى. . . كان يجبى على شهور الشمس». واستمر هذا حتى زمن المتوكل حين «نقل سنة ٢٤١ هـ إلى سنة ٢٤٢ هـ»، وعندئذ جبيت «الجوالي والصدقات لسنة ٢٤١ هـ وسنة ٢٤٢ هـ في وقت واحد». ومعنى ذلك دفع جوالي سنة إضافية «ولذا جددت الكتب إلى العمال بأن تكون حساباتهم الجوالي على شهور الأهلة، فجرى الأمر على ذلك»[(١٠٢)].

ثالثاً: الصدقات

إضافة إلى عشور الزروع كانت الصدقات تجبى على المواشي بحسب الأسس التي شرحها الفقهاء[(١٠٣)]. وكانت جباية الصدقات تترك عادة إلى عمال الخراج[(١٠٤)] الذين لم يكونوا يحسنون التصرف دائماً. قال أبو يوسف: «وقد بلغني أن عمال الخراج يبعثون رجالاً من قبلهم في الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون ما لا يحل ولا يسع». ولذا اقترح أبو يوسف على الخليفة تعيين موظف خاص للصدقات «في جميع البلدان، وأمره فليوجه فيها أقواماً يرتضيهم ويسأل عن

(١٠٠) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٤٨.

(١٠١) قدامة بن جعفر، **الخراج وصناعة الكتابة**، ص ٢٥١.

(١٠٢) المقريزي، **الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها**، ج ٢، ص ٤٤.

(١٠٣) لا محل لذكرها هنا. انظر: محمد بن يحيى أبو بكر الصولي، **أدب الكتاب**، نسخه وعني بتصحيحه وتعليق حواشيه محمد بهجة الأثري (بغداد: المكتبة العربية، ١٣٤١هـ/[١٩٢٢م؟])، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠؛ الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص ١٠٩، ١١٢ ـ ١١٦، ١٣٣ ـ ١٣٤ و١٤٦؛ أبو زكريا يحيى بن سليمان بن آدم القرشي، **كتاب الخراج** باعتناء جوينبول (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٦)، ص ٨١، ٨٤، و١٢٦؛ ابن سلام، **الأموال**، ص ٤٦٣ ـ ٥٣٣؛ أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٣٢ وما بعدها؛ الصابئ، **رسائل الصابي**، ج ١، ص ١١١ و١٣٩ ـ ١٤٠؛ Duri, «Studies on the Economic Life of Mesopotamia in the 10th Century,» pp. 203-205, and Nicholas P. Aghnides, *Muhammadan Theories of Finance* (New York: [n. pb.], 1916), pp. 244-245 ff.

(١٠٤) **جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة**، جمعها أحمد زكي صفوت، ٤ ج (القاهرة: البابي، ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨)، ج ٣، ص ١٥٢.

مذاهبهم وطرائقهم وأماناتهم يجمعون إليه صدقات البلدان»[١٠٥]. وقد كان لجباية الصدقات أحياناً عمال خاصون[١٠٦].

رابعاً: الضرائب الأخرى

١ ـ أخماس المعادن

من موارد بيت المال أخماس المعادن، كمعادن الذهب على حدود الحبشة فإنها كانت تستثمر ويدفع عنها الخمس إلى بيت المال حتى زمن المتوكل حين طرد البجة أصحاب المناجم وأرهبوهم «فانقطع بذلك ما كان يؤخذ للسلطان بحق الخمس من الذهب والفضة والجوهر الذي يستخرج من المعادن»، ولكن المتوكل دحر البجة فرجع المسلمون إلى استثمار هذه المناجم[١٠٧]. ومنها الركاز والمال المدفون من دفائن الجاهلية، وخمس سيب البحر مما يقذف به ويستخرج منه مثل العنبر. ومنها أثمان الأباق من العبيد، وما يؤخذ من اللصوص من الأموال والأمتعة إذا لم يأت لذلك طالب يستحقه. ومنها ما يؤخذ من مواريث من يموت ولا وارث له[١٠٨].

وكذلك كانت تؤخذ ضرائب على الصادرات. ونصّ الفقهاء على ضرورة وجود مسالح للإمام على المواضع التي تنفذ إلى بلاد الشرك يدققون أمتعة التجار، ويمنعون احتمال إرسال رسائل تضرّ بمصلحة الإسلام[١٠٩].

٢ ـ الضرائب على المستغلات

وهناك ضرائب أخرى جديدة ليس لها ذكر عند الفقهاء، لكن هذه الضرائب لم تكن كثيرة في العصر العباسي الأول، بل زادت بعد قتل المتوكل بتأثير زيادة الترف، وكثرة النفقات، وقلة الجباية وصغر المملكة، وضعف السلطة المركزية. ومن هذه الضرائب ضريبة الأسواق، «ولم يضع المنصور على الأسواق غلة حتى مات، فلما استخلف المهدي أشار عليه أبو عبيد الله بذلك، فأمر فوضع على الحوانيت الخراج

---

(١٠٥) أبو يوسف، المصدر نفسه، ص ٩٥.

(١٠٦) **جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة**، ج ٣، ص ١٦٣.

(١٠٧) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٥٢.

(١٠٨) عن مخطوطة لقدامة بن جعفر انظر: متز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ج ١، ص ١٨٩.

(١٠٩) يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف، **كتاب الخراج**، اعتمد في هذه الطبعة على نسخة مخطوطة في الخزانة التيمورية رقم ٦٧٤ فقه مع معارضتها بطبعة بولاق سنة ١٣٠٢هـ (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩٧٦)، ص ١١٧.

وكان ذلك سنة ١٦٧ هـ (٨٧٣ م)»[١١٠]. وضريبة الأسواق هي جزء من المستغلات، هي «تربة أسواق وغير أسواق أبنيتها للناس ويؤدون أجرة الأرض والطواحين للسلطان»[١١١]. يقول اليعقوبي: «وبلغ أجرة الأسواق ببغداد جميعاً مع رحا البطريق وما اتصل بها في كل سنة (توفي اليعقوبي سنة ٢٦٤ هـ) اثني عشر ألف ألف درهم»[١١٢]. ويقول إنه «بلغت غلات ومستغلات سر من رأى وأسواقها عشرة آلاف ألف درهم في السنة»[١١٣]. وهذا يدل على أن المستغلات أصبحت مورداً لا بأس به للخزينة. وفي فارس كانت الطواحين احتكاراً للسلطان، وكذلك أجرة الدور التي يعمل فيها ماء الورد[١١٤]. وفي مدن فارس كانت أراضي الأسواق وشوارعها ملكاً للحكومة تأخذ عنها أجراً[١١٥].

٣ ـ المكس

هي ضريبة كانت تؤخذ على السفن الواردة في البحر إلى البصرة، حيث أنشئت محلات خاصة (المراصد) لجباية هذه الضريبة[١١٦]. وكان التجار القادمون من الهند والصين يدفعون ضريبة قدرها العشر[١١٧]، وهذا ما يسمى بأعشار السفن. وأسقطت هذه الضريبة زمن الواثق. يقول الطبري إنه في سنة ٢٣٢ هـ «أمر الواثق بترك جباية أعشار سفن البحر»[١١٨]. ويؤيده اليعقوبي[١١٩]. ولم تكن هذه الضريبة مهمة في العصر العباسي الأول، ولكن أهميتها زادت في العصر العباسي الثاني، فبلغ واردها في قائمة علي بن عيسى لسنة ٣٠٦ هـ ٢٢٥٧٥ ديناراً في السنة[١٢٠].

ومن الموارد الإضافية **الأحداث**، وهي الغرامات التي تأخذها الشرطة عن

---

(١١٠) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، **مناقب بغداد**، عني بتصحيحه محمد بهجة الأثري (بغداد: مطبعة دار السلام، ١٣٤٢هـ/[١٩٢٣م؟])، ص ١٣ ـ ١٤.

(١١١) جرجي زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي**، ٥ ج (القاهرة: دار الهلال، ١٩١٨)، ج ٢، ص ٨٤، والاصطخري، **كتاب المسالك والممالك: وهو معول على كتاب صور الأقاليم لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي**، ص ١٥٨.

(١١٢) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **البلدان** (النجف: المطبعة الحيدرية، ١٩٣٩)، ص ٢٢.

(١١٣) المصدر نفسه، ص ٣٠.

(١١٤) الاصطخري، المصدر نفسه، ص ١٥٨.

(١١٥) متز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ج ١، ص ٢٠٦.

(١١٦) الخوارزمي، **كتاب مفاتيح العلوم**، ص ٥٩.

(١١٧) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢٠٨.

(١١٨) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ٢٤.

(١١٩) «وأسقط ما كان يؤخذ ممن يرد في بحر الصين من العشر». انظر: اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٨.

(١٢٠) زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي**، ج ٢، ص ٨١.

الجنايات[١٢١]. يقول الجهشياري: «قلد المهدي عمارة بن حمزة الخراج بالبصرة، فكتب إليه أن يضم الأحداث إلى الخراج ففعل ذلك»[١٢٢].

خامساً: المصادرة

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى مصادرة الكتّاب والوزراء في سبيل الحصول على الأموال، فبعد أن كان العمال والوزراء يصادرون عقوبة لهم على خيانة، أصبحت المصادرة مورداً للخزينة بعد زمن الواثق. فكان الواثق أول خليفة صادر كتّابه بغية الحصول على الأموال. يقول الطبري في حوادث سنة ٢٢٧ هـ: «فمن ذلك ما كان من حبس الواثق بالله الكتاب وإلزامهم أموالاً». لقد أخذ من إسحاق بن يحيى بن معاذ ٨٠٠٠٠ دينار؛ من سليمان بن وهب (كاتب إيتاخ) ٤٠٠٠٠٠ دينار؛ الحسن بن وهب ١٤٠٠٠ دينار؛ أحمد بن الخصيب وكتّابه ١٠٠٠٠٠؛ إبراهيم بن رياح وكتّابه ١٠٠٠٠٠؛ من نجاح ٦٠٠٠٠ دينار، ومن أبي الوزير صلحاً ١٤٠٠٠٠ دينار، وذلك سوى ما أخذه من العمال بسبب عمالاتهم»[١٢٣].

وزاد عدد المصادرات زمن المتوكل وصارت مورداً مهماً. وخير مثل لدوافع المتوكل في هذه المصادرات ما يذكره الطبري: «فلما عزم المتوكل على بناء الجعفري، قال له نجاح وكان في الندماء... يا امير المؤمنين **أسمي لك قوماً تدفعهم إلي حتى أستخرج لك منهم أموالاً تبني بها مدينتك فإنه يلزمك من الأموال ما يعظم قدره...** فقال له: سمهم، فرفع رقعة يذكر فيها موسى بن عبد الملك (على ديوان الخراج) والحسن بن مخلد (على ديوان الضياع)... وجعفر المعلوف مستخرج ديوان الخراج وغيرهم نحواً من عشرين رجلاً... فوقع ذلك من المتوكل موقعاً أعجبه...». ولم ينجُ هؤلاء من النكبة إلا عداء الوزير (عبيد الله بن يحيى) لنجاح، ودسيسته بأن «أحضر موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد، فقال لهما: إنه إن دخل إلى أمير المؤمنين دفعكما إليه وقتلكما وأخذ ما تملكان، ولكن أكتبا إلى أمير المؤمنين رقعة تقبلان به فيها بألفي دينار»، فاتبعا هذه النصيحة وعذّبا نجاحاً حتى الموت سنة ٢٤٥ هـ[١٢٤]. وفي سنة ٢٣٣ هـ أخذ من إبراهيم بن الجنيد النصراني ٧٠٠٠٠ دينار وصادر كاتبه أبا الوزير على «ستين ألف دينار وحمل بدوره دراهم وحلياً، وأخذ له من

---

(١٢١) **قاموس دوزي**، ج ١، ص ٢٥٨.

(١٢٢) الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ١٤٩.

(١٢٣) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج ١١، ص ١٠ ـ ١٢.

(١٢٤) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٥٨ ـ ٥٩، واليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢١٦.

متاع مصر اثنين وستين سفطاً واثنين وثلاثين غلاماً وفرشاً كثيراً»، وصادر أحد كتابه «سعدون بن علي . . . على ٤٠٠٠٠ دينار»، واثنين آخرين على «نيف وثلاثين ألف دينار وأخذت ضياعهم بذلك»[١٢٥].

وفي سنة ٢٣٧ هـ غضب على أحمد بن داوود، فأخذ من ابنه ١٢٠٠٠٠ دينار وجواهر بقيمة ٢٠٠٠٠ دينار «وصولح بعد ذلك على ١٦ ألف ألف درهم، وشهد عليهم جميعاً (الأخوة أيضاً) ببيع كل ضيعة لهم»[١٢٦].

وفي سنة ٢٣٣ هـ صادر عمر بن فرج على عشرة آلاف ألف درهم[١٢٧].

وهذه الأمثلة تبينّ أهمية المصادرة في أواخر العصر العباسي الأول كمورد للخزينة وكثرة اللجوء إليها حتى صارت شبه ضريبة على كبار الكتّاب.

---

(١٢٥) الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣١.

(١٢٦) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٤٥ ـ ٦، والمسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ٤، ص ٤٧.

(١٢٧) انظر: الطبري، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٣٠؛ اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج ٣، ص ٢٠٩، وابن الأثير، **تاريخ الكامل**، ج ٧، ص ٢٦ ـ ٢٧.

المراجـــع

١ ـ العربيـة

كتـب

ابن آدم القرشي، أبو زكريا يحيى بن سليمان. **كتاب الخراج**. باعتناء جوينبول. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٦.

ــــ. ــــ. صححه وشرحه أحمد محمد شاكر. القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد. **تاريخ الكامل**. القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٠٣هـ/ [١٨٨٥م]. ١٢ ج في ٦.

ابن بدرون، عبد الملك بن عبد الله. **شرح قصيدة ابن عبدون**. القاهرة: مطبعة السعادة، [د. ت.].

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي. **مناقب بغداد**. عني بتصحيحه محمد بهجة الأثري. بغداد: مطبعة دار السلام، ١٣٤٢هـ/ [١٩٢٣م؟].

ــــ. **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**. حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧-١٣٥٨هـ/ [١٩٣٨-١٩٣٩م؟]. ١٠ ج.

ابن حوقل، أبو القاسم محمد. **كتاب صورة الأرض: وهو يحتوي على نص النسخة المرقومة ٣٣٤٦ المحفوظة في خزانة السراي العتيق في استانبول: وكذلك على صور هذه النسخة وقد استتم بمقابلة نص الطبعة الأولى وبعض المصادر الأخرى**. ط ٢. ليدن: مطبعة بريل، ١٩٣٩. ٢ ج. (المكتبة الجغرافية العربية؛ ٢)

ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله. **كتاب المسالك والممالك**. باعتناء ميخائيل جان دوغويه. ليدن: مطبعة بريل، ١٩٦٧. (المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦)

ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر**. القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٨٤هـ/ [١٨٦٧م]. ٧ ج.

ـــــ . **مقدمة ابن خلدون**. طبعة مصطفى محمد. بيروت: [د. ن.: د. ت.].

ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ويليه فوات الوفيات لصلاح الكتبي؛ وبهامشه الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية؛ ويليه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**. القاهرة: الحلبي، ١٣١٠هـ/ [١٨٩٢م]. ٢ ج.

ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد. **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**. القاهرة: مطبعة دار إحياء الكتب العربية، ١٩٢٤.

ابن الساعي، أبو طالب علي بن أنجب. **مختصر أخبار الخلفاء العباسيين**. بولاق: المطبعة الأميرية، ١٣٠٩هـ/ [١٨٩١م].

ابن سلام، أبو عبد القاسم الهروي. **الأموال**. صححه وعلق هوامشه محمد حامد الفقي. القاهرة: مطبعة حجازي، ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م. ٤ ج في ١.

ابن الطقطقى، محمد بن علي بن طباطبا. **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**. القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ/ [١٨٩٩م].

ابن طيفور، أبو الفضل أحمد الخراساني. **كتاب بغداد**. باعتناء كيلر. ليبزج: [د. ن.]، ١٩٠٨.

ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد. **العقد الفريد**. صححه وشرح غريب ألفاظه أحد أفاضل العصر. القاهرة: محمود شاكر، ١٩١٣. ٤ ج.

ابن العبري، أبو الفرج يوحنا غريغوريوس. **تاريخ مختصر الدول**. وقف على طبعه الأب انطون صالحاني. بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٠.

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن. **التاريخ الكبير**. اعتنى بترتيبه وتصحيحه عبد القادر بدران. دمشق: مطبعة روضة الشام، ١٣٢٩-١٣٣٢هـ/ [١٩١١-١٩١٣م؟]. ٥ ج في ٣.

ابن عماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. القاهرة: مكتبة القدسي، ١٣٥٠-١٣٥١هـ/ [١٩٣١-١٩٣٢م؟]. ٨ ج.

ابن الفقيه الهمذاني، أحمد بن حمد. **مختصر كتاب البلدان**. ليدن: مطبعة بريل، ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م. (المكتبة الجغرافية العربية؛ ٥)

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. **الإمامة والسياسة**. القاهرة: مطبعة النيل، [١٣٣١هـ/ ١٩١٢م]. ٢ ج في ١.

ـــــ . **المعارف**. القاهرة: [د. ن.]، ١٩٣٥.

ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر. **البداية والنهاية في التاريخ**. القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٢٩-١٩٣٩. ١٤ ج.

ابن النديم، أبو الفرج محمد بن اسحق. **الفهرست**. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٤٨هـ/[١٩٢٩م].
أبو الصابئ، الحسين هلال بن المحسن. **رسائل الصابي**. [اعتنى برسائل الجزء الأول شكيب أرسلان]. بعبدا، لبنان: [د. ن.]، ١٨٩٨.
أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن علي. **المختصر في أخبار البشر: تاريخ أبي الفداء**. القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٢٥هـ/[١٩٠٧م]. ٤ ج في ٢.
أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين. **الأغاني**. القاهرة: الساسي، [د. ت.].
ـــــ. **مقاتل الطالبيين**. النجف: [د. ن.]، ١٣٥٣هـ/[١٩٣٤م].
أبو يعلى الفراء، محمد بن الحسين. **الأحكام السلطانية**. صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي. القاهرة: البابي، ١٣٥٧هـ/[١٩٣٨م].
أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم. **كتاب الخراج**. اعتمد في هذه الطبعة على نسخة مخطوطة في الخزانة التيمورية رقم ٦٧٤ فقه مع معارضتها بطبعة بولاق سنة ١٣٠٢هـ. القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩٧٦.
الأتليدي، محمد دياب. **أعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس**. القاهرة: [د. ن.: د. ت.].
الأربلي، عبد الرحمن سنبط. **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سيرة الملوك**. بيروت؛ القدس: مطبعة القديس جاورجيوس، ١٨٨٥.
الأشعري، أبو الحسن علي بن اسماعيل. **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**. تصحيح هـ. ريتر. استانبول: [د. ن.]، ١٩٣٠. ٢ ج.
الاصطخري، أبو اسحق ابراهيم بن محمد. **كتاب المسالك والممالك: وهو معول على كتاب صور الأقاليم لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي**. باعتناء جان دو غويه. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٧٠. (المكتبة الجغرافية العربية؛ ١)
الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب. **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**.
الأفغاني، سعيد. **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام**. دمشق: المطبعة الهاشمية، ١٩٣٧.
أمين، أحمد. **ضحى الإسلام**. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٤. ٣ ج.
بارتولد، ف. **تاريخ الحضارة الإسلامية**. نقله من التركية إلى اللغة العربية حمزة طاهر؛ قدم له عبد الوهاب عزام. القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٢.
ـــــ. **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي**. نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، قسم التراث العربي، ١٩٨١.

بتلر، ألفرد جوشيا. **فتوح العرب لمصر**. عربه محمد فريد أبو حديد. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٣.

بدر، أحمد محمود [وآخرون]. **بحوث ودراسات في تاريخ العرب**. دمشق: دار طلاس، ٢٠٠٢. ٢ ج.

ج ١: **مهداة إلى نبيه عاقل**.

ج ٢: **مهداة إلى الأستاذ محمد خير فارس**.

البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر. **الفرق بين الفرق**. حقق أصوله، وفصله، وضبط مشكله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد. القاهرة: مكتبة المعارف، ١٩١٠.

البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى. **فتوح البلدان**. القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٩٠١.

البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد. **الآثار الباقية عن القرون الخالية** = *Chronologie orientalischer volker*. تحقيق إدوارد ساخو. ليبزج: [د. ن.: ١٨٧٨].

التنوخي، أبو علي المحسن بن علي. **الفرج بعد الشدة**. القاهرة: [د. ن.]، ١٩٣٨. ٢ ج.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **البيان والتبيين**. حققه وشرحه حسن السندوبي. ط ٢. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٢.

ـــــ. **الحيوان**. بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. القاهرة: البابي، [١٩٣٨-١٩٤٥]. ٧ ج.

ـــــ. **رسائل الجاحظ**. ٣ ج.

ج ١: **الرسائل السياسية**.

جبريالي. **المأمون والعلويون**.

جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة. جمعها أحمد زكي صفوت. القاهرة: البابي، ١٩٣٧-١٩٣٨. ٤ ج.

الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس. **الوزراء والكتاب**. عني بتصحيحه وتحقيقه عبد الله اسماعيل الصاوي. القاهرة: عبد الحميد أحمد حنفي، ١٩٣٨.

جوزي، بندلي. **من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام**. القدس: [د. ن.]، ١٩٢٨.

ـــــ. ـــــ. القاهرة: دار الهلال، ١٩٠٣. ٥ ج.

خدوري، مجيد. **الصلات الدبلوماطيقية بين الرشيد وشارلمان**. بغداد: مطبعة التفيض الأهلية، ١٩٣٩.

الخضري، محمد. **محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية**. القاهرة: [د. ن.]، ١٩٢١. ٣ ج.
ج ٣: **الدولة العباسية**.
الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي. **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**. باعتناء سالمون. باريس: [د. ن.]، ١٩٠٤.
ـــــ. ـــــ. القاهرة: [د. ن.]، ١٩٣١. ١٤ ج.
الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **كتاب مفاتيح العلوم**. نشره فان فلوتن. ليدن: [مطبعة بريل]، ١٨٩٥.
دائرة المعارف الإسلامية.
الدميري، كمال الدين محمد بن موسى. **حياة الحيوان الكبرى: وبهامشه عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات** لزكريا بن محمد بن محمود القزويني. بولاق: المطبعة الميمنية، ١٣٠٥هـ/[١٨٨٧م؟]. ٢ ج في ١.
الدينوري، أحمد بن داود أبو حنيفة. **الأخبار الطوال** = *Al-Akhbar et-tiwal*. تصحيح فلاديمير جرجاس. ليدن: بريل، ١٨٨٨.
الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **كتاب دول الإسلام**. حيدر آباد الدكن: [د. ن.، ١٩٠٩]. ٢ ج في ١.
الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: ومعه بحث في الصوفية والفرق الإسلامية**. [ضبط] مصطفى عبد الرازق؛ بمراجعة وتحرير علي سامي النشار. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٨.
رباط، أنطون. **الرشيد والبرامكة**. بيروت: [د. ن.]، ١٩١٠.
رسائل البلغاء: تحتوي على ما عرف لعبد الله بن المقفع من الأدب الصغير والأدب الكبير وغيرهما وما لعبد الحميد بن يحيى الكاتب من الرسائل والنتف والحكم وعلى الرسالة العذراء في موازين البلاغة وأدوات الكتابة لأبي اليسر ابراهيم بن محمد بن المدبر. عني بجمعها محمد كرد علي. القاهرة: دار الكتب العربية الكبرى، ١٩١٣.
رفاعي، أحمد فريد. **عصر المأمون**. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٧. ٣ ج.
زيدان، جرجي. **تاريخ التمدن الإسلامي**. القاهرة: دار الهلال، ١٩١٨. ٥ ج.
الزين، محمد حسين. **الشيعة في التاريخ**. صيدا: مطبعة العرفان، ١٩٣٨.
سهراب. **عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة وكيف هيئة المدن وإحاطة البحار بها وتشقق أنهارها ومعرفة جبالها وجميع ما وراء خط الاستواء والطول والعرض بالمسطرة الحساب والعدد والبحث على جميع ما ذكر**. اعتنى بنسخه وتصحيحه هانس فون مزيك. فينا: أدولف هولزهوزن، ١٩٢٩.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. **تاريخ الخلفاء**. القاهرة: [د. ن.]، ١٢٥٧هـ/[١٨٤١م].

ـــــ. **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**. القاهرة: [د. ن.]، ١٣٢١ هـ/[١٩٠٣؟م]. ٢ ج في ١.

الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم. **الملل والنحل** (طبع حجر).

ـــــ. **نهاية الإقدام في علم الكلام**. حرره ألفرد جيوم. لندن: اوكسفورد يونيفرستي برس، [١٩٣١].

ـــــ. **الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء**. تحقيق عبد الستار أحمد فراج. القاهرة: البابي، ١٩٥٨.

الصولي، محمد بن يحيى أبو بكر. **أدب الكتاب**. نسخه وعني بتصحيحه وتعليق حواشيه محمد بهجة الأثري. بغداد: المكتبة العربية، ١٣٤١هـ/[١٩٢٢م؟].

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **اختلاف الفقهاء**، باعتناء يوسف شخت. ليدن: [مطبعة بريل]، ١٩٣٣.

ـــــ. **تاريخ الأمم والملوك**. القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م. ١٣ ج في ٥.

ـــــ. **تاريخ الطبري**.

عبد القادر، علي حسن. **نظرة عامة في تطور الفقه الإسلامي**. القاهرة: [مكتبة القاهرة الحديثة]، ١٩٤٢.

عنان، محمد عبد الله. **دولة الإسلام في الأندلس**. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٣-١٩٦٠. ٤ ج.

العيون والحدائق في أخبار الحقائق. باعتناء ماتهيسن. ليدن: [مطبعة بريل]، ١٨٤٩. ٢ ج.

فلهاوزن، يوليوس. **الدولة العربية وسقوطها**. نقله إلى العربية يوسف العش. دمشق: مطبعة الجامعة السورية، ١٩٥٦.

فلوتن، غيرلوف فان. **السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية**. ترجمه عن الفرنسية ونقده وعلق عليه حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم. القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٣٤.

قاموس دوزي.

قدامة بن جعفر، أبو الفرج. **الخراج وصناعة الكتابة**. باعتناء جان دو غويه. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٩. (المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦)

القزويني، أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود. **آثار البلاد وأخبار العباد**.

تحقيق وستنفلد عن مخطوطات برلين، غوطا وليدن. ليدن: غوتنجن، ١٨٤٨-١٨٤٩.

كرد علي، محمد. **الإدارة الإسلامية في عز العرب**. القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٣٤.

الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب. **أصول الكافي: وبهامشه شرح الملا محمد صالح المازندراني**. (طبع حجر)

الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف. **الولاة وكتاب القضاة**. مهذباً ومصححاً بقلم رفن كست. بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨.

الكيلاني، وجيه فارس. **الدعاة من المتألهين والمتنبئين والمتمهدين**. القاهرة: المطبعة العربية، ١٩٢٣.

لسترنج، كي. **بغداد في عهد الخلافة العباسية**. تعريب بشير فرنسيس. بغداد: [د. ن.]، ١٩٣٦.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد. **الأحكام السلطانية**. القاهرة: [د. ن.]، ١٩٠٩.

المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. **الكامل**. عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاتة. القاهرة: مطبعة نهضة مصر، [١٩٥٦].

متز، آدم. **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**. نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠-١٩٤١. ٢ ج.

محاضرات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٢٥-١٩٥٤. دمشق: المجمع، [١٩٥٤]. ٣ ج.

المدور، جميل نخلة. **حضارة الإسلام في دار السلام**. ط ٢. القاهرة: مطبعة المؤيد، ١٩٠٥.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. **التنبيه والإشراف**. عني بتحقيقه ومراجعته عبد الله اسماعيل الصاوي. القاهرة: مكتبة الشرق الإسلامية، ١٩٣٨.

ــــــ. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. النص العربي مع الترجمة الفرنسية بقلم ك. بارييه دو مينار وبافيه دو كورتبي. باريس: المطبعة العسكرية الامبراطورية، [١٨٦١-١٨٧٦]. ٩ ج.

ــــــ. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. راجع أصوله، ورقمه، وضبط مبهمه، وعلق عليه محمد محي الدين عبدالحميد. القاهرة: دار الرجاء، ١٩٣٨. ٤ ج.

ــــــ. ــــــ. طبعة بارييه دو مينار وبافيه دو كورتبي، عني بتنقيحها وتصحيحها شارل بلا. بيروت: الجامعة اللبنانية، ١٩٦٦. (منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية؛ ١٠)

المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. حققه ميخائيل جان دوغويه. ليدن: [مطبعة بريل]، ١٨٧٦.
المقدسي، المطهر بن طاهر. **البدء والتاريخ (المنسوب) لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي** = *Le Livre de la creation et de l'histoire de Motahhar ben Tahir el-Maqdisi*. اعتنى بنشره وترجمته من العربية إلى الفرانسوية كلمان هوار. باريس: ارنست لورو، ١٨٩٩. ٦ ج.
المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي. **الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها**. القاهرة: مكتبة المليجي، [١٩٠٦-١٩٠٨]. ٥ ج.
ـــــ. **شذور العقود في ذكر النقود**. النجف: [د. ن.: د. ت.].
الوطواط، جمال الدين محمد بن ابراهيم. **غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة**. القاهرة: مطبعة بولاق، ١٢٩٩هـ/[١٨٨١م].
اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد. **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**. حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف النظامية، ١٣٣٧-١٣٣٩هـ/[١٩١٨-١٩٢٠م؟]. ٤ ج.
ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله. **معجم البلدان**. [تحقيق] محمد أمين الخانجي. القاهرة: جمالي وخانجي، ١٩٠٦. ٨ ج.
اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب. **البلدان**. النجف: المطبعة الحيدرية، ١٩٣٩.
ـــــ. **تاريخ اليعقوبي**. النجف: المكتبة المرتضوية، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م. ٣ ج في ١.
ـــــ. **مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر**. تحقيق محمد كمال الدين عز الدين. القاهرة: عالم الكتب، [١٩-؟].

دوريـات

حسن، حسن ابراهيم. «المأمون وعلي الرضا.» **مجلة كلية الآداب** (جامعة القاهرة): أيار/مايو ١٩٣٣.
الدوري، عبد العزيز. «التنظيمات المالية لعمر بن الخطاب.» **القضاء**: العدد ٥، ١٩٤٤.
ـــــ. «النظام النقدي في العراق في القرن الرابع الهجري.» **القضاء**: ١٩٤٢.
القضاء: العدد ١، ١٩٤٥.
مجلة كلية الآداب: ١٩٣٣.
المشرق (بغداد): ١٩٣٤.

٢ ـ الأجنبية

Books

Aghnides, Nicholas P. *Muhammadan Theories of Finance*. New York: [n. pb.], 1916.

Ali, Syed Ameer. *A Short History of the Saracens; Being a Concise Account of the Rise and Decline of the Saracenic Power and of the Economic, Social and Intellectual Development of the Arab Nation from the Earliest Times to the Destruction of Bagdad, and the Expulsion of the Moors from Spain*. London: Macmillan, 1934.

Arnold, Thomas W. *The Caliphate*. Oxford: Clarendon Press, 1929.

Barthold, W. *Mussulman Culture*. Translated from the Russian by Shahid Suhrawardy; With a foreword by Hassan Suhrawardy. [Calcutta]: University of Calcutta, 1934.

_____. *Turkestan down to the Mongol Invasion*. Translated from the original Russian and revised by the author with the assistance of H. A. R. Gibb. 2nd ed. London: Luzac and Co., 1928. (E. J. W. Gibb Memorial Series. New Series; V)

Bretschneider, E. *Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources: Fragments towards the Knowledge of the Geography and History of Central and Western Asia from the 13th to the 17th Century*. London: K. Paul, Trench, Trübner and Co., Ltd., 1937. 2 vols. (Trübner's Oriental Series)

Browne, Edward Granville. *Literary History of Persia*. Cambridge [Eng.]: University Press, 1928-1929. 4 vols.

Vol. 1: *From the Earliest Times until Firdawsī.*

Buckler, F. W. *Harunu'l-Rashid and Charles the Great*. Massachusetts: [n. pb.], 1931.

Bukhsh, S. Khuda. *Contributions to the History of Islamic Civilization*. Calcutta: [n. pb.], 1929-1930. 2 vols.

Cambridge Medieval History. Planned by J. B. Bury; Edited by H. M. Gwatkin [and] J. P. Whitney. Cambridge, MA: [University Press], 1911- 1936). 8 vols.

Vol. 2: *The Rise of the Saracens and the Foundation of the Western Empire*. Reprinted with corrections.

Vol. 4: *The Eastern Roman Empire (717-1453)*. Edited by J. R. Tanner, C.W. Previté-Orton, and Z.N. Brooke.

Chau Ju-Kua: His Work on the Chinese and Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries. St. Petersburg: Print. Off. of the Imperial Academy of Sciences, 1911.

Christensen, Arthur. *L'Iran sous les Sassanides*. Copenhague: Levin et Munksgaard, 1936.

Hitti, Philip K. *History of the Arabs*. London: Macmillan, 1937.

Lane-Poole, Stanley. *The Mohammedan Dynasties: Chronological and Genealogical Tables with Historical Introductions*. Westminster: A. Constable and Company, 1894.

Lavoix, Henri. *Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque nationale*. Paris: Imprimerie nationale, 1887-1896). 3 vols.

Vol. 1: *Khalifes orientaux*.

Muir, William. *The Caliphate, its Rise, Decline, and Fall: From Original Sources*. New and rev. ed. by T. H. Weir. Edinburgh: J. Grant, 1924.

Nöldeke, Theodor. *Sketches from Eastern History*. Tr. by John Sutherland Black. London; Edinburgh: A. and C. Black, 1892.

Philby, H. St. J. B. *Harun al Rashid*. With a frontispiece. [London]: P. Davies, Limited, 1933.

Reinaud, M. *Invasions des Sarrazins en France et de France en Savoie, en Piémont et dans la Suisse, pendant les 8ème, 9 ème et 10 ème siècles de notre ère, d'après les auteurs chrétiens et mahométans*. Paris: Vve Dondey-Dupré, 1836.

Sadighi, G. H. *Les Mouvements religieux iraniens au IIème et au IIIème siècle de l'hégire*. Paris: Les Presses modernes, 1938.

Two Lives of Charlemagne. Translated with an introd. by Lewis Thorpe. Baltimore, MA: Penguin Books, 1969. (Penguin Classics; L213)

Vloten, Gerlof van. *Recherches sur la domination arabe, le chiitisme et les croyances messianiques sous le khalifat des Omayades*. Amsterdam: J. Müller, 1898. (Verhandelingen der Koninklijke Akademie van Weteschappen te Amsterdam, Afdeeling Letterkunde, Nieuwe reeks, deel 1; no. 3)

Wellhausen, J. *The Arab Kingdom and its Fall*. Translated by Margaret Graham Weir. [Calcutta]: University of Calcutta, 1927.

Periodicals

Joranson, Einar. «The Alleged Frankish Protectorate in Palestine.» *American Historical Review*: vol. 32, 1927.

Runciman, Steven. «Charlemagne and Palestine.» *English Historical Review*: vol. 50, 1935.

Times: -/8/1933.

Thesis

Duri, A. «Studies on the Economic Life of Mesopotamia in the 10th Century.» (Ph.D. Thesis, University of London, School of Oriental and African Studies, [n. d.]).

فهـــرس

- ب -

- ع -

- ن -